

رواية

فيليب روث

أستاذ الشهوة

ترجمة: أسامة منزلجي

أستاذ الشهوة



Author: **Philip Roth** | اسم المؤلف: فيليب روث

Title: **The Professor of Desire** | عنوان الكتاب: أستاذ الشهوة

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800

☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017

☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275

☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

فيليب روث

أستاذ الشهوة

ترجمة : أسامة منزلجي



الإهداء للممثلة

كلير بلوم

فيليب روث

وُلِدَ فيليب روث في نيويورك عام 1933. نوفيللاه الأولى «وداعاً كولومبوس» الصادرة عام 1959، لفتَتْ أنظارَ النُّقاد إليه وحازت على جائزة الكتاب الوطني للرواية، يُعَدُّ أهمَّ روائيّ في أميركا حسب استطلاعات القُرّاء، يصفه النُقَّاد بأنه امتدادٌ لوليم فوكنر ولسكوت فيتزجيرالد صاحب غاتسبي العظيم... حصل على 19 جائزة أدبيّة، أشهرُها بوليتزر ومان بوكر الدولية، وثلاثَ مرّات جائزة فوكنر، يُعَدُّ واحداً من أهمّ أربعة كُتّاب في تاريخ الأدب الأميركي إلى جانب وليام فوكنر وسول بيلو وجون أبدايك.

فاز فيليب روث عام 1997 بجائزة بوليتزر عن روايته American Pastoral (الكاهن الأمريكي). تسلَّم روث عام 1998 ميدالية الفنون الوطنية في البيت الأبيض. وفي عام 2002 تلقَّى أعلى جائزة من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب والميدالية الذهبيّة في الآداب التي مُنحت سابقاً لكلٍّ من جون دوس باسوس وويليام فوكنر وسول بيلو من بين آخرين. فازَ مرَّتَين بجائزة الكتاب الوطنية وجائزة بين/ فوكنر وجائزة حلقة نُقّاد الكتب الوطنية. في عام 2005 تلقى عن روايته The Plot Against America (المؤامرة على أمريكا) جائزة جمعية المؤرِّخين الأمريكيين على «هذه الرواية التاريخية المُذهلة ذات الثيمة الأمريكية بين 2003-2004»، وجائزة دبليو. إتش. سميث لأفضل كتاب سنوي وهذا بدوره حوّل روث إلى أول كاتب يربح الجائزة مرتين في تاريخ الجائزة البالغ ستة وأربعين عاماً.

في عام 2005 أصبح روث ثالث كاتب أمريكي على قيد الحياة مِمَّن نَشرت لهم مكتبة أمريكا أعمالَهم في مجلَّدات شاملة وكاملة. تلقَّى عام

2011 ميدالية العلوم الإنسانية الوطنية في البيت الأبيض وتمَّت تسميتُه لاحقاً ليكون المُتلقِّي الرابع لجائزة مان بوكر العالمية. في عام 2012 حظي بأكبر تكريم إسباني «جائزة الأمير أستورياس» وفي عام 2013 تلقَّى أكبر تكريم فرنسي Commander of the Legion of Honor. توفّي فيليب روث عام 2018.



t.me/yasmeenbook

أتتني الغواية للمرَّة الأولى متمثّلة بالشخصيّة البارزة لهيربي براتاسكي، مدير العلاقات العامّة، ورئيس الفرقة الموسيقيّة، والمغني العاطفي، والممثل الهزليّ، ومدير مُنتجع العائلة الجبليّ، الذي عندما لا يرتدي سروال السباحة الضيِّق المطّاطيّ الخاص بأصحاب العضلات الذي يلبسه في أثناء إعطاء دروس رقص الرومبا بجوار بركة السباحة، يرتدي ملابس تجذب الانتباه، وفي العموم كان يرتدي سترته ذات اللونين المتناقضَين القرمزيّ والكريم «الخاصة بالمتسكعين»، والبنطلون الفضفاض ذا اللون الأصفر الفاتح الذي يُصبح مُستدقّاً مع هبوطه حتى يُحيط بمنطقة فوق حذائه الأبيض، المُخرَّم، الطويل والضيِّق مباشرة، ويحمل في جيبه قطعة حديثة العهد من اللبان بنكهة اليانسون، بينما يمضغ قطعة أخرى، بأناقة بطيئة الحركة، طريقة تصِفها أمي ساخرة بأنها «عِواء» هيربي. وتحت حزام جلد التمساح الضيِّق الدارج وسلسلة المفاتيح الذهبيّة المتدليّة كانت إحدى رُكبتيه تتحرَّك داخل بنطلونه. كان هيربي يُحافظ على وقع إيقاعٍ لا يسمعه أحد غيره وهو يضرب داخل ذلك الغاب المُسمّى دماغه. كان بحثنا الموجز (من الصف الرابع فما بعد الذي كتبته بنفسي، وبالتعاون مع المالك) يصِفُ هيربي بأنّه «نسختنا اليهوديّة من كوغات[1]، ونسختنا اليهوديّة من كروبا[2]- كلاهما دفعة واحدة!»، وزيادة على ذلك، وُصِفَ بأنّه «نسخة ثانية من داني كيه[3]»، وأنّه نسخة من «توني

1- كزافييه كوغات: موسيقي إسبانيّ، نشر الموسيقى الإسبانيّة في العالم، وأقام في كوبا. - المترجم

2- كروبا: قارع طبل في موسيقى الجاز.

3- داني كيه (1911-1987): مغن ومُمثّل ومتعدِّد المواهب. يهودي أميركي. - المترجم

مارتن[1]» لكي يفهم كل شخص، في الختام، أنّ هذا الفتى ذا العشرين ربيعاً ويزن 140 رطلاً، ليس نكرة وأنَّ مُنتجع هنغاريان رويال الذي يقطن كيبيش فيه ليس، ***بالضبط***، مكاناً مغموراً.

بدا أنَّ ضيوفنا لم يكونوا أقلّ ذهولاً من طبيعة هيربي الاستعراضيّة السافرة مني أنا. فما إنْ يستقر وافد جديد على كرسيّ مصقول في الشرفة حتى يبدأ أحد القُدامى الذين وصلوا من المدينة الحارَّة في الأسبوع السابق بإمداده بحقائق السِمة العجائبيّة لجماعتنا. «وانتظر حتى ترى السُمرة التي تكسو بشرة هذا الفتى. إنَّ بشرته هي من هذا النوع - لا تحترق، بل فقط تُصبح سمراء، بعد قضاء يوم واحد فقط تحت أشعّة الشمس. إنَّ هذا الفتى يحمل بشرة يعود تاريخها إلى أيام الكتاب المُقدّس»

بسبب الخلل الذي أصيبت به طبلة أُذنه، بقيَ صاحبنا جاذب الأنظار -كما يحبّ هيربي أنْ يصِفَ نفسه، خاصة على الرغم من اعتراض أمي- يُلازمنا طوال دوام الحرب العالمية الثانية. ودار نقاش لا ينتهي في أثناء الجلوس على الكراسي الهزّازة وحول طاولات لعب الورق عمّا إذا كانت الإعاقة خلقيّة أم أنّه سبّبها لنفسه. وقد استفزّني اقتراح يقول إنَّ شيئاً آخر غير الطبيعة الأم هو الذي يمكن أنْ يكون قد تسبَّب في جعل هيربي عاجزاً عن مُحاربة توجو[2]، وموسوليني وهتلر -في الواقع، لقد استفزّتني الفكرة بحدّ ذاتها، وعذَّبتني. ومع ذلك شيء مُغرٍ تخيُّل هيربي يتناول دبوس تثبيت القبعة أو عود تخليل الأسنان بيده- أو معولاً لتكسير الثلج! - ويعمد إلى تشويه نفسه لكي يتحايل على لائحة السَحب إلى الخدمة العسكريّة.

قال أحد الضيوف «لا أستبعد أنْ يفعل ذلك، لا أستبعد أنْ يفعل هذا المُخادع أي شيء. يا له من داهية!»، قال ضيف آخر «كفاك، لا يمكن أنْ يفعل شيئاً كهذا. إنّ هذا الفتى وطنيّ كأي شخص آخر. سوف أحكي لكم كيف أصبح شبه أصمّ هكذا، ومن ثم سوف أسأل الطبيب الذي معنا إنْ كنتُ على صواب: إنّ ما به هو من تأثير قرع الطبول»، وقال ضيف ثالث «أوه، ما

1- توني مارتن (1913-2012): مغن أميركي شعبي. - المترجم

2- توجو: وزير حرب اليابان في الحرب العالميّة الثانية. - المترجم

أبرع ذلك الفتى في قرع الطبول، في استطاعته الآن أنْ يعتلي خشبة مسرح روكسي –وأعتقد أنَّ السبب في عدم فعله ذلك هو، كما تقول، أنّه لم يعد يسمع بسبب دويّ تلك الطبول»، وقال ضيف آخر «ومع ذلك، هو لم يجزم إنْ كان قد فعل ذلك باستخدام أداة أو ما شابه أم لا». «ولكن هذا هو الجانب الاستعراضيّ من شخصيته، أنْ يُبقيك مبهوراً بالتشويق. إنَّ كامل مخزونه هو أنّه مجنون إلى درجة أنّه قادر على القيام بأي عمل- هذا كل ما ***يفعل***»، «ومع ذلك، لستُ مُقتنعاً حتى بأنّه يمزح في هذا الأمر. إنَّ لدى اليهود ما يكفي من المشاكل»، «أرجوك، أتعتقد أنَّ فتى يرتدي هكذا من رأسه إلى أخمصه، وصاحب بُنية كهذه تتيح له أنْ يعمل ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى تلك الطبول، أتعتقد أنه سوف يتسبَّب لنفسه بأذى جسديّ خطير كهذا لمجرّد التعبير عن اعتراضه على الحرب؟»، «أوافق على هذا، مئة بالمئة، جين، على سبيل المثال»، «أوه، لقد أحرجتني، يا ابن الحرام. لا أعلم ما الذي يدفعني إلى التعامل مع هذه الأمور، هلّا أخبرني أحدكم؟ اسمعوا، أتعلمون ما الذي لا تعثرون عليه؟ إنكم لا تعثرون على فتى وسيم مثله، وفكه مثله أيضاً. أنْ يكون للمرء مظهر كمظهره، ويكون فكهاً، وأنْ يضرب على الطبول بمثل ذلك الجنون، يُعتبَر بالنسبة إليّ مادة خاصّة تظهر في تاريخ عالم الاستعراض»، «وماذا عنه وهو في بركة السباحة؟ وماذا عن لوح الغطس؟ لو أنَّ بيلي روز[1] شاهده وهو يقوم بالحركة البهلوانيّة في الماء هكذا، لضمَّه إلى فريق الغطس الإيقاعي في الحال»، «وماذا عن صوته؟»، «ليته فقط لا يعبث به – ليته يأخذ الغناء على محمل ***الجد***»، «لو أنَّ ذلك الفتى يُغنّي بجديّة لوصل إلى دار أوبرا ميتروبوليتان»، «لو أنّه يُغنّي بجديّة لأصبحَ قائد جوقة كنسيّة، وحقّ الله، من دون أنْ يواجه أيّة مشكلة. يمكنه أنْ يُحطِّم قلبك. فقط تخيَّل كيف سيبدو وهو يرتدي وشاح الصلاة اليهودي الأبيض فوق بشرته التي لوحتها أشعة الشمس». هنا، أخيراً، شوهِدت وأنا أعمل على صنع نموذج طائرة سبوتْفاير من سلاح الجو الملكيّ على آخر درابزين الشرفة. «هيه، أيّها المتسكِّع الصغير، تعال إلى هنا، يا مَنْ تسترق السمَع. على غرار

1- بيلي روز (1899–1966): نجم في عالم الاستعراض المسرحي، ومؤلِّف أغان. – المترجم

مَنْ تريد أنْ تُصبح عندما تكبُر؟ أصغوا إلى ما يقول - توقفوا قليلاً عن العبث بأوراق اللعب. مَن هو قدوتك، أيها اليهودي؟»

لم أكن مُضطراً إلى إطالة التفكير، أو التفكير أصلاً. أجبتُ «على غرار هيربي»، وأعجب الرجال المُجتمعون بجوابي. الأمهات وحدهن أبدين القليل من الرعب.

مع ذلك، أيّتها السيدات، مَنْ غيره؟ مَنْ غيره صاحب موهبة فذّة في المُحاكاة الساخرة لنبرة كلام كوغي، ولنفير الصلاة، وأيضاً بطلبٍ مني، لهدير طائرة مُقاتلة تغوص رأسيّاً فوق بلدة بيرختسغادن[1] - ***وأيضاً*** يُقلّد الفوهرر وقد جُنَّ جنونه في الأسفل؟ لقد كانت حماسة هيربي وبراعته الفنيّة كبيرتين إلى درجة أنَّ والدي كان أحياناً يُحذّره بوجوب الاحتفاظ ببعض من أساليب المُحاكاة تلك لنفسه، مهما كانت نادرة. فيعترض هيربي قائلاً، «لكنَّ مُحاكاتي مثاليّة»، فيُجيب والدي «ربما، وهذا لا يهمني. ولكن ليس أمام حشدٍ مُختَلَط»، «لكنّني أعمل على تحسين أدائها منذ أشهر. اسمع!»، «أوه، اعفني من كلامك، يا براتاسكي، أرجوك. هذا ليس ما يرغب ضيف مُتعَب مُهذَّب في سماعه في ملهى بعد تناول وجبة عشائه. ألا تستطيع أنْ تُقدِّر هذا الوضع؟ أم إنك لا تستطيع ذلك؟ أحياناً لا أفهمك. لا أفهم أين يشرد عقلك. ألا تُدرك أنَّ أولئك القوم يُديرون محلات بيع اللحم الحلال؟ ألا تدرك أنَّ هناك نساء وأطفالاً؟ يا صديقي، الأمر بسيط - إنَّ إطلاق نفير الصلاة هو من أجل العُطل الكُبرى، أما ما تبقّى فهو لغة المراحيض. كفى، يا هيربي، انتهينا»

وهكذا أصبح يقوم بالمُحاكاة أمامي فقط، يُحاكي القندلفت الممتلئ بالرهبة، والصفير والقرع الإيقاعي الذي منعه والدي الموسويّ[2] من أدائه علناً. وقد تبيَّن أنّه ليس بارعاً فقط في تقليد أُبّهة الأصوات -التي تتراوح بين أوهى أنين في الربيع وحتى هدير تحيّة طلقات المدفع الاثنتي عشرة- التي

1- بلدة بيرختسغادن: بلدة جبليّة ألمانيّة ومُنتجع كان يُقيم فيه الزعيم النازي أدولف هتلر. - المترجم

2- الموسويّ: نسبة إلى النبي موسى. - المترجم

يُطلِق بها الجنس البشريّ غازاته، بل يستطيع أيضاً أنْ «يتخلّص من إسهاله». ثم يُسرِع بإخباري بأنين شخص بائس مسكين يعاني سكرات الموت –فهذا ما كان قد برع فيه وهو في المدرسة الثانويّة– بل بأعلى طبقات الهدير الفاغنيريّ التي تميَّزتْ بها حركة «*العاصفة والعنف*»[1] الخرائيّة. وقال «كأنّني في أحد كتب ريبلي[2]. أنتَ قرأتَ ريبلي، أليس كذلك، إذن احكُم بنفسك!» وسمعتُ صريف انزلاق سحّاب، ثم سيلاً عنيفاً وقوياً يُحسَد عليه داخل حوض المرحاض، ثم تدفّق المياه، ثم ضجيج غرغرة صنبور الماء وصوته المُختنق وقد بدأ يقطر. ثم الماء كلّه يلفظه فم هيربي.

كان في وسعي أنْ أخرّ عند قدميه وأتعبّده.

«واسمع *هذه!*». هاتان اليدان تنظِّف كل منهما الأخرى بالصابون –ولكن يبدو أنَّ هذا يحدث في فم هيربي. «طوال فصل الشتاء كنتُ أتردَّد على المرحاض بجوار آلة البيع وأجلس هناك وأُصغي»، «أكنتَ تفعل هذا؟»، «طبعاً. في كل مرة ألجأ إلى المرحاض أجلس هناك وأصغي حتى إلى نفسي»، «أحقاً؟» «لكنَّ أباك خبير، والأمر كله بالنسبة إليه لا يعني إلّا شيئاً واحداً– أنّه قذر!»، ثم يُضيف هيربي، مُحاكياً بدقّة صوت والدي!، «انتهى الكلام!»

وكان يعني كل كلمة يقولها. وأتساءل، كيف فعل ذلك. كيف استطاع هيربي أنْ يجمع كل تلك المعلومات وأنْ يُبدي كل ذلك الاهتمام بضجيج المرحاض؟ ولِمَ لا يُبدي مُحافظون لا يسمعون الأصوات المُرهفة من أمثال والدي أيّ اهتمام؟

هكذا بدا الأمر في فصل الصيف، وأنا تحت تأثير شيطان العزف على الطبول. ثم حلَّ يوم التكفير ورحل براتاسكي وماذا استفدتُ منْ تعلُّم ما يمكن لشخصٍ مثله أنْ يُعلِّم فتى يافعاً؟ وانتشرتْ بين ليلة وضُحاها عائلاتنا اليهوديّة

1- حركة **Strum und Drang** الأدبيّة: ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسِع عشر في ألمانيا واتّسمت بالعنف وبالنبرة العالية. – المترجم

2- جورج ريبلي (1802–1880): مُصلِح اجتماعي أميركيّ ومن أنصار الفلسفة المتعالية. – المترجم

المختلفة في مناطِق بعيدة بالنسبة إليّ كبُعد مدينة بابل -مزوّدة بحدائق مُعلَّقة تحمل أسماء بيلام وكوينز وهاكنْساك- وطالب السكّانُ الأصليون بالمنطقة المحليّة التي كانوا يحرثون فيها الحقول، ويحلبون الأبقار، ويُديرون محال تجاريّة، ويعملون على مدار العام لمصلحة المقاطعة والولاية. وكنتُ أحد طفلَين يهوديين في صفٍ مدرسيّ يضمّ خمسة وعشرين تلميذاً، ودلَّ ميلي إلى قواعد المُجتمع وأولوياته (التي ترسّخَت فيَّ، كما بدا، كترسّخ تأثّري بكل ما هو محموم، ومُبهرج، وغريب الأطوار) إلى أنّني، بغضّ النظر عن مدى رغبتي في إشعال بطاريتي لكي أعرض على هؤلاء الخرق بعضاً من حيل هيربي، لم أتميَّز عن زملائي في المدرسة بأي شيء ما عدا بالدرجات المدرسيّة. وأدركتُ -حتى من دون اضطرار والدي إلى تذكيري بهذا- أنني لن أُنجِز أيّ شيء في أي مجال آخر. ولم يكن الفشل هو قَدَري.

وهكذا، على غرار فتى مرسوم على الروزنامة، قطعتُ ما يُقارب الميلَين أجرّ قدميّ جراً خلال أكوام الثلوج منحدراً على دربنا الجبليّة المؤدّية إلى المدرسة حيث كنتُ أقضي فصول الشتاء في التفوُّق، في حين بعيداً إلى الجنوب، في تلك المُدن الكبرى، حيث كل شيء ممكن، كافح هيربي (الذي كان يبيع المُشمَّع لمصلحة أحد أقاربه خلال النهار ويعزف مع فرقة جاز لاتينيّة في العِطل الأسبوعيّة) لإكمال سرد آخر انطباعاته عند المغسلة. كان يدوِّن تطوّر حالته على شكل رسالة كنتُ أُخفيها داخل الجيب الخلفيّ الذي يُقفَل بزرّ في بنطلوني القصير وأُعيد قراءتها كلما سنحت لي الفرصة. وبغضّ النظر عن بطاقات التهنئة بأعياد الميلاد وأختام «الإجازة» كانت الشيء الوحيد الذي أتلقّاه من البريد. طبعاً كنتُ أشعر بالرعب من أنني إذا غرقت بينما أتزلج على الجليد أو كسرتُ عنقي وأنا أنزلق، أنْ يعثر أحد زملائي في المدرسة على المُغلَّف المختوم ببروكلين - نيويورك، ويتجمّعون كلّهم حول جثّتي وهم يمسكون بأنوفهم. سوف تشعر أمي وأبي بالخزي إلى الأبد، وسوف يفقد مُنتجع هنغاريان رويال سمعته الطيبة ويُفلِس. قد لا يُسمَح بدفني داخل المقبرة مع اليهود الآخرين. كل ذلك بسبب ما تجرّأ هيربي على كتابته على قطعة من الورق ومن ثم إرسالها عبر مكتب البريد الحكوميّ إلى طفل في التاسعة من عمره تخيّل عالمه (كما تخيَّل هو نفسه)

أنّه مخلوق نقيّ. أحقاً فشل هيربي في فهم مدى رهافة مشاعر الناس في مثل هذه المسائل؟ ألم يعلم أنَّه بمجرد إرسال مثل هذه الرسالة قد يرتكب خرقاً للقانون، ويجعل مني شريكاً في الجريمة؟ ولكنْ إنْ كان الأمر كذلك، لماذا أصررتُ على حمل الوثيقة المُجرّمة معي طوال النهار؟ كنتُ أحملها في جيبي حتى وأنا أقاتل من أجل الفوز بالمرتبة الأولى في مسابقة النُطق السليم إملائيّاً للكلمات أمام الشخص الآخر الذي وصل إلى المُباراة النهائيّة، صديقتي ذات الشَعر المُجعّد وأختي في الديانة التي سوف تُصبح عازفة بيانو في الفرق الكبرى، اللامعة مادلين ليفاين، وهي في جيب البيجاما ليلاً، لكي أقرأها على ضوء المصباح تحت الأغطية، ثم أنام وهي معي، أضعها بجوار قلبي. «إنني منكبّ على معرفة شعوري وأنا أسحب ورقة المرحاض عن البكرة. وهذا أمدّني بسلسلة من الأفكار، يا فتى. إنَّ هربرت ل. براتاسكي ***ولا أحد غيره في العالم*** يستطيع أنْ يتبوّل، أو يتبرَّز، أو يُعاني من الإسهال -***وأيضاً*** أنْ يسحب الورقة نفسها عن البكرة. ولا تتبقّى أمامي إلّا عقبة واحدة- مسحُ القذارة!»

مع بلوغي سن الثامنة عشرة والتحاقي بالعام الأول الدراسي في جامعة سيراكوز، كان ولوعي بالمُحاكاة قد أصبح مُساوياً لولوع أستاذي، ولكن بدل أنْ أمارس المُحاكاة بأسلوب براتاسكي، كنتُ أُحاكي براتاسكي نفسه، والضيوف، وأعضاء الهيئة الإداريّة. جسّدتُ شخصيّة رئيس خدمنا الهنغاري بلباسه الرسميّ وهو يقوم بدور الكلب في غرفة الطعام. «من هنا، من فضلك، مسيو كورنفلد... مدام، أترغبين في المزيد من الجلد؟» – ثم، يعود إلى المطبخ، مُهدِّداً بأقسى العبارات بلغة اليديش بأنْ يشنق الطبّاخ السكران. وجسّدت شخصيات إخواننا من غير اليهود، جورج العامل الأخرق، الذي يُراقب بحياء السيدات وهنّ يتلقين درس رقصة الرومبا بجوار بركة السباحة، وبيغ بَدْ، حارس الإنقاذ العجوز ذا البنية العضليّة (ويعتني بالأرض المُجاورة) الذي يحث بنعومة ربّة المنزل التي تقضي إجازتها على الإسراع، وكذلك، إنْ استطاع، ابنتها التي بلغتْ سن الزواج وتُشمِّس أنفها الجديد. بل إنني أجريتُ حواراً مُطوّلاً (حواراً ريفيّاً مأساويّاً – هزليّاً – تاريخيّاً) بين أبويّ المُرهقَين وهما يخلعان ملابسهما استعداداً للنوم

بعد انتهاء الموسم. وأدهشني قليلاً اكتشافي أنَّ أشدّ أحداث حياتي السابقة عاديّة يعتبرها الآخرون *مُسلّية* - وذُهِلتُ أيضاً في أول الأمر من اكتشافي أنّه لا يبدو أنَّ الجميع استمتعوا بسنوات التكوين الغنيّة بالأنماط الحيّة. ولم أكن أتصوَّر أنني أنا نفسي شديد الحيويّة.

خلال سنواتي الجامعيّة الأولى فزتُ بأدوار رئيسيّة في مسرحيات قُدِمَتْ في الجامعة لجيرودو، وسوفوكليس، وكونغريف. وظهرتُ في عروض مسرحيّة غنائيّة موسيقيّة، وغنّيت، ورقصتُ، على طريقتي. وبدا أنّه ليس هناك أي دور يعصى عليّ أداؤه على خشبة المسرح - وبدا أنّه ليس هناك ما يمكن أنْ *يُبعدني* عن خشبة المسرح. وفي سنتي الدراسيّة الثانيّة، قام والداي بزيارة المدرسة لكي يُشاهداني وأنا أؤدي شخصيّة تيريسياس[1] -وأدّيتُ الدور الذي كان أكبر سناً من كليهما- وبعد ذلك، في حفل ليلة العرض الافتتاحي، تابعا العرض بانزعاج عندما رضختُ لطلب طاقم الممثّلين بتسليتهم بالقيام بمُحاكاة ساخرة لشخصيّة حاخام مهيب معروف بانفعاله المثاليّ وكان يأتي في كل عام «قاطعاً المسافة كلها» من بوغيبسي لكي يترأس صلوات العطلة الكبرى في ملهى الفندق. وفي صباح اليوم التالي رافقتهما في جولة في أرجاء الحَرَم الجامعيّ. وعلى الدرب المؤدي إلى المكتبة مدحني بعض الطلاب على أدائي المُذهل للرجل الطاعن في السن في الليلة السابقة. أثار ذلك إعجاب أمي -لكنّها ذكّرتني أيضاً، بنبرة ساخرة، بأنّها قبل عهد قريب كانت تُغيِّر حفاض النجم المسرحي وتغسله- وقالت «أصبح الجميع يعرفونك، أصبحتَ مشهوراً»، في حين أنَّ والدي سألني من جديد، وهو يُغالب خيبة أمله، «وهل انتهيت من الدراسة في مدرسة الطب؟»، وعلى الأثر أخبرته للمرّة العاشرة -*وأُخبرته* بأنها المرَّة العاشرة- «أريد أنْ أمثّل»، بكامل ثقتي بنفسي، إلى أنْ كان يوم بدا لي فيه أنَّ التمثيل، بأسلوبي، هو أشدّ المِهن عُقماً، وسرعة في الزوال، وتضخيماً للذات بصورة تدعو إلى الرثاء. وانقلبتُ على نفسي بوحشيّة لأنني سمحت لكل شخص، بكل معنى الكلمة، أنْ يعرفني فوراً، أنْ يلمح أعماق غروري الأبله، الذي كانت حدود

1- تيريسياس: في مسرحيّة «*أوديب الملك*» لسوفوكليس. - المترجم

المُعتزَل وعوائق الجدران قد منعتني في السابق من كشفه، حتى أمام نفسي. وجعلني فضحُ نواياي أشعرُ بمهانةٍ شديدة إلى درجة أنني فكّرت في الانتقال إلى مدرسة أخرى، لأبدأ بداية جديدة، غير مُلوَّث في عيون الآخرين بنهم ذاتي إلى الأضواء والتصفيق.

ومرَّتْ أشهر كنتُ خلالها أُحدِّد لنفسي هدفاً جديداً تكفيريّاً. **سوف** ألتحق بمدرسة الطب - وأتدرَّب على إجراء العمليات الجراحيّة. على الرغم من أنني كطبيب نفسي أستطيع أنْ أفيد الجنس البشري أكثر. سوف أصبح مُحامياً... دبلوماسياً... لِمَ **لا** أُصبح حاخاماً مولعاً بالدراسة، متأمّلاً، ***متعمقاً***... أقرأ كتاب «*أنا وأنت*»[1] والحكايات الحصيديّة[2]، وأعود إلى المنزل في العطلة وأطرح أسئلة على والديّ حول تاريخ العائلة في البلد العتيق. ولكنْ مرَّ خمسون عاماً على هجرة جدّيّ إلى أميركا، وبما أنهما توفيا ولم يعُد لدى أولادهما في العموم إلّا الاهتمام العاطفيّ بأصولهم في وسط أوروبا، تخلّيتُ عن الاستفهام في الوقت المناسِب، ونسيت معه أوهام منصب الحاخام. لكنّني لم أنسَ جهودي التي بذلتها لأترسَّخ فيما هو جوهريّ. وما زلتُ أتذكَّر بامتعاض شديد أدائي الضعيف في مسرحيّة «*أوديب الملك*» وأدائي الساحر الشيطانيّ في مسرحيّة «*وهم فينيان*»[3] - يا لكل ذلك ***الأداء*** المُبالَغ فيه! كفى تفاهة وهوساً بالاستعراض! بعد أنْ بلغتُ سنّ العشرين يجب أنْ أتوقّف عن تجسيد شخصيات الآخرين وأنْ أُصبح ذاتي، أو على الأقلّ أنْ أبدأ بتشخيص ذاتي التي أؤمن بأنّه لا ينبغي أنْ أكونها.

اتَّضحَ أنَّ ذاتي -التالية- هي شاب رصين، وانعزاليّ، ومهذَّب، يُكرِّسُ نفسه للأدب الأوروبي وللّغات. وتسلّى رفاقي من الممثلين من الطريقة التي تخلّيتُ بها عن المسرح وانتقلتُ إلى غرفة للإيجار، وأخذتُ معي أولئك

1- كتاب «*أنا وأنت*»: مجموعة من الحكم والتأملات ألّفها المفكر الألماني مارتن بوبر عام 1923. - المترجم

2- *الحكايات الحصيديّة*: حكايات مكتوبة ومنقولة شفويّاً من تأليف الكاتب الآنف الذكر في المادة السابقة. - المترجم

3- «*وهم فينيان*»: عرض مسرحي غنائي، حوّله المخرج فرانسيس فورد كوبولا إلى فيلم سينمائيّ عام 1968، من بطولة فريد أستير وبتولا كلارك. - المترجم

الرفاق من الكتّاب الذين قرّرتُ أنْ أُسمّيهم، قبل أنْ أتخرَّج، «مُهندسي عقلي»، وقد تناهى إلى سمعي أنَّ مُنافسي في الدراما الاجتماعيّة قال، «نعم، لقد غادر ديفيد العالم لكي يُصبح رجل دين». في الواقع، يبدو أنني كنتُ أتمتّع بالهيبة، وبالسلطة، لاستعراض نفسي وخياراتي، ولكن فوق ذلك كلّه لأنني مُناصِر للاستبداد -*مُناصِرٌ شاب* للاستبداد- ولا أعرف طريقةً أخرى لتغيير جلدي خلاف أنْ أُقحِم مِبضعاً وأُمزِّق نفسي من طرفٍ إلى طرف. وأنا إمّا هذا أو ذاك. هكذا، وأنا في العشرين من العمر، انطلقتُ لأحلّ التناقضات، وأتجاوز الشكوك.

خلال السنوات المتبقّية لي في الجامعة عشتُ كما كنتُ أعيش في فصول الشتاء وأنا فتى صغير، عندما كان الفندق يغلق أبوابه وأنكبّ على قراءة مئات الكتب من المكتبة في أثناء مئات العواصف الثلجيّة. وكانت أعمال الترميم والتحديث تجري يوميّاً طوال الأشهر القطبيّة - فأسمع ضجيج سلاسل أُطُر السيارات وهي تشق الطرق المحفورة، وأسمع ألواح الخشب تسقط من الشاحنات الصغيرة إلى الثلج، والضجيج البسيط المُلهِم للمطرقة والمنشار. وخارج عتبة النافذة التي يُتوّجها الثلج أرى جورج يقود السيارة ويصطحب معه بيغ بَدْ من أجل إصلاح الأكواخ بجوار بركة السباحة المُغطّاة. وأُلوِّحُ بذراعي. فيُطلِق جورج نفير السيارة... بالنسبة إليّ كأنّ آل كيبيش هم ثلاثة حيوانات في حالة سُباتٍ شتويّ ممتع، وحصين، والماما، والبابا، والطفل الوليد مندسّون بأمان في جنّة العائلة.

بدل أنْ نصطحب معنا الضيوف الممتلئين بالحيويّة أنفسهم، كنا نأخذ في فصل الشتاء رسائلهم، ويقرأها والدي بصوتٍ مرتفع بكل حيويّة وفخامة على مائدة العشاء. كان اختصاص الرجل الترويج *لنفسه*، من وجهة نظره؛ وأيضاً، *توفير التسلية للناس*، وأيضاً، مهما كان سلوكهم سيئاً، ***كان يُعاملهم كبشر***. ولكن خارج الموسِم، كان توازن القِوى يختلّ قليلاً، كان الزبائن، الذين يتوقون إلى تناول محشي القرنبيط وإلى الشمس الساطعة وإلى الضحك، هم الذين يتجرّدون من غطرستهم المُتطلِّبة -كانت أمي تقول «بعد أنْ يُسجّلوا حضورهم ويوقّعوا بأسمائهم، يُصبح فجأة كل رجل عصابات وزوجته الوضيعة هما دوق ودوقة ويندسور»- ويبدؤون بمعاملة

والدي كأنه هو أيضاً عضو كامل العضويّة في تلك الطبقة، بدل أنْ يكون هدفاً لسخطهم، وداعماً لأنماط حياتهم الملكيّة المُبتذلة السخيفة. وعندما تتراكم الثلوج، كانت تصله أربع رسائل أو خمس في الأسبوع حافلة بالأخبار -عن حفلِ خطبةٍ في جاكسون هايتس، وانتقال أحدهم إلى ميامي لدواعٍ صحيّة، وافتتاح متجر جديد في وايت بلينز... أوه، كم كان يُحبّ أنْ يصله أفضل وأسوأ ما يقع لهم من أحداث. كان ذلك يُثبت له شيئاً حول ما يعنيه منتجع هنغاريان رويال بالنسبة إليهم- في الحقيقة إنَّ هذا يُثبت كل شيء، وليس ما يتعلَق بما يعنيه فندقه فقط.

بعد قراءة الرسائل، يُفسِحُ حيِّزاً في آخر الطاولة، وإلى جوار طبقٍ مملوء بمعجّنات الروغاليش أعدَّته أمي، وبامتداد كامل يده يكتب رسائله الجوابيّة. وأُصحِّح له الهجاء وأُدخِل علامات الترقيم بدل علامات الشحطة التي يضعها من أجل فصل جُمل الفقرة الواحدة المتواصلة لكي تُصبح قِطعاً غير مُنتظمة من الفلسفة، والذكريات، والتنبّؤ، والحِكمة، والتحليل السياسيّ، والتعزية، والتهنئة. ثم تقوم أمي بضرب كل رسالة على الآلة الكاتبة على قرطاسيّة منتجع هنغاريان رويال -تحت كتابة تقول، «***حُسن ضيافة بلد عتيق وسط مشهد جبليّ جميل. تطبيق صارم لقوانين الحِمية. صاحبا المكان، آبيه وبيل كيبيش***»- ثم يُضيف جملة يؤكّد فيها على الحجز من أجل الصيف القادم ويطلب دفع عربون صغير.

قبل أنْ تقابل والدي خلال فترة إجازة قضتها بين تلك التلال بالذات -حينئذٍ كان في الحادية والعشرين من العمر ويمضي فصل الصيف في العمل كمُعدّ للوجبات السريعة، من دون دعوة- كانت تعمل خلال السنوات الثلاث الأولى بعد انتهائها من الدراسة الثانويّة كسكرتيرة قانونيّة. ويُقال إنها كانت امرأة شابة موسوسة، حيّة الضمير، وذات كفاءة مُذهلة، كرَّسَتْ حياتها لخدمة مُحامي وول ستريت الأرستقراطيين الذين عيَّنوها، وفي الحقيقة سوف تتحدث بكل احترام عن هيبتهم -الأخلاقيّة والجسديّة- حتى آخر حياتها. استمرَّ حبيبها السيد كلارك، حفيد مؤسِّس الشركة، في إرسال برقيّات التهنئة بأعياد الميلاد حتى بعد أنْ تقاعد وانتقل إلى أريزونا، وفي كل عام، كانت تمسك البرقيّة بيدها وتقول بنبرة حالمة لوالدي الأصلع وللصغير أنا، «آه،

لقد كان رجلاً وسيماً طويل القامة. وشديد المهابة. ما زلتُ أتذكَّر كيف وقف عند طاولة مكتبه عندما دخل غرفة المكتب لكي يُجري المقابلة التي ستقرِّر قبوله للوظيفة. لا أعتقد أنني سوف أنسى أبداً وِقفته تلك». ولكن تصادفَ أنْ رآها رجل ضخم الجثّة، ذو شعر قاسٍ، وصدرٍ واسع وبارز وقويّ، وساعدين منتفخَتين، وبلا مزايا طبقيّة، رآها تتكّئ على آلة البيانو وتغنّي «أمابولا» مع ثلّة من المُصطافين من المدينة، وسرعان ما قال لنفسه، «سوف أتزوج من هذه الفتاة». كانت عيناها وشعرها ذات سواد فاحم، واتّسمت ساقاها وصدرها بالاستدارة التامة «وناضجة» حتى أنّه اعتقد للوهلة الأولى أنّها ربما تكون إسبانيّة. وقد جعلها شغفها الشديد بالكمال الذي زاد من حب الشاب السيد كلارك لها تنجذب أكثر إلى المُقامِر الشاب الحيويّ الذي لا تتّصِف روحه الخانعة، المنقادة بأي قدر من صِفات سائق السيارة الخنوع.

لسوء الحظ، حالما تزوّجا، ومع انتهاء كل فصل صيف، كانت الصِفات التي جعلت منها كنز الرئيس المتقشِّف غير اليهوديّ تدفعها إلى شفا الانهيار العصبيّ - لأنّه حتى في فندقٍ صغير تُديره عائلة كعائلتنا تصدر دائماً شكوى تتطلَّب الحل، أو مُستخدَم يجب مُراقبته، وبياضات ينبغي معرفة عددها، وطعام ينبغي تذوّقه، وحسابات ينبغي تدوينها... ويستمر هذا الحال ويتكرَّر، ولسوء الحظ لم يكن من الممكن قط أنْ تتخلّى عن العمل وتتركه للشخص الذي من المُفترَض أنْ يقوم به، خاصة بعد أنْ اكتشفتْ أنّه لا يُحسِن أداءه. ولم ألمح *السينيوريتا* الصغيرة السعيدة والرزينة التي وقعَ في حبّها من النظرة الأولى إلّا في فصل الشتاء، بينما كنتُ ووالدي نؤدي دوريّ *الأب والابن* كلارك، وكانت هي جالسة في الوضعيّة المثاليّة للضاربة على الآلة الكاتبة السوداء الكبيرة تطبع بدقّة من دون ضجيج نسخاً من رسائله الجوابيّة الثرثارة.

أحياناً، بعد العشاء، كانت تدعوني، أنا تلميذ المدرسة الابتدائيّة، كي أتظاهر بأنني موظف إداري كبير وأُملي عليها رسالة لكي تستعرض أمامي سِحر براعتها في الاختزال. وتُخبرني «أنت تمتلك شركة للشحن خاصّة بك»، على الرغم من أنه كان بالكاد سُمِحَ لي بشراء أول مُطواة، «استمرّي». كانت باستمرار تُذكّرني بالفرق بين سكرتيرة مكتب عاديّة وما كانت عليه،

أي سكرتيرة *قانونيّة*. وأكَّدَ والدي بكل فخر أنّها السكرتيرة القانونيّة الأشدّ مثاليّة من اللواتي عملن في المؤسسة - كان السيد كلارك قد كتبَ له مقداراً مُعادلاً من رسائل التهنئة بمناسبة ارتباطهما. ثم في أحد فصول الشتاء، عندما بدا أنني أصبحتُ بالغاً، علَّمتني الضرب على الآلة الكاتبة. ولم يحدث، قبل ذلك أو بعده، أنْ علَّمني أحد أي شيء بمثل كل تلك البراءة والاقتناع.

لكنّه فصل الشتاء، الفصل السرّيّ. أما في الصيف، وهي مُحاطة بالناس من كل جانب، كانت عيناها السوداوان تتحرّكان بشكل هستيريّ، وتصدر عنها أصوات تشبه نباح كلب حراسة القطعان الذي يعتمد بقاؤه على قيادة قطيع سيده الجامح إلى السوق. كان خروج خروف صغير بضعة أقدام عن المسار يجعلها تندفع بأقصى سرعة إلى أسفل المنحدَر الوعر -وعندما تسمع ثغاءً من موقع آخر تنطلق في الاتّجاه المُعاكِس. ولا ينتهي الأمر إلّا بعد انتهاء العُطل الكبرى، وحتى حينئذٍ لا ينتهي. ذلك أنّه بعد مُغادرة آخر الضيوف يجب أنْ تبدأ عمليّة الجرد- يجب! في تلك الدقيقة! ما الذي كُسِرَ، أو تمزَّقَ - أو تلوّث بالبُقع، أو قُصِف، أو تهشَّمَ، أو التوى، أو شُرِخ، أو سُرِق، وماذا ينبغي أنْ يُرمَّم، أو يُستبدَل، أو يُعاد طلاؤه، أو يتمّ التخلّص منه نهائيّاً، «خسارة تامّة». بالنسبة إلى هذه المرأة الصغيرة البسيطة والمُرتَّبة التي لا تحبّ شيئاً في العالم قدر حبّها لرؤية نسخة كربون نظيفة، مثاليّة، تكمن عمليّة الانتقال من غرفة إلى أخرى لكي تُسجِّل في دفتر حِساباتها مدى العنف الذي تعرَّضَ له معقلنا الجبليّ على أيدي حشود قبائل الواندال الذين كان والدي يُصرّ -على الرغم من مُعارضتها القويّة- على أنهم مجرد كائنات بشريّة.

كما أنَّ فصول شتاء جبال كاتْسكيل العاصِفة أعادتْ كُلاً منا إلى نوع أكثر عذوبة، وعقلانيّة، وبراءة وإلى طبيعة أكثر عاطفيّة من شخصيّتنا، كذلك في غرفتي في سيراكوز عملت العزلة عملها عليّ وشعرتُ بالتدريج بمتعة الخِفّة والاستعراض تستأذن بالرحيل. ولكن على الرغم من كل قراءاتي، ووضع الخطوط للتشديد، وتدوين الملاحظات، لم أُصبح إيثاريّاً *بالكامل*. لقد أثار إعجابي قولٌ مأثور يُنسَب إلى شخص لا يقلّ شهرة في أنانيّته هو اللورد بايرون، قولٌ يتَّسِم بالحِكمة ويُقدِّم حلّاً بستّ كلماتٍ فقط لِما بدأ يبدو أنّه

ذو أبعاد أخلاقيّة لا يمكن تجاوزها. وبدأتُ، بقدرٍ من الجرأة الاستراتيجيّة، أستشهد به بصوتٍ مُرتفع أمام تلاميذي الذين قاوموني بإصرارهم على أنني مفرِط الذكاء بالنسبة إلى تلك الأشياء. فقلتُ لهم «كنتُ مُجتهداً في النهار، وفاسقاً في الليل». وسرعان ما وجدتُ أنَّ من الأفضل استبدال كلمة «فاسق» بـ «شهوانيّ» - فأنا لم أكن في قصر في البندقيّة، ولكن في شمال نيويورك، في حَرَم الجامعة، ولا قدرة لديّ على تحمّل تشويش أولئك الفتيات أكثر من تحمّلي بشكلٍ واضح لـ «مفرداتي اللغويّة» ولسمعتي المتنامية كـ «انعزاليّ». وعندما كنتُ أقرأ كتاباً لماكولي على مسمع طلاب اللغة الإنكليزيّة، وصلتُ إلى وصفه لستيل، مُعاون أديسون، فهتفتُ «وجدتُها!»، إذ إنَّ هنا تبريراً مهيباً آخر لدرجاتي المدرسيّة العالية وشهواتي الدنيئة «كنتُ خليعاً بين المُثقفين، ومُثقّفاً بين الخليعين». ممتاز! أضفتُ هذا إلى لوحة الأخبار، جنباً إلى جنب مع ذلك القول الصادر عن بايرون، وفوق أسماء الفتيات اللائي قرّرتُ أنْ *أغويهنّ* مباشرة، وهذه كلمة وصلني رنينها الأعمق، ليس من الأدب الإباحيّ ولا من المجلات المُثيرة الرخيصة، بل من قراءتي الشاقّة لكتاب كييركغارد «*إمّا / أو*»

لم يكن لديّ إلّا صديق واحد من الذكور أقابله بانتظام، كان طالباً متقدماً في فرع الفلسفة، عصبيّ المِزاج، أخرقَ، بسيطاً، اسمه لويس جيلينيك، وكان في الحقيقة مُعلِّمي في قراءة كييركغارد. كان لويس يستأجر، كما أفعل أنا، غرفة في منزل خاصّ في البلدة بدل أنْ يُقيم في منامة الكليّة مع فتيةٍ يعتبر، هو أيضاً، أنَّ طقوس رفقتهم، مُثيرة للاحتقار. كان يعمل لكي يُنفق على نفسه في أثناء دراسته في محل لبيع الشطائر (بدل أنْ يقبل نقوداً من آباء مدرسة سكارسديل الذين يحتقرهم) ويحمل معه رائحة تلك الشطائر أينما ذهب. وعندما يتصادف أنْ ألمسه، مُصادفة أو ببساطة بدافع من الحماس أو من مشاعر الصداقة، كان يقفز مُبتعداً كأنَّه يخشى أنْ تتلوَّث أسماله القذرة. ويُزمجر «أبعد يديك عنّي. أما زلتَ تسعى إلى منصب لعين، يا كيبيش؟». أأنا أفعل هذا؟ لم يخطر ذلك في بالي. أي منصِب؟

الغريب في الأمر هو أنّ أيّ شيء يقوله لويس لي، حتى استياءً أو تعنيفاً، كان يبدو ذا مغزى للنشاط الرصين الذي أُسمّيه «فهماً نفسياً». لأنه لم يكن

مهتماً، حسب ما أرى، بإرضاء أحد -سواء أكان العائلة، أم الكليّة، أم صاحبة المنزل، أم أصحاب الدكاكين، وحتماً لم يكن يهتمّ البتّة بأولئك «البرابرة البورجوازيين»، زملائنا الطلاب- كنتُ أتصوّره أعمق صِلة بـ «الواقع» مني. كنتُ أحد أولئك الفتية طِوال القامة، ذوي الشَعر المتموّج مع شق في ذقني، أبتكرُ أساليب للنجاح في المدرسة الثانويّة، والآن يبدو أنني لا أستطيع أنْ أتخلّص منها، مهما أحاول. خاصّة أنني أشعر وأنا إلى جوار لويس بأنني مُبتذَل بصورة تُثير الشفقة: أكون شديد الأناقة، والنظافة، ***والفِتنة***، عندما يتطلَّب الأمر ذلك، وعلى الرغم من كل إنكار صدر عني لذلك كلّه، فإنني لم أُصبح أقلّ اهتماماً بعد بالمظاهر وبالسُمعة. لِمَ لا أُصبح أشبه بجيلينيك بصورةٍ أو بأخرى. يفوحُ مني عبق البصل المقلي وأنظر باحتقار إلى العالم بأسره؟ انظر إلى حاوية القمامة في أي مسكن يُقيم! سوف ترى الكثير من القشور وألباب الثمار وقشور الفاكهة وأوراق اللفّ -الفوضى المثاليّة! فقط انظر إلى كتل المناديل الورقيّة إلى جوار سريره المُشوَّش، وسوف ترى المناديل الورقيّة عالقة بخفّ السير على السجادة المتهرِّئ. أمّا بعد انتهاء رعشتي الجنسيّة ببضع ثوانٍ، وحتى في عزلة غرفتي المُقفلة، أقوم بحركة آليّة برمي دليل إساءتي إلى نفسي الفاضح إلى حاوية القمامة، في حين أنَّ جيلينيك-جيلينيك غريب الأطوار، المُزدري، اللامنتمي والمُحصَّن- فيبدو أنّه لا يأبه البتّة بما يعرفه العالم عن إفراطه في القذف أو برأيه في ذلك.

لقد ذُهِلتُ، ولم أفهم، وبقيتُ طوال أسابيع طويلة بعد ذلك لا أُصدِّق أحد الطلّاب في برنامج الفلسفة في أحد الأيام عندما قال إنَّ صديقي «طبعاً» هو مثليّ «يتدرَّب على ذلك». صديقي ***أنا***؟ مستحيل. أنا أعرف «المُخنّثين» طبعاً. ففي كل صيف كنا نستقبل في الفندق بعض المشاهير منهم، بعض الباشوات اليهود يقضون الإجازة، في أول مرَّة لفت هيربي ب. انتباهي إليهم. كنتُ أراقبهم بذهول وهم يُنقَلون بعيداً عن أشعة الشمس إلى الظل، حتى وهم يتلذّذون بانتشاء في امتصاص مشروب الشوكولاتة الحلو من خلال شاروقتين وتقوم جوارٍ يحملن أسماء الجدَّة والماما والعمّة بتجفيف

جُبُنهم[1] ووجناتهم بالمناديل. ثم كان هناك بعضٌ من أصحاب الحظ العاثر في المدرسة، فتية وُلِدوا بأذرُع خاملة كأذرع الفتيات، لا يستطيعون أنْ يرموا كرة بشكلٍ صحيح مهما كنتَ صبوراً وأعطيتهم إرشادات طوال ساعات من التدريب الخاصّ. أمّا بالنسبة إلى مثليّ يتدرَّب؟ فلم يحدث ذلك قط، قط، طوال سنواتي التسع عشرة. ما عدا، طبعاً، تلك المرَّة، التي وقعت مباشرة بعد احتفالي بوصولي سن البلوغ، عندما استقللتُ حافلة وحدي لكي أحضر معرض جمع الطوابع في ألباني، وفي محطة آخر الخط للحافلة تقدَّم مني رجل في منتصف العُمر في المبولة يرتدي ملابس العمل وهمس لي من خلفي، «هيه، يا ولد، ألا ترغب في أنْ أحلبك؟»، أجبتُ «كلا، كلا، شكراً لك»، وخرجتُ بأسرع ما استطعتُ من مرحاض الرجال (آملاً في ألّا يكون تصرّفي ذاك مُهيناً)، وغادرت محطة آخر الخط، وتوجّهت إلى متجر عموميّ قريب، حيث يمكنني أنْ أنضم إلى حشد من المتبضّعين الأسوياء جنسيّاً. ولكن خلال تلك السنوات الفاصلة لم يتحدث إليّ أي مثليّ جنسياً آخر، على الأقلّ ليس ممَّن أعرفهم.

إلى أنْ جاء لويس.

أوه، يا إلهي، هل يُفسِّر هذا السبب في أنّه طلب منّي أنْ أُبعِد يديّ عنه عندما تلامسَ كُما قميصينا؟ هل لأنَّه يعتبر أنَّ لمسْ صبي له يحمل مضامين شديدة الخطورة؟ ولكنْ، إنْ كان الأمر كذلك، أليس جديراً بشخص صريح وغير تقليديّ على غرار جيلينيك أنْ يقول هذا؟ أم هل يُعقَل أنّه بينما سرّي المُشين مع لويس يعني ضمنيّاً أنّني في شخص طبيعيّ ومُحترَم، الصديق المُحافِظ على السرّ، فإنَّ سرَّه الذي عندي هو أنّه مثليّ؟ ولم أسأله قط، وكأنّما لكي أُبرهن على أنني طبيعيّ ومُحترم. وبدل ذلك، انتظرتُ بخوف مجيء اليوم الذي يقول فيه جيلينيك أو يفعل شيئاً يكشِف عن حقيقته. أم هل كانت حقيقة حالته موجودة معي طوال الوقت؟ طبعاً! وكتل المناديل الورقيّة المُبعثرة في أرجاء غرفته كالعديد من الأزهار الصغيرة... أليس المقصود منها إفشاء السرّ؟ *الغواية*؟... هل من المُستبعَد أنّه في ليلةٍ قريبةٍ قد يقوم هذا

1- الجُبُن: جمع جبين: الجبهة. - المترجم

المخلوق الذكيّ، ذو أنف الصقر، الذي يزدري، في المبدأ، استخدام مُزيل رائحة الإبطين وقد بدأ شَعره يتساقط، بالقفز بطريقته الخرقاء من خلف طاولة المكتب التي يُلقي منها مُحاضرته عن دوستويفسكي، مُحاولاً أنْ يُعانقني؟ هل سيقول لي إنّه يُحبّني ويُقحِم لسانه داخل فمي؟ وبمَ سأجيبه، هل سأُجيبه بما تقوله الفتيات البريئات، المُغريات لي؟ «كلا، كلا، لا تفعل أرجوك! أوه، لويس، أنتَ أذكي من أنْ تفعل هذا! لِمَ لا نكتفي بالتحدث عن الكتب؟»

ولكنْ بالتحديد لأنَّ الفكرة تُخيفني كثيراً -لأنني أخشى أنْ أكون «الشخص الريفيّ» والـ «الجلف» كما يُفرِحه أنْ يصِفني عندما نختلف في الرأي بخصوص المعنى العميق الكامن وراء تحف فنيّة معيَّنة- استمررتُ في زيارته في غرفته الكريهة الرائحة والجلوس أمامه على الجهة المقابلة من الأرضيّة المفروشة بالفضلات والتحدّث بصوتٍ مُرتفع على مدى ساعات عن أشدّ الأفكار إثارة للجنون وللغيظ، والابتهال لله لكي لا يقوم بأيّة محاولة لغوايتي جنسيّاً.

قبل أنْ يتمكّن لويس من فعل ذلك، طُرِدَ من الجامعة، أولاً لأنه فشل في حضور أيّة مُحاضرة خلال فصل دراسي كامل، ومن ثم لأنّه لم يتفضّل بالردّ على الرسائل الموجَّهة من مُرشِده طالباً فيها منه المجيء إليه من أجل مناقشة المشكلة. فعلّق لويس بسُخط، وسخرية، واشمئزاز، «*أيّة مشكلة؟*» وقام برأسه بحركات سريعة ومدّ عنقه كأنَّ «المشكلة» في اعتقاده، قد تكون مُعلَّقة في موقعٍ ما فوقنا في الهواء. وعلى الرغم منْ أنَّ الجميع كانوا متّفقين على أنَّ عقل لويس ذو طبيعة خارقة، فإنَّ طلبَه رُفِضَ للتسجيل في الفصل الدراسي الثاني من عامه الدراسي الأول. واختفى بين ليلةٍ وضُحاها من سيراكوز (ولا داعي إلى القول إنّه فعل ذلك بلا وداع) وفي الحال تقريباً سُحِبَ إلى الخدمة العسكريّة. علِمتُ ذلك عندما جاءني أحد عملاء الـ F.B.I ذو تحديق ثابت لكي يستجوبني بعد أنْ ترك لويس التدريب الأساسيّ وذهب (كما تخيّلت) لكي يختبئ تهرّباً من الانضمام إلى الحرب الكوريّة في مكانٍ ما من حيّ قذر مع كتب كييركغارد بالإضافة إلى مناديله الورقيّة.

سألني العميل ماكورماك، وقد احمرَّ وجهه «ماذا عن سجّله كمثليّ جنسياً، يا ديف؟»، فأجبتُ «لا عِلم لي به»، فقال ماكورماك «لكنهم قالوا

لي إنَّكَ كنتَ صديقه المُقرَّب»، «مَنْ هم؟ لا أعلم عمَّن تتحدَّث»، «أعني فتية الجامعة»، «هذه إشاعة مُغرِضة ضده -إنها أبعد ما تكون عن الحقيقة»، «تعني أنكَ لم تكن صديقه المُقرَّب؟»، قلت، وقد ارتفعت الحرارة من جديد إلى جبيني، «كلا، يا سيدي، أعني «سجلّه كمثليّ جنسيّاً». لقد قالوا عنه هذه الأشياء لأنَّ التعامُل معه صعب. كان شخصاً استثنائيّاً، خاصّة في هذا المكان»، «لكنَّ صِلتكَ به كانت جيّدة، أليس كذلك؟»، «نعم، وما المانع؟»، «لا أحد قال إنَّ هناك مانعاً. اسمع، لقد أخبروني بأنكَ أشبه بكازانوفا»، «أوه، حقّاً؟»، «نعم. وأنكَ تلاحق الفتيات. أهذا صحيح؟»، «أعتقد ذلك»، وأشحتُ ببصري بعيداً عن تحديقه، ومن المعنى الضمنيّ الذي استشففته من ملاحظته أنَّ الفتيات لسن إلّا واجهة. ثم قال العميل بصورة مُبهمة، «لكنَّ الوضعَ مع لويس لم يكن كذلك»، «ماذا تعني؟»، «ديف، أخبرني شيئاً. كن صريحاً معي. أين هو في اعتقادك؟»، «لا عِلم لي»، «لكنَّكَ سوف تُعلِمني به، إذا عرفت، أنا واثق»، «نعم، يا سيدي»، «عظيم. إليكَ بطاقتي، تحسّباً إذا ما تصادفَ واكتشفتَ مكانه»، «نعم، يا سيدي؛ شكراً لك، يا سيدي». وبعد أنْ غادرَ شعرتُ بالذُعر من الطريقة التي تصرّفتُ بها: رعبي من السجن، ومن أسلوب اللورد فونتلْروي الذي لجأتُ إليه، ومن غرائزي كمتعاون مع العدو- وإحساسي بالخزي من كل شيء تقريباً.

فيما يتعلَّق بالفتيات اللائي ألاحقهنّ.

في المعتاد كنتُ أنتقيهنّ (أو على الأقلّ *أتبيّنهنّ*) في قاعة القراءة من المكتبة، وهو مكان يُشبه ممراً في مسرح منوّعات في مقدرته إثارة شهوتي والتركيز عليها. ومهما كان ما هو مكبوت جزئيّاً داخل تلك الفتيات الأميركيّات الأنيقات، ذوات المنشأ الكريم من الطبقة المتوسّطة سرعان ما يخرج إلى العلن (أو غالباً ما يتمّ تخيّله في الحال) وسط هذا الجو العامّ من اللياقة الأكاديميّة. كنتُ أراقبُ وأنا متسمّر في مكاني الفتاة التي تعبث بأطراف شَعرها وهي تدرس ظاهرياً كتابها في مادة التاريخ - بينما أدرس أنا ظاهريّاً في كتابي الخاصّ. وقبل ذلك بيوم، كانت فتاة أخرى، تغوصُ داخل كرسي غرفة الدرس باستغراق، وتؤرجح ساقها من تحت طاولة المكتبة وهي تقلِّب صفحات مجلّة «*لوك*»، ولا يعرف توقي الشديد حدوداً. وثمة

فتاة أخرى تميل إلى الأمام فوق دفترها، أراقب بأنينٍ مكبوت ثدييها تحت بلوزتها المحشورَين برفق بين ذراعيها المعقودتين، كأنني مُخوزق. ليتني كنتُ تينك الذراعين! نعم، لست في حاجة إلى أي شيء تقريباً يدفعني إلى السعي وراء فتاة غريبة تماماً، أعني لا شيء إلّا معرفة أنّه بينما تنسخ ملاحظات من الموسوعة بيدها اليُمنى، لا تستطيع أنْ تمنع سبّابة يدها اليُسرى من اقتفاء دوائر على شفتيها. وأرفضُ -بدافعٍ من عجزٍ رفعتُه إلى مستوى المبدأ- أنْ أُقاومَ كل ما أكتشِف أنّه لا يُقاوَم، مهما وجد كل شخص آخر مصدر الغواية تافهاً وسخيفاً، أو صبيانيّاً ومنحرفاً. وطبعاً قادني هذا إلى السعي وراء فتيات كان يمكن أنْ أجدهنَّ في ظروف أخرى مُبتذلات أو سخيفات أو مُملّات، لكنّني أسعى وراء فتيات أنا مُقتنع بأنَّ تبلّد الحسّ ليس صِفتهن الوحيدة، وذلك لأنَّ شهوتي هي ***شهوة***، ولا ينبغي التقليل من شأنها أو احتقارها.

كنَّ يُناشدنني «أرجوك، لِمَ لا تتكلَّم وتكون لطيفاً؟ يمكنكَ أنْ تكون شديد اللطف إذا شئت». «نعم، هذا ما يُقال عني»، «ولكنْ ألا ترى أنَّ هذا فقط جسدي. ولا أريد أنْ أرتبط بكَ على هذا المستوى»، «إنّ الحظ ليس حليفك. لا يمكن فعل أيّ شيء بهذا الشأن. إنَّ جسدكِ رائع»، «أوه، لا تُكرِّر هذا القول»، «إذن مؤخّرتك رائعة»، «أرجوك لا تكن فظّاً. لا ينبغي أنْ تتكلَّم هكذا في غرفة الدرس. أحبّ أنْ أصغي إليك، ولكن ليس عندما تُهينني هكذا»، «أهينكِ؟ إنّه مديح بأعلى مستوى. إنَّ مؤخّرتك رائعة. إنها مثاليّة. يجب أنْ تفرحي بها»، «إنها فقط ما أجلس عليه، يا ديفيد»، «هي كذلك فعلاً. اسألي أيّة فتاة لا تملك واحدة مثلها إنْ كانت ترغب في مُقايضتك بها. سوف يُعيدكِ ذلك إلى صوابك»، «أرجوكَ لا تضحك مني وتجعلني سُخرية. ***أرجوك***»، «أنا لا أضحك منكِ. إنني أعاملك بجديّة صارمة كما عاملك أي شخص آخر في حياتك. إنَّ مؤخّرتكِ تحفة فنيّة»

لا عَجَبَ أنني في عام التخرّج من الجامعة كنتُ قد اكتسبتُ سُمعة «فظيعة» بين جماعات الفتيات اللواتي حاولتُ أنْ أغوي أخواتهن بصراحتي العِدائيّة. وفيما يتعلّق بالسُمعة، قد تعتقد أنني اختزلتُ مئات الطالبات إلى مرتبة العهر، في حين أنّي خلال أربع سنوات من الزمن نجحتُ في إنجاز ولوجٍ كامل في المناسبات كلّها ما عدا اثنتين، وما يُشبه الولوج في مُناسبتين

أُخريين. وفي الغالب، حيث يجب أنْ تتحقّق النشوة الجسديّة، كان يحدث بدل ذلك حوار منطقيّ (ولا منطقيّ): إنْ كان لابد، فأنا أَتّفقُ معك على أنني لم أحاول قط أنْ أُضلِّل أيّة فتاة بشأن شهوتي أو بشأن كونها مرغوبة، وعلى أنني، بعيداً عن كوني «استغلاليّاً» مجرّد واحد من القِلّة القليلة من الصادقين. وفي إحدى نوبات الصدق المحسوبة المُفاجئة -واتّضحَ أنها لم تكن محسوبة- أخبرتُ إحدى الفتيات كيف أنَّ مرأى ثدييها المضغوطَين بين ذراعيها دفعني إلى أنْ أتمنّى لو أكون تينك الذراعين. وأتساءل، هل هذا يختلف، أعني الإلحاح في الفتنة، عما قاله روميو، وهو يقفُ تحت شرفة جولييت، ويهمس «انظر! كيف تسند وجنتها بيدها:/ أوه! ليتني أكون قفّازاً في يدها / ليتني ألمس تلك الوجنة». من الجليّ أنّه أمر مُختلِف. وخلال عامي الأخير في الجامعة كان جرس الهاتف أحياناً يبقى صامتاً في الطرف المقابل بعد أنْ أُعلِن عن اسم المُتّصِل، والفتيات الظريفات القليلات اللواتي كنَّ لا يزلنَ يرغبن في خوض المغامرة والخروج وحدهن معي، أخبرنني (أقصد الفتيات الظريفات أنفسهنّ) بأنهنَّ كنَّ كمَنْ يُقدِم على الانتحار.

واستمررتُ أيضاً في استجلاب الاحتقار الفكه من أصدقائي أصحاب المبادئ في جمعيّة الدراما. واعتبر المتهكمون بينهم أنني تخلّيتُ عن الأوامر القُدسيّة بتبنّي فريق التهليل؛ ورأوا أنَّ هذه مسافة شاسعة تفصل عن اللجوء إلى الضغط الجنسي الذي عند ستريندبرغ وأونيل.

في الحقيقة، في حياتي هناك فقط قائدة واحدة لفريق المُهلّلين سبَّبَتْ لي آلام الإحباط الأقصى الصِرف وجعلتْ أحلامي الخليعة تبدو سخيفة، امرأة اسمها مارسيلا والش «الحريريّة»، من بيترسبرغ، نيويورك. بدأ الشوق المُقدَّر لي عندما حضرتُ ذات أمسية مباراة في كرة السلّة لكي أشاهدها وهي تؤدي عملها، بعد أنْ كنتُ قد قابلتُها بعد ظهيرة ذلك اليوم في طابور مقهى الجامعة وألقيتُ نظرةً عن قُرب على تلك الوسادة المنتفخة، على تلك السكاكر الشهيّة التي لا تُقاوَم، على شفتها السفلى. كان ينبعث تهليل أينما وضعتْ كلٌ من فتيات الفريق إحدى قبضتيها على وركها ورفعت الأخرى بحركة إيقاعيّة في الجو، وطوال الوقت تتقوَّس أكثر فأكثر بعيداً عن الخصر. وبالنسبة إلى الفتيات السبع الأخريات بتنانيرهن القصيرة، البيضاء ذات

الثنيات والسترات البيضاء الضخمة، كانت سلسلة الحركات تبدو مجرد عرضٍ رياضيّ حيويّ، تُنفَّذ بطاقة قُصوى تقترب من المرح الصاخب. وفي بطن مارسيلا والش التي تجيش ببطء كان هناك الإيحاء المكبوت (ولا مفرَّ منه بالنسبة إليّ) لعرض، لدعوة، لشبق شديد وغير واعٍ ويستجدي بكل وضوح الإشباع. نعم، هي وحدها بدتْ (لي، لي) أنّها تشعر بأنَّ الحماس المُروَّض والمكبوح لهذا المرح التافه ليس أكثر من قِناع رقيق من أجل جعل الإنشاد الفجّ ينطلق بينما القضيب ينتقل إلى نشوة تُثير نشوة حوضها. أوه، يا إلهي، كيف يمكن لاشتهائي ذلك الحوض يندفع بقوة نحو أفواه الجماهير الصاخبة، كيف يمكن لاشتهاء قبضات الأيدي الصغيرة الصلبة تلك التي كانت تُحدّثني عن متعة كل كفاح، كيف يمكن لاشتهاء تينك الساقين الُغلاميّتين الطويلتين والقويتين اللتين ترتعشان قليلاً في أثناء تشكُّل القوس وشَعرها الحريريّ (الذي استُمِدّ منه اسم التحبُّب الخاص بها) يندفع نحو الخلف على أرضيّةِ صالة الألعاب الرياضيّة - كيف يمكن لاشتهاء أدقّ نبضات كيانها أنْ يكون «بلا معنى» أو «تافهاً»، «تحتي *أو* تحتها»، في حين أنَّ دعم فريق سيراكوز لكي يفوز ببطولة الرابطة الوطنيّة لرياضييّ الجامعة في كرة السلّة، له معنى؟

هذا هو مسار التفكير الذي اتّخذته مع الحريريّة نفسها، الذي أملتُ في الوقت المناسب (أوه، الوقت! ساعات المناقشة التي كان يمكن أنْ تُقضى في أنْ يُهلِّل كلٌ منا للآخر مُشجّعاً لبلوغ رعشات جنسيّة هائلة!) في أنْ يُمهّد السبيل لتلك المُتع الجنسيّة الحادّة التي لم أكنْ قد عرفتها بعد. وبدل ذلك، كان عليّ أنْ أؤجِّل اللجوء إلى المنطق، والفطنة، والنزاهة، نعم، والثقافة الأدبيّة أيضاً، وأنْ أؤجِّل كل مُحاولة عقلانيّة لإقناع -وأخيراً تأجيل كل إحساس بالكرامة أيضاً- وختاماً كان عليَّ أنْ أبدو مُثيراً للشفقة وجباناً كشخص ضالّ وسط مجاعة قبل أنْ تسمح لي الحريريّة، التي ربما لم تكن قد رأتْ من قبل أحداً بائساً هكذا، بأنْ أُمطِرَ خصرها العاري بالقُبَل. وبما أنّها كانت أشدّ الفتيات عذوبة وحُسن نيّة، وليست قاسية أو باردة بالقدر الكافي بحيث تختزل حتى روميو ذا النوايا القذرة، وعميد جامعة أشبه بذي اللحية

الزرقاء، ودون جيوفاني الشاب ويوهانس المغويّ[1]، إلى مستوى التذلُّل الخنوع، كان يمكنني أنْ أُقبِّل بطنها التي تكلَّمتُ عنها «بهوسٍ» شديد، ولكن لا أكثر من ذلك. وهمستْ، من حيث جعلتُها تميل إلى الخلف فوق المغسلة في غرفة الغسيل التي يغمرها الظلام في غرفة المنامة في الطابق التحتيّ، «لا أعلى ولا أخفض. ديفيد، أقول، ليس أخفض. كيف يمكنكَ حتى أنْ ترغب في أنْ *تفعل* شيئاً كهذا؟»

وهكذا، بين الأشواق وأغراض الشهوة التي لا تُحصى، أقحمَ عالمي مناقشاته وعوائقَه. إنَّ والدي لا يفهمني، وإدارة الـF.B.I لا تفهمني، والحريريّة والش لا تفهمني، ولا مجموعة الفتيات ولا البوهيميون يفهمونني، وهذا الذي يدّعون أنّه مثليّ جنسيّاً، وهو أمرٌ مُستبعَد (وتلاحقه الشرطة) كان صديقي المُقرَّب. كلا، لا أحد يفهمني، ولا حتى أنا أفهم نفسي.

وصلتُ إلى لندن وبدأتُ قضاء منحتي الدراسيّة في الأدب في عامي الأول بعد ستة أيام من السفر على متن سفينة، ثم على متن قطار من ثاوسامبتون، ومن ثم قطع مسافة طويلة على متن قطارٍ نفقيّ إلى منطقة تُسمّى توتينغ بيك. هنا، في شارعٍ لا نهاية له من المنازل المبنيّة على الطراز التيودوريّ، وليس في بلومسبيري، كما كنتُ قد طلبتُ، كان مكتب جامعة كينغ للتجهيزات قد أعدَّ مسكناً لي في منزل خاص. وبعد أنْ قادني قائد الجيش المتقاعد إلى غرفتي الصغيرة والكئيبة في العليّة وزوجته صاحبا هذا المنزل الأنيق، الخالي من الهواء –والذي، كما علِمتُ، سوف أتناول وجبات طعامي معهما– نظرتُ إلى السرير ذي الأعمدة الحديديّة الذي كنتُ سأقضي الليالي الثلاثمائة التالية أو نحوها عليه، وفي الحال غادرتني شجاعتي التي رافقتني في أثناء عبور المحيط الأطلسي، والسرور النقي الذي لازمني وأنا أهرب من كل الطقوس الصارمة للحياة الجامعيّة، ومن القلق المُرهِق للأم والأب اللذين كما أعتقد لم يعودا يُطعمانني. أما تويتغ

1- يوهانس المغوي: شخصيّة وهميّة ابتكرها الفيلسوف سورين كيير كغارد لكي يُناقش من خلالها أفكاره حول الذات الفرديّة والذات الموضوعيّة. – المترجم

بيك؟ وهذه الغرفة الضيّقة؟ ووجباتي التي تصلني عبر شارب القائد الرفيع؟ لماذا ندرس أساطير الملك آرثر وملاحم أيسلندا؟ لماذا ننال كل هذا العقاب من أجل أنْ نُصبح أكثر ذكاءً!

إنَّ بؤسي قاس وهائل. وفي محفظة نقودي رقم هاتف أستاذي في مادة الكتابة القديمة في جامعة كينغ الذي أمدَّني به صديقه، أحد بروفسوراتي في سيراكوز. ولكن كيف أستطيع أنْ أتّصل هاتفيّاً بهذا المُثقّف البارز وأخبره في غضون ساعة من وصولي أنني أريد أنْ أتخلّى عن منحتي الدراسيّة وأغادر إلى وطني؟، «لقد اختاروا المُتقدِّم الخطأ -إنني لستُ جادّاً بما يكفي لأتحمّل كل هذه المُعاناة!». وبمُساعدة زوجة القائد الضخمة الكريمة- التي اقتنعتْ بقولي الكاذب إنني أرمني، وكانت طوال الوقت تهمسُ لي بشيءٍ عن سجّاد جديد للصالون - عثرتُ على جهاز هاتف في الرواق وأجريتُ اتّصالي. أنا على شفا البكاء (إنني حقّاً على شفا إجراء اتّصال يسدِّد أجرته مُتلقّي المكالمة في كاتسكيل)، ولكنْ مع خوفي وبؤسي، اتَّضحَ أنني شديد الخوف وأعجز عن الاعتراف بأنني خائف وبائس، لأنّه عندما أجاب البروفسور على مكالمتي، أغلقت الخط.

بعد مرور أربع ساعات أو خمس -بعد هبوط الليل على غرب أوروبا، وبعد هضم وجبتي الإنكليزيّة الأولى بصورة ما التي تألّفتْ من المعكرونة المُعلَّبة مع خبز مُحمَّص- ذهبتُ إلى موقع في إحدى ساحات لندن العامة علِمتُ بوجوده في أثناء عبوري المُحيط، اسمه سوق شيبرد، زوّدني بتجربة غيَّرت موقفي من كوني صاحب منحة دراسيّة تغييراً متطرفاً. نعم، حتى قبل أنْ أحضر محاضراتي الأولى حول الملحمة والقصة الرومانسيّة، بدأتُ أفهم أنّ انتقال فتى مغمور إلى مكان مجهول قد لا يكون خطأً. وعلى الرغم من خوفي من أنْ أموت كما مات موباسّان[1]، حالما نظرتُ بخوف إلى الزقاق ذي السمعة السيئة، عثرتُ على عاهرة - أول عاهرة أقابلها في حياتي، وزيادة على ذلك، كانت أولى ثلاث فتيات أقمتُ معهن علاقات جنسيّة حتى ذلك الحين وُلِدنَ خارج أراضي الولايات المتّحدة (خارج ولاية نيويورك، على

1- توفي موباسان متأثّراً بمرض جنسيّ ومات مجنوناً. - المترجم

وجه الدقّة) وقبل مولدي بعام. وفي الحقيقة، حالما امتطتني، وأصبحت الجاذبيّة الأرضيّة المُرافقة لهذا في مصلحتها، أدركتُ، مع نوعٍ من الإثارة الغريبة المُثيرة للاشمئزاز أنَّ تلك المرأة التي احتكَّ ثدياها برأسي كمرجلين -انتقيتهما من بين مُنافساتها على أساس ذينك الثديين الضخمين والمؤخّرة التي لم تكن أقلّ ضخامة- أنّها ربما وُلِدَتْ قبل اندلاع الحرب العالميّة الأولى. تصوَّر أنني، قبل صدور رواية «*يوليسيس*»، وقبل... ولكنْ حتى وأنا أحاول أنْ أُحدِّد موقعها من القرن، اكتشفتُ بسرعةٍ أكبر مما خطَّطتُ له -وكأنَّ أحدنا، في الواقع، كان يندفع كقطار- أنها كانت تستحثّني لبلوغ اللحظة الختاميّة الكبرى بالاستعانة بالمُساعدة غير المطلوبة ليدٍ واثقة، سريعة وغير عاطفيّة.

اكتشفتُ حيّ سوهو وحدي في الليلة التالية. واكتشفتُ أيضاً في «*موسوعة كولومبيا*» التي جررتها معي عبر البحر، إلى جانب كتاب بو Baugh «*تاريخ الأدب في إنكلترا*» وثلاثة مُجلّدات بأغلفة ورقيّة لكتاب تريفيليان[1]، أنَّ المراحل الختاميّة من *مَرَضِه هو* التناسليّ كان قد تسبَّبَ في موت موباسّان في عمر الثالثة والأربعين. ومع ذلك، لا أعرفُ أي مكان آخر أودّ أنْ أذهب إليه، بعد تناول وجبة العشاء مع القائد وزوجته، غير غرفة مع عاهرة مُستعدّة أنْ تنفِّذ كل ما أرغبه منها - كلا، ليس بعد أنْ حلِمتُ بأنّني أُسدِّد تكاليف هذا الامتياز منذ أنْ كنتُ في الثانية عشرة وكان مصروفي يبلغ دولاراً في الأسبوع أدَّخره لكي أشتري ما أريد. وطبعاً لو أني انتقيتُ عاهرة أقلّ عهراً في مظهرها لانعدمتْ بصورة مُفرِحة فُرَص موتي متأثّراً بمرض تناسليّ أكثر من الموت بفعل التقدّم في السن. ولكن ما معنى الحصول على عاهرة لا تبدو ولا تتكلَّم ولا تتصرَّف كعاهرة؟ فأنا في الأصل لم أكن أبحث عن صديقة، ليس حينئذٍ. وعندما أصبح مُستعداً للحصول عليها فلن أذهب إلى سوهو للبحث عنها، بل سوف أذهب لكي أتناول وجبة غداء من سمك الرنكة في مطعم بالقرب من مخازن هارود يُدعى «**شمس منتصف الليل**».

1- كتاب تريفيليان، جورج ماكولي تريفيليان (1876-1962): مؤرّخ إنكليزي، صاحب كتاب «*التاريخ الاجتماعي لإنكلترا*».

خلال تلك السنوات، في أوج تألُّق أسطورة الفتاة السويديّة وحرّيتها الجنسيّة في أوج، وعلى الرغم من نزعة الشك الطبيعيّة التي أثارتها في نفسي القصص التي كان نهمي إلى قراءتها لا يشبع والنبوءات التي كنتُ أسمعها في أرجاء الجامعة، تهرَّبتُ بسرور من دراساتي لأساطير الشمال القديمة لكي أكتشف بنفسي مقدار الحقيقة التي يمكن أنْ تنطوي عليها كل تلك التأمّلات الصبيانيّة المُدغدِغة. إذن فلأنطلق إلى مطعم «**شمس منتصف الليل**»، حيث يُقال إنَّ النادلات هناك أشبه بإلهات اسكندنافيات صغيرات مهووسات بالجنس يقدّمنَ لك أطباقهن المحليّة الخاصّة وهنَّ يرتدين أزياءهنَّ الشعبيّة الغنيّة بالألوان، وينتعلن القباقيب الخشبيّة المدهونة التي تكشف مزايا سيقانهن إلى أقصى حد، وصدورهن التي تغطي جزأها الأماميّ المخرماتُ المتقاطعة وتُبرِز الانتفاخ المُغري لأثدائهنّ.

هنا قابلتُ إليزابيث إلفرْسكوغْ – وقابلتني إليزابيث المسكينة. كانت إليزابيث قد أخذتْ مدَّة عام إجازة من جامعة لندن لكي تعمل على تحسين معرفتها باللغة الإنكليزيّة، وكانت تُقيم مع سويديّة أخرى، هي ابنة أحد أصدقاء عائلتها كانت قد تركت جامعة أبسالا قبل ذلك بعامَين لكي تعمل *بدورها* على تحسين لغتها الإنكليزيّة، ولم تكن قد قرَّرت بعد أنْ تعود إليها. وكانت بيرغيتا قد دخلتْ إنكلترا كطالبة ومن المُفترَض أنها تأخذ دورات في جامعة لندن، وتعمل في غرين بارك في جمع قيمة استئجار كرسي مركب، وتخوض، بعيداً عن عيون عائلة إليزابيث، المغامرات التي تُتاح لها. وكانت الشقّة التحتيّة التي تقاسمتها إليزابيث مع بيرغيتا تقع في منزلٍ يؤجِّر غرفه وقائم على الطرف المُقابل من شارع إيرلز كورت رود الذي يقطنه في الغالب طلّاب أشدّ سُمرة بكثير من الفتيات. واعترفَتْ إليزابيث لي بأنها ليست مولعة بالمكان – كان الهنود، الذين لا تحمل ضدّهم أيّة تحاملات عنصريّة، يُزعجونها بطبخ أطباق الطعام المُتبّلة بالبهار الهندي في غرفهم طوال ساعات الليل، وأحياناً كان الأفريقيون، الذين لا تكنّ لهم أيضاً أيّة تحاملات عنصرية، يمدّون أيديهم ويلمسون شعرها لدى مرورهم في الرواق، وعلى الرغم من تفهّمها سبب ذلك، وإدراكها أنهم لا يقصدون أنْ يُسببوا لها أي أذى، فإنَّها كانت ترتعش قليلاً كلما حدث ذلك.

ومع ذلك، قرَّرتْ إليزابيث، بأسلوبها المتملّق والسمِح، أنْ تقبل الإهانات الصغيرة التي كانت تحدث في الرواق -والقذارة العامة في الحيّ- بوصفها جزءاً من مغامرة العيش في الخارج حتى شهر حزيران، عندما ستعود لكي تقضي فصل الصيف مع عائلتها في منزلهم الخاص بقضاء الإجازات في أرخبيل ستوكهولم.

وصفتُ لإليزابيث وسائل راحتي المتقشّفة واستمتعتْ كثيراً عندما قمتُ بمُحاكات ساخرة للقائد ولزوجته وهما يُخبرانني بأنهما لا يسمحانِ بالسكن المُشترَك في منزلهما، ولا حتى بينهما هما. وعندما قلَّدتُ أسلوبها المُنغَّم في نطق اللغة الإنكليزيّة، ضحكتْ أكثر بكثير.

خلال الأسابيع القليلة الأولى، كانت بيرغيتا، الضئيلة، ذات الشعر الداكن، والأسنان البارزة بصورة فاتنة (في رأيي)، تتظاهر بأنها نائمة عندما أصل مع إليزابيث إلى شقّتهما في الطابق التحتيّ ونتظاهر بأنّنا لا نمارس الجنس. ولا أعتقد أنَّ الإثارة التي شعرتُ بها عندما توقفنا نحن الثلاثة فجأة عن التظاهُر كانت أكبر مما شعرنا به ونحن الثلاثة نحبس أنفاسنا ونتظاهر بأنَّ لا شيء خارجاً عن المألوف يحدث. وشعرت بتيه مُسكِر جرّاء التغيير الذي طرأ على حياتي منذ أنْ فكّرتُ في تناول طعام الغداء في مطعم «**شمس منتصف الليل**» -بل في الحقيقة، منذ أنْ كبتُّ مخاوفي وأنا ألج سوق شيبرد سعياً وراء أشد العاهرات عهراً- وشعرتُ بهستيريا أنانيّة بسبب هذا الأمر بعيد الاحتمال الذي يحدث لي، ليس مع فتاة سويديّة واحدة فقط بل مع اثنتين سويديّتين (أو، إذا شئت، *أوروبّيتين*)، إلى درجة أنني لم ألحظ إليزابيث وهي تتحطَّم ببطء تحت وطأة الجهد الذي تبذله لتكون آثمة متواطئة بالكامل في علاقتنا المتعدّدة القارات، مُشكّلة نصف ما يمكنني أنْ أصِفه بأنّه حريمي.

ربما لم ألاحظ لأنها كانت في حالة من الهيستريا خاصّة بها -هيستريا الغرق، تتخبّط لكي تبقى عائمة- ونتيجة لذلك غالباً ما بدا أنّها **تستمتع** أيّما استمتاع، أي أنني اعتبرت الإثارة إثارة استمتاع، وشعرتُ بذلك عندما خرجنا نحن الثلاثة في يوم أحد لنتنزّه ونتناول وجبة الغداء ونلعب كرة المضرب في هامستيد هيث. أنا علّمتُ الفتاتين «قواعد الركض» -لا يمكن لأي شيء أنْ

يُبهِج إليزابيث أكثر من أنْ تجد نفسها وسط تبادل انتقاد صاخب ومُضحك بين بيرغيتا وبيني- وهما علّمتاني لعبة ضرب الكرة بالمضرب، والقليل عن الطائر صائد الذباب ولعبة العصا والكرة، التي كانتا تلعبانها في المدرسة في ستوكهولم. وعندما أمطرت الدنيا لعبنا الورق معاً، الجن أو كاناستا[1]. أخبرتاني أنَّ الملك العجوز غوستاف الخامس كان لاعباً شغوفاً بلعبة الورق جَن-روميّ gin-rummy، على غرار والدة بيرغيتا ووالدها وأخيها وأختها. وبعد مرور نصف ساعة من مراقبة بضعة أدوار من اللعب بين بيرغيتا وبيني انتقت إليزابيث لعبة جن _ روميّ، التي كان جليّاً أنَّ حلقتها من أصدقاء صالة الألعاب الرياضيّة كنَّ يقضين فترات راحة بعد الظهيرة على مدى أيام طويلة في لعب الكاناستا. لقد أسرتْها ضرباتي السريعة في أثناء اللعب، وفي الحال أخذتْ تستعين هي نفسها بها -كما كنتُ قد فعلتُ وأنا في الثامنة أو نحوها، عندما تعلَّمتُ تلك العادة عند قَدَميّ كلوتزر ملك مياه الصودا (الذي قالتْ أمي عنه إنّه كان أثقل ضيف في تاريخ مُنتجع هنغاريان رويال- وعندما يُخفض السيد كلوتزر مؤخّرته ليجلس على الكرسي الذي قدّمناه له، يُتاح لها الوقت لكي تغطّي عينيها -ولا أحد يُجاريه في كثرة الكلام وكان يُعاني الأمرّين على طاولة لعب الورق). وقالت إليزابيث، وهي ترتِّب بحزن الأوراق التي وزّعتها بيرغيتا عليها وتُعيد ترتيبها، «لدي أوراق أشبه بالقدَم»، وعندما كشفَت الأوراق المتجانسة بانتصار، أسعدها إلى أقصى مدى- وأسعدني *أنا* إلى أقصى مدى -أنْ أسمعها تسأل خصمها، «ما اسم اللعبة، رياضة؟»، أوه، وعندما أطلقَتْ على الورقة المجهولة في لعبة الكاناستا لقب «يوكر»- كاد ذلك يقتلني. كيف يمكن لها بحق الله أنْ تتحطَّم؟ *أنا* لم أتحطَّم! وماذا عن مناقشاتنا الجادَّة والمُثيرة للجنون حول الحرب العالميّة الثانية، التي حاولتُ فيها أنْ أشرح -وليس دائماً بصوتٍ منخفض أيضاً- لتينك المُحايدتين الواثقتين من نفسيهما ما كان يجري في أوروبا عندما كنا نكبر في السن؟ أليست إليزابيث هي الأكثر حماساً (وذات تفكير ساذج ببراءة) من بيرغيتا، التي أصرَّتْ، حتى عندما هدَّدتُها عمليّاً ***بصفعها*** وإعادتها إلى وعيها، على أنَّ الحربَ كانت «خطأً ارتكبه الجميع»؟ فكيف

1- من ألعاب الورق.

كان يمكنني إذن أنْ أتبيّن أنها سوف تنهار بل وسوف تفكّر من الصباح وحتى الليل في وسيلة لقتل نفسها؟

بعد «الحادث» -بهذه الكلمة وصفنا في البرقيّة التي أرسلناها لأبويها الذراعَ المكسورة وارتجاج المخ المعتدل اللذين أُصيبَتْ إليزابيث بهما جرّاء سيرها من أمام سيارة شاحنة بعد أنْ انتقلتُ من توتينغ بيك إلى شقّة الفتاتين التحتيّة بستة عشر يوماً- استمررتُ في تعليق سترتي الجوخ داخل خزانة ملابسها وفي النوم، أو في مُحاولة النوم، على سريرها. وفي الواقع كنتُ أعتقد أنني أستمر في إقامتي هناك لأنّني وأنا في حالة الصدمة كنتُ ببساطة *عاجزاً* عن الانتقال من ذلك المكان. وعلى امتداد الليالي، وفي حضور بيرغيتا، كتبتُ رسائل إلى ستوكهولم شرحتُ فيها موقفي لإليزابيث؛ أو بالأحرى، كنتُ أجلس أمام الآلة الكاتبة لكي أباشر في إعداد الأطروحة التي يجب أنْ أُسلِّمها قريباً للدرس الخصوصيّ الذي كنتُ أتلقّاه في مادة الملحمة الأيسلنديّة وتدور حول انحدار الشِعر الإسكندنافي القديم بسبب الإفراط في استخدام الإدراك الحسّي وانتهى بي الأمر إلى إخبار إليزابيث بأنني لم أدرك أنها كانت تحاول فقط أنْ تُرضيني، ولكنها اعتقدتْ بكل براءة -«وبصورة لا تُغتَفَر»- أنّها تعمل، كما كنا نفعل بيرغيتا وأنا، على إرضاء نفسها أولاً وقبل كل شيء. أعدتُ مراراً وتكراراً قراءة رسالتها الأولى، التي كتبتها في غرفة نومها في اليوم الذي عادت إلى المنزل، وفتحتُها بعد أنْ دعكتها لكي أُعيد قراءة تلك الجُمَل البسيطة التي كانت تترك في كل مرّة تأثير ساكو وفانزيتّي[1] - كم كنت غبيّاً، وقاسي القلب، وأعمى! باشرتْ بالقول «*Alskade David!*" (ديفيد الحبيب!)، ومن ثم استأنفت الشرح، بلغتها الإنكليزية، بالقول إنها وقعتْ في حبي، وليس في حب غيتان، وأنها ضاجعتنا نحن الاثنين فقط لأنني أردتُ ذلك ولأنها كانت مُستعدة لتنفيذ كل ما أريد منها... ثم أضافتْ بخط يد دقيق أنها تخشى أنّها تفعل ذلك من جديد إذا قُدِّرَ لها أنْ تعود إلى لندن-

---

1- ساكو وفانزيتي: مُهاجران إيطاليان لُفِّقَت ضدهما قضية سرقة وقتل في الولايات المتحدة في قضيّة شهيرة، على الرغم من تفنيد الأدلة للتهمتين نفّذ فيهما حكم الإعدام في عام 1927. - المترجم

«أنا لستُ فتاة قوية على غرار غيتان. إنني مجرد فتاة بسيطة، ولا حيلة لي في هذا. كأنني في جحيم. لقد عشقتُ شخصاً وما فعلتُ لا صِلة له بالحب. وكأنني لم أعُدْ من البشر. إنني شديدة الغباء ولغتي الإنكليزيّة غريبة الشكل في الكتابة، ويؤسفني أنْ أقول هذا. لكنني أعلم أنّه لا ينبغي أنْ أفعل ما فعلناه نحن الثلاثة حتى آخر حياتي. وهكذا تلقّت الفتاة السخيفة درساً»

دِنْ بيتان

وتحت هذا كتبتْ بيتان تسامحاً متأخِّراً: «*Tusen pussar ach kramar*» - مع ألف قُبلة وعِناق.

في رسائلي اعتذرتُ مراراً وتكراراً لأنني كنتُ أجهل طبيعة مشاعرها الحقيقيّة نحوي -وأجهل عمق مشاعري ***نحوها!*** وسمّيتُ ذلك أمراً لا يُغتَفَر أيضاً، و«مُحزِناً» و«غريباً» وعندما أوصلني التأمّل في جهلي إلى شفا البكاء، سمّيته «مُرعِباً»- وكنتُ جادّاً في ذلك. وهذا بدوره قادني إلى مُحاولة منح كلينا بعض الأمل بإخبارها أنني عثرتُ على غرفة خاصة بي (نويت أنْ أستقصي عن إحدى تلك الغرف في غضون بضعة أيام) في مُجمَّع سكني تابع للجامعة، وأنّ عليها من الآن فصاعداً أنْ توجِّه رسائلها إلى ذلك العنوان -هذا إنْ رغبتْ أصلاً في أنْ تراسلني من جديد- وليس إلى العنوان القديم، بوساطة بيرغيتا... وفي أثناء تدبيج عبارات الاعتذار الرصينة والتماس الغفران، غمرتني أشدّ المشاعر تضارباً وجموحاً - إحساسٌ بالتفاهة، وبالاشمئزاز، وبالخزي والندم العميقين، وأيضاً في الوقت نفسه إحساس قوي بالقدر نفسه بأنني لستُ مُذنباً بأي شيء، وبأنَّ اللوم يقع على طبخ أولئك الهنود للأرز المُتبّل عند الساعة الثانية صباحاً، بقدر ما ألام على اعتراض إليزابيث البريئة، الضعيفة، طريق تلك الشاحنة. وماذا ***بشأن*** بيرغيتا، التي كان من المُفتَرَض أنْ تحمي إليزابيث، والتي تكتفي الآن بالاستلقاء على السرير في الطرف المقابل مني في الغرفة، ودراسة علم نحو اللغة الإنكليزيّة، لا تؤثِّر فيها -أو هكذا تتظاهر- دراما اشمئزازي من نفسي؟ كأنّها ***هي***، بيرغيتا، بريئة تماماً! بما أنَّ ذراع إليزابيث، وليس عنقها، هي التي تسبّبت الشاحنة

في كسرها. وكأنَّ ضمير إليزابيث وحده رقيب على سلوك إليزابيث معنا... وليس ضمير بيرغيتا.... وليس ضميري أنا. ولكن من المؤكَّد، ***المؤكَّد***، هو أنَّ ذنب بيرغيتا لا يقلّ عن ذنبي في إساءة استغلال طبيعة إليزابيث السمحة. أم إنَّ الأمر ليس كذلك؟ ألنْ تلجأ إليزابيث غريزيّاً إلى بيرغيتا وليس إليّ بحثاً عن الحب عندما تحتاج إليه بشدّة؟ وعندما نتمدَّد، مُستنزفَين، على السجادة البالية -لأننا في الغالب كنا نستخدم الأرضيّة، وليس السرير، كمذبح قرباننا- عندما نتمدَّد هناك، بأطرافٍ خاملة ووسط القليل من ملابسنا الداخليّة، ثملَين، بعد ارتواء شهوتنا، ومُشتّتين، كانت بيرغيتا دائماً هي التي تحضن رأس إليزابيث وتُداعب برفق وجهها وتهمس لها بكلمات مُهدهِدة كما تفعل أرقّ الأمهات. وكأنَّ ذراعيّ، ويديّ، وكلماتي عند تلك النقطة لا لزوم لها لأي شخص. كانت طريقة عمل ذراعيّ، ويديّ، وكلماتي، تعني كل شيء - إلى أنْ أتيت إلى هنا، ومن ثم أصبحت الفتاتان تدعم إحداهما الأخرى كرفيقتين في اللعب في منزل فوق شجرة، أو داخل خيمة لا يتوفّر فيها حيِّز لشخص ثالث.

تركتُ رسالتي قبل أنْ أُكمِل كتابتها، وخرجتُ لأجوب الشارع وقطعتُ نصف المسافة إلى لندن (في اتّجاه حي سوهو في العموم) لكي أتمالك نفسي. وحاولتُ، في خلال تلك المساكن المؤقّتة الجديرة براسكولنيكوف (راسكولنيكوف[1] على نمط شخصيّة بودنْهيد ويلسون[2]، باعتراف الجميع)، أنْ «أرتّب أفكاري». أي، أودّ، إن استطعت، أنْ أتمكّن من التعامُل مع تبدُّل الأحداث كما تفعل بيرغيتا. وبما أنّه بدا أنني لا أستطيع أنْ أتوصّل بصورة عفويّة إلى ذلك النوع من التوازن -أو إلى تنسيق ذلك النوع من القوة، إنْ كان قوة- فلِمَ لا أحاول أنْ ألجأ إلى ***التفكير*** في وضع نفسي في مكانها؟ نعم، إلى استخدام عقليّة شخص نال منحة دراسيّة - سوف تنفع هذه الطريقة في التعامُل مع ما يحدث هنا! فكِّر في الأمر، اللعنة! إنّه ليس *صعباً*. إنكَ

1- راسكولنيكوف: بطل رواية «**الجريمة والعقاب**» لدوستويفسكي، ويمثل الشخص الذي يبحث عن هويته وسط زحف المدنيّة التي تلغي الذات الفرديّة.

2- بودنْهيد ويلسون: بطل رواية تحمل الاسم نفسه للكاتب مارك توين، ويمثل الشخص الذي يبحث عن هويته وسط مجتمع عنصريّ. - المترجم

لا تتعامل مع هاتين الفتاتين كقديس! مستحيل! ولا تفكِّر في الأمور التي تفعلونها كلكم لكي تُرضوا العجائز في الوطن! فإمّا أنْ تعود وتمارس لعب الأطفال مع والش الحريريّة، أو تبقى حيث أنت وتفعل ما تريد! إنَّ بيرغيتا بشر أيضاً، كما تعلم! والقوي وصاحب الفكر الصافي بشر أيضاً (إنْ كان قويّاً وصافي الذهن حقاً)، والنحيب ليس لائقاً بعد سن الرابعة! ولا سلوك الفتى العابث! لقد كانت إليزابيث على صواب تامّ: إنَّ غيتان هي غيتان، وبيتان هي بيتان، والآن حان الوقت لكي تكون أنت ذاتك.

حسن، إذاً «فكَّرتُ في الأمور» بهذا الأسلوب، فسرعان ما سأتوصّل إلى تذكُّر تلك الليلة عندما أخذتُ أنا وبيرغيتا ننهال بالأسئلة على إليزابيث -ولا نكفّ عن مُطاردتها- بشأن ما كنا نستجوب أحدنا الآخر: ما الذي رغبتْ فيه سرّاً أكثر من أي شيء آخر، وما هو الشيء الذي لم تجرؤ على البوح به إلّا لنفسها ولم تتحلَّ بالشجاعة الكافية مرّة في حياتها لتنفيذه أو لتتقبّل حدوثه لها؟ «ما الذي لم تجرئي على الاعتراف به لأي شخص، يا إليزابيث، ولا حتى لنفسك؟». تشبّثَتْ إليزابيث بأصابعها العشر بالغطاء الذي جررناه عن السرير إلى الأرض لكي يُغطينا كلنا، وطفقَتْ تبكي بهدوء، واعترفتْ بلغتها الإنكليزيّة المُنغَّمة، الساحرة، بأنها رغبتْ في أنْ تُنكَح من الخلف وهي تميل فوق الكرسي.

لم يُرضني جوابها. وبعد أنْ مارستُ المزيد من الضغط عليها، وبعد أنْ سألتها «وماذا غير ذلك -ماذا غير ذلك؟ إنَّ هذا لا شيء!»- حينئذٍ فقط انهارتْ و«اعترفَتْ» بأنَّها رغبتْ في أنْ أقوم أنا بذلك وهي بتلك الوضعيّة بعد شدّ وِثاق يديها وقدميها. وربما فعلتْ ذلك أو لم تفعله...

في أثناء اجتيازي البيكاديللي، ألّفتُ فِقرة أخرى من التأمُّل الأخلاقيّ لكي أُضيفها إلى آخر الرسائل بنيّة تثقيف ضحيَّتي البريئة - وتثقيف نفسي. وفي الحقيقة، كنتُ أحاول بما توفّر لديّ من حِكمة -وما توفّر لديّ من مصادر النثر والنماذج الأدبيّة- أنْ أفهم إنْ كنتُ حقاً ما سمّاه المسيحيّون خبيثاً وما أُسمّيه أنا لا إنسانيّاً. «وحتى إنْ كنتِ رغبتِ فعلاً في ما أخبرتنا أنكِ رغبتِ فيه، أي قانون يقول إنَّ أيّة رغبة سرّيّة يطلب المرء إشباعها يجب أنْ تُشبَع في الحال؟...». كنا نستخدم حزام بنطلوني وشريط حقيبة ظهر بيرغيتا لكي نشدّ

بهما وِثاق إليزابيث إلى كرسيّ مستقيم الظهر. ومن جديد انهمرت الدموع على وجهها، مما دفعَ بيرغيتا إلى لمس وجنتها والطلب منها، «بيتان، هلّا كفكفتِ دموعك؟»، لكنَّ خصلات شعر إليزابيث الطويلة المنهمرة، ذلك الطول الجدير بطفلة لشعرٍ كهرمانيّ اللون، انتشر على امتداد ظهرها العاري، وهزَّتْ رأسها بتحدٍّ عنيف. وتساءلتُ، تحدّي مَنْ. أو ماذا؟ في الحقيقة، لم أكنْ قد بدأتُ بمعرفة أيّ شيء عنها! وهمسَتْ إليزابيث، «كلا». كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي نطقَتْ بها من البداية وحتى النهاية. سألتها «تقصدين أنكِ لنْ تكفّي عن البكاء، أم أنّكِ لا تريدين أنْ تستمري في الكلام؟ أتفهمين ما أقول يا إليزابيث-؟ اسأليها بالسويديّة، اسأليها-»، ولكن كل ما أجابتْ به هو «كلا»؛ «كلا» و«كلا» و«كلا» من جديد. وهكذا تابعتُ بعد أنْ اعتقدتُ بصورة ما أنّ هناك ما قادني إلى ذلك. إليزابيث بكتْ، وبيرغيتا راقبتْ. وفجأة شعرتُ ببهجة كبيرة من هذا المشهد كلّه -من اللهاث، من ذلك الصوت الذي يصدر عنا ويُشبه لهاث الكلب، ومما ***نفعله*** نحن الثلاثة -بحيث زال كل أثر لتردُّد، وعلِمتُ أنَّ في وسعي أنْ أفعل ***أيّ شيء***، وأنني أردتُ ذلك، وأنني سوف ***أفعله***! لِمَ ليس أربع فتيات، لِمَ ليس خمساً- «.... مَنْ غير الخبيث يعتقد أنّه مهما كان الشوق الذي يطلب المرء إشباعه فيجب إشباعه فوراً؟ ومع ذلك، فهي أعزّ، وأعذب، وأحبّ فتاة، بدت أنّها تمثّل القانون الذي قرّرنا نحن الثلاثة -***ووافقنا***- على العيش في ظلِّه!» وحينئذٍ كنتُ قد وصلتُ إلى أول شارع غريك، وهناك توقفتُ أخيراً عن التفكير فيما سأكتبه بعد ذلك لإليزابيث حول موضوع ورطتي العويصة، وأفكِّر أيضاً في هذه البيرغيتا العويصة -ألا تشعر بالندم أبداً؟ أو بالخزي؟ أو بالولاء؟ أو بالقيود؟- بيرغيتا التي كان ينبغي الآن أنْ تكون قد قرأت الرسالة التي لم أُكمل كتابتها على الآلة الكاتبة (التي ستجعلها تتفاجأ بمدى **عمقي** كزير نساء)

في غرفةٍ صغيرة تقع فوق مِصبغة صينيّة، جرَّبتُ حظي مع عاهرة مقابل ثلاثين شلناً، كانت عاملة في ملبنة سوقيّة مبتذلة اسمها تيري العاهرة التي رأتْ أنني «ابن حرام مُثير» وكان لخلاعتها الوقحة، ذات يوم، تأثير مُذهل على انفلاق بذرتي. والآن تلاشتْ أساليب تيري البارعة. قدَّمتْ لي تشكيلتها الهائلة من الصور القذرة لكي أستعرضها، وأخذتْ تصِفُ، بمقدرة تخيّليّة لا

تقل عن مقدرة السيدة براوننغ[1]، أساليب ممارسة الحب معي؛ بل كانت، في الحقيقة، تُغدق بالمديح عرض قضيبي وطوله وعمق اختراقه في آخر مرَّة رأته ينتصب، لكنَّ الجهد الحثيث الذي دام خمس عشرة دقيقة وبذلته مع الكتلة الخاملة لم يثُمر عن أيّة نتيجة تُذكَر. وبعد أنْ استمددتُ عزاءً كبيراً من عبارة تيري الرقيقة –«أنا آسفة، يا صاح، يبدو أنكَ خامل هذه الليلة»– قفلتُ عائداً عبر مدينة لندن إلى شقتنا التحتيّة، منتهياً في تلك الأثناء من تحقيقي في ذلك اليوم حول الشر الذي قد أكون أو لا أكون قد ارتكبته.

تبيَّنَ أنّه كان من الأفضل أنْ أُطبِّق كل هذا التركيز على الاستخدام المُفرِط للجسد في القسم الثاني من القرن العشرين في أيسلندا. وكان يمكن أنْ أُضفي معنى على هذا، في الوقت المناسِب. وبدل ذلك، بدا أنني لم أُحقِّق أي اقتراب من الحقيقة، أو حتى من الشعور بالحقيقة، من خلال الرسائل المُسهبة التي كنتُ أرسلها بانتظام إلى ستوكهولم، في حين أنَّ المقالة العلميّة التي كنتُ قد انتهيتُ أخيراً من قراءتها أمام مجموعتي في تلقّي الدروس الخصوصيّة دفعَتِ المُدرِّس إلى دعوتي للحضور إلى غرفة مكتبه بعد الانتهاء من تلقّي الدرس، ودعاني إلى الجلوس على الكرسي، وسألني بنبرة تكاد لا تظهر من التهكُّم، «أخبرني، يا سيد كيبيش، هل أنتَ متيقّن من جدّيتك في موقفك من الشِعر الأيسلنديّ؟»

الأستاذ يوبِّخني! كان شيئاً لا يمكن تصوّره، يُشبه الأيام الستة عشر التي أمضيتها مع فتاتين في غرفة واحدة! يُشبه محاولة إليزابيث إلفرْسكوغ الانتحار! وذُهِلتُ تماماً وشعرتُ بالمهانة جرّاء ذلك العقاب (خاصّة أنّه جاء إثر الاتّهامات التي كنتُ أوجّهها إلى نفسي بشأن مقدرتي بوصفي مُحامي عائلة إليزابيث) حتى إنني لم أستطع أنْ أستجمع الشجاعة لأعود إلى الدرس الخصوصيّ من جديد؛ وعلى غرار لويس جيلينيك لم أردّ على الرسائل التي يطلب الأستاذ مني فيها أنْ أحضر من أجل مناقشة مسألة اختفائي. أيمكن أنْ يحدث هذا؟ إنني أوشك أنْ أرسب في دورة الدروس. ***ما الذي سيحدث بعد ذلك، بحقّ الله؟***

1- الإشارة هنا إلى الشاعرة إليزابيث باريت، زوجة الشاعر روبرت براوننغ. – المترجم

هذا.

ذات ليلة أخبرتني بيرغيتا أنّه بينما كنتُ مُستلقياً حزيناً على سرير إليزابيث أقوم بدور «الكاهن الآثم» كانت هي تقوم بعمل «منحرف قليلاً». في الحقيقة يعود الأمر إلى بعض الوقت، عندما وصلتْ إلى لندن قبل عامين وذهبتْ إلى أحد الأطباء بشأن مشكلة في الهضم. وأخبرها الطبيب بأنّه لكي يقوم بالتشخيص يجب أنْ يُجري فحصاً لسائل المهبل. وطلب منها أنْ تتعرّى وتتمدَّد على طاولة الفحص، ومن ثم يقوم إمّا باستخدام يده أو أداة -وقد ذُهِلَتْ بما أنّها لم تكن متأكّدة مما يحدث- وبدأ يُدلِّك ما بين فخذيها. وسألته «أرجوك، ما هذا الذي تفعله؟». وحسب أقوال بيرغيتا، كان شجاعاً وأجابها «اسمعي، أتعتقدين أنني أحبّ أنْ أفعل هذا؟ إنني أعاني آلاماً في الظهر، يا عزيزتي، وهذه الوضعيّة تؤذيني. ولكن يجب أنْ أحصل على عيِّنة وهذه هي الطريقة الوحيدة للحصول عليها». «وهل تركتِهِ يحصل عليها؟»، «لم أعلم ماذا أفعل. كيف أطلبُ منه أنْ يتوقّف؟ كنتُ قد وصلتُ تواً إلى هنا قبل ثلاثة أيّام. خفتُ قليلاً، في الواقع، ولم أكنْ متيقّنة من أني أفهم لغته الإنكليزيّة. وهو كان يُشبه الأطباء. طويل القامة ووسيماً ودمثاً، ويرتدي ملابس أنيقة جداً. قلتُ في نفسي ربما هذا هو أسلوبهم في العمل هنا. وظلّ يُكرِّر القول «هل تشعرين بتقلّص هنا، يا عزيزتي؟». في أول الأمر لم أفهم ما يعني -ثم ارتديتُ ملابسي وغادرت. كان هناك أشخاص يجلسون في غرفة الانتظار، وهناك ممرّضة... كان قد أرسل الفاتورة بقيمة جنيهين». سألتُها «أحقّاً؟ ودفعتهما؟». «كلا». سألتها، بنبرة تتراوح بين عدم التصديق والإثارة، «ثم؟». قالت بيرغيتا، وقد أضحتْ لغتها الإنكليزيّة أكثر دقّة من المعتاد، «في الشهر الفائت لجأتُ إليه من جديد. وأصبحتُ أفكّر في الأمر طوال الوقت. هذا ما أُفكِّر فيه بينما أنتَ تكتب كل تلك الرسائل إلى بيتان». تساءلتُ إنْ كان هذا صحيحاً- هل أي شيء من هذا صحيح؟، قلت «ثم ماذا؟»، «الآن أتردَّد على عيادته مرَّة في الأسبوع. خلال ساعة تناول وجبة الغداء»، «ويستمنيك؟ وتسمحين له باستمنائك؟»، «نعم»، «أهذا صحيح، يا غيتان؟»، «إنني أُغمضُ عينيّ وهو يستمنيني بإصبعه»، «ثم - ماذا بعد؟»، «ثم أرتدي ملابسي وأعود إلى المتنزّه». رغبتُ بشدّة في سماع المزيد

-سماع أشياء أكثر فظاعة من تلك- ولكن لم يتبقَّ شيء. هو يستمنيها، وهي تسمح له بفعل ذلك. أيُعقل هذا؟ أمثل هذه الأمور تحدث؟، «ما اسمه؟ أين تقع عيادته؟»، ودُهِشتُ عندما أخبرتني بيرغيتا عن موقعها بلا تردُّد.

بعد ذلك ببضع ساعات، بعد أنْ عجزتُ عن فهم أيّة فِقرة من كتاب «*التراث الآرثريّ وكريتيين دو تروي*[1]» (وهو مصدر قيِّم، كما قيل لي، يفيد الأطروحة التي كنتُ حينئذٍ أعدّها في دورةٍ أخرى من الدروس الخصوصيّة)، خرجتُ مُسرِعاً إلى كشك هاتف عند ناصية شارعنا وبحثتُ في الدليل عن اسم الطبيب -وعثرتُ عليه، وفي عنوان شارع برومبتون رود! سوف أتّصل به في صباح الغد الباكر- سوف أقول (حتى بلكنتي السويديّة)، «دكتور لاي، يُستحسَن أنْ تأخذ حَذَرَك، يُستحسن أنْ تبعد يديك عن الفتيات الصغيرات الأجنبيات وإلّا أوقعتَ نفسك في الكثير من المشاكل». ولكن يبدو أنني لم أكنْ أرغب حقاً في إصلاح الطبيب الفاسق بقدر رغبتي في معرفة (قدر استطاعتي) إنْ كانت قصّة بيرغيتا صحيحة. وهذا لا يعني أنني كنتُ متيقّناً حتى من رغبتي في أنْ تكون صحيحة أم لا. أليس من الأفضل ألّا تكون صحيحة؟

عندما رجعتُ إلى الشقّة جرّدتها من ملابسها، واستسلمتْ لي. كم استسلمتْ بهدوء -كانت هي واستسلامها متلازمين! لهثنا كلانا وكنا مُستنزفين. ارتديتُ ملابسي وبقيتْ هي عارية. ووصفتُها بالعاهرة الحقيرة. وتوسّلتْ إليّ كي أشدّ شَعرها. لم أعرف مدى القوة التي أرادتْ أنْ أشدّه بها- لم يحدث من قبل أنْ طلبتْ إحداهن مني ذلك. يا إلهي، كم تماديتُ منذ أنْ قبّلتُ السُرَّة الحريريّة في غرفة غسيل مهجع النوم في فصل الربيع القريب! هتفَتْ - «أريد أنْ أشعر بوجودك هنا. انكحني أيضاً!»، «هكذا؟»، «نعم!»، «هكذا، يا عاهرتي؟ يا بيرغيتا يا عاهرتي الحقيرة القذرة!»، «آه، نعم! آه، نعم!»

كنتُ قبل ذلِك بساعة أخشى ألّا أستعيد فحولتي أبداً، وأنَّ عِقابي، إنْ

1- كريتيين دو تروي: شاعر فرنسي من القرن الثاني عشر، ألّفَ خمسة من قصص أسطورة آرثر الرومانسيّة. - المترجم

صحّ التعبير، قد يدوم *إلى الأبد*. ها أنا قد أمضيتُ ليلةً غلب عليها شغفٌ لم أكن قد سمحتُ لنفسي قبل ذلك بالتعرُّف على طاقاته الخشنة، أو ربما لم أكنْ قد عرفتُ فتاة في نفس عمري تقريباً تتّصِف بقوة تتجاوز الغضب. كنتُ منهمكاً في شقّ طريقي نحو اللذَّة بالمُداهنة والتملُّق والاستجداء إلى درجة أنني لم أعلم أنني في الواقع قادر على ضرب مثل ذلك *الحصار* حول فتاة أخرى، أو أنني تمنّيتُ بدوري أنْ أتعرَّض للحِصار والاغتصاب. وضعتُ رأسها بين ساقيّ، وأقحمتُ قضيبي في فمها كأنّه في وقتٍ واحد خطّ الحياة الذي سيمنع اختناقها والأداة التي ستُشنَق بها. ثم، كأنني سرجها، ثبّتتْ نفسها على وجهي وأخذت تمتطي وتمتطي وتمتطي. هتفتْ بيرغيتا «قُل لي أشياء. أحبّ أنْ أسمع كلاماً! قُل لي أشياء كثيرة!». وفي الصباح لم يكن هناك قط أي إحساس بالندم على أي شيء قيل أو نُفِّذَ. قلت «يبدو أننا متشابهَان». ضحكتْ وقالتْ «أعلمُ هذا منذ وقت طويل»، «لهذا السبب مكثتُ، في الحقيقة»، أجابتْ «نعم، أعلمُ هذا»

ومع ذلك استمررتُ في الكتابة لإليزابيث (ولكن ليس في حضور بيرغيتا). وبوساطة مقرّ سكن الجامعة -قبِلَ أحد الأصدقاء الأميركيين أنْ يتلقّى بريدي داخل صندوق بريده هناك، ومن ثم كان يُسلِّمه لي- أرسلتْ إليزابيث صورة فوتوغرافيّة تُظهِرُ ذراعها بعد أنْ أزالتْ عنها قالب الجصّ. وعلى خلفيّة الصورة كتبتْ. «صورتي». فكتبتُ لها على الفور أشكرها على صورتها بعد أنْ شفيتْ واستعادتْ عافيتها. وأخبرتها بأنني أُحرز تقدّماً في كتاب النحو السويديّ، وأنني اشتري صحيفة *Svenska Dagbladet* من شارع تشيرينغ كروس في كل أسبوع وأحاول على الأقلّ أنْ أقرأ المقالات الافتتاحيّة بمُساعدة قاموس الجيب الإنكليزي -السويديّ الذي كانت قد أعطتني إياه. وعلى الرغم من أنّني كنتُ أحاول أنْ أُترجم صحيفة بيرغيتا- في الوقت الذي كان في السابق مُخصّصاً للاجتهاد في العمل على النصوص الأدبيّة الأيسلنديّة القديمة -في أثناء كتابة رسائلي إلى إليزابيث كنتُ أعتقد أنني أفعل ذلك من أجلها، من أجل مستقبلنا، لكي أتمكّن من الزواج منها والاستقرار في بلدها، وأقوم في نهاية المطاف بتدريس الأدب الأميركيّ هناك. نعم، اعتقدتُ أنّه لا يزال في استطاعتي أنْ أحبّ تلك الفتاة

التي تطوِّق عنقها بقلادة تضم صورة والدها... في الحقيقة، كان ينبغي أنْ أكون قد تزوجتها. إنَّ وجهها *وحده* يستحق الحب! وأقول لنفسي، انظر إليه- انظر، أيها المغفّل! إلى الأسنان التي لا يمكن أنْ تكون أنصع بياضاً، وإلى منعطف وجنتها اليانع، وإلى عينيها الزرقاوين الواسعتين، وإلى الشَعر الأحمر الكهرمانيّ الذي حكيتُ لك عنه ذات مرَّة -في الليلة التي تلقّيتُ القاموس الصغير الذي كُتِبَ عليه «مني إليك»- وأفضل وصفٍ له باللغة الإنكليزيّة هو أنّه «غدائر» وهي كلمة شاعريّة مأخوذة من القصص الخياليّة. وقالتْ لي إنَّ كلمة «عادي» باللغة الإنكليزيّة (بعد أنْ بحثتْ عنها في القاموس) هي أفضل وصف لأنفها. قالت «إنّه أنف جدير بفتاة ريفيّة، ويُشبه شيئاً تزرعه في الحديقة لكي يُخرِج أزهار التوليب». «الكلمة ليست دقيقة»، «كيف تقولها؟»، «بصلة التوليب»، «نعم. عندما سأبلغ سن الأربعين سوف يُصبح شكلي فظيعاً بسبب بصلة التوليب تلك»، «لكنَّ الأنف مجرد أنف بين ملايين لا تُحصى، وعلى وجه إليزابيث هو مؤثِّر بسبب افتقاره التامّ إلى الكبرياء أو الادّعاء. آه، ما أعذبه من وجه، مُترع بالسعادة الطفولية! ويا لخفّة ضحكها! وبراءة قلبها! هذه هي الفتاة التي صرعتني بقولها «إنَّ يدي أشبه بالقَدَم!». آه، يا له من قول مؤثِّر إلى أقصى مدى، يدلّ على براءةِ قائلته! كم فاجأتني تلك النظرة الساذجة التلقائيّة!

ولكنْ، على الرغم من أنَّ صورة بيرغيتا أزعجتني، فإنني استمررتُ على مدى عام كامل في العيش مع الفتاة الضئيلة والنحيلة، الأقلّ براءة بكثير والهشّة -الفتاة التي واجهت العالم بوجهٍ ضيق ماكر، وأنف مُدبَّب برقّة وشفة عُليا بارزة قليلاً، وفم على أُهبة الاستعداد، عند الحاجة، للردّ على تهمة أو إطلاق تحدٍ- كصديقٍ زائر يتّصِفُ بتهوُّر جنسيّ.

طبعاً، بينما غريتا تتمشّى في أرجاء متنزّه غرين الذي يؤجّر كراسي شاطئ للمارَّة، كانت تتلقّى دعوات كل يوم تقريباً من رجال يقومون بزيارةٍ للندن كسيّاح، أو من رجال خرجوا يتمشون خلال ساعة تناول وجبة الغداء، أو من رجال في طريق عودتهم إلى منازلهم في آخر النهار إلى زوجاتهم وأطفالهم. وبسبب فُرَص المتعة والإثارة التي توفّرها تلك اللقاءات قرَّرتْ ألّا تعود إلى أبسالا بعد انتهاء إجازتها التي دامت عاماً وكانت قد تخلّتْ

عن دوراتها الدراسيّة في لندن أيضاً. قالت بيرغيتا «أعتقد أنّني حصلتُ على ثقافة إنكليزيّة أفضل بهذه الطريقة»

بعد ظهيرة أحد أيام شهر آذار حين ظهرت الشمس فجأة، بلا سابق إنذار، في سماء لندن الكالحة، استقللتُ قطار النفق متوجّهاً إلى المتنزَّه، وجلستُ تحت شجرة، وراقبتها، على مسافة مائة ياردة، وهي منهمكة في حديث مع سيد محترم يبلغ من العمر ثلاثة أضعاف عمرها يتّكئ على أحد كراسي الشاطئ. ولم ينته الحديث إلّا بعد مرور ساعة، ونهضَ السيد، وانحنى باتجاهها انحناءة احترام رسميّة، ثم غادر. أهو أحد معارفها؟ من أرض الوطن؟ أهو الدكتور لاي من برامبتون رود؟ كنتُ في كل يوم أذهبُ إلى المتنزّه، من دون عِلمها، على مدى أسبوع، وأختبئ تحت ظلال الأشجار، وأتجسّسُ عليها وهي تعمل. في أول الأمر كنتُ أتفاجأ بشعوري بالإثارة كلما رأيتُ بيرغيتا واقفة فوق كرسي شاطئ يجلس عليه رجل. وطبعاً، كانا فقط يتبادلان الحديث. هذا كل ما كنتُ أرى. ولم يحدث قط أنْ رأيتُ أيّاً من أولئك الرجال يلمس بيرغيتا أو رأيتُ بيرغيتا تلمس رجلاً. وأكاد أكون متيقناً من أنّها لم تُحدِّد مواعيد أو تغادر مع أحد الرجال بعد انتهاء العمل. ولكن ما أثارني هو أنها يمكن أنْ تفعل ذلك، أو أنها تستطيع أنْ تفعل... وأنّني إذا عرضتُ عليها مثل ذلك العرض، فقد تقبله. وعلى مائدة العشاء في إحدى الأمسيات قالت «يا له من نهار. إنَّ قطع البحريّة البرتغاليّة كلها موجودة هنا. أووووه!! يا لهم من رجال!». ولكن لو أنني تكلّمت...

بعد ذلك ببضعة أسابيع فقط فاجأتني ذات أمسية بقولها «أتعلم مَن الذي جاءني هذا اليوم؟ إنّه السيد إلفرْسكوغ». «مَنْ؟»، «والد بيتان»، وقلتُ في نفسي: «لقد عثروا على رسائلي! أوه، لماذا دوّنتُ تفاصيل شدّ وِثاق يديها إلى الكرسي! إنهم يُلاحقونني أنا، أفراد *العائلتين*!»، «جاء لكي يُقابلكِ هنا؟»، قالت بيرغيتا «إنّه يعلم أين أعمل، لذلك ذهبَ إلى هناك». هل تكذب بيرغيتا عليّ، هل تقوم بعمل «منحرف قليلاً» من جديد؟ ولكن كيف يمكنها أنْ تعرف أنني كنتُ طوال الوقت مرعوباً من انهيار إليزابيث والانقلاب ضدّنا، ومن ملاحقة والدها لي، مع تحرٍ من سكوتلاند يارد، أو وهو يحمل سوطاً... «ماذا يفعل في لندن، يا غيتان؟»، «أوه، في زيارة عمل

- لا أعلم. لقد جاء إلى المتنزّه لكي يُسلِّم عليّ». ***وهل رافقتِهِ إلى غرفته في الفندق، يا غيتان؟ هل ترغبين في مُضاجعة والد إليزابيث؟ أليس هو السيد المُحترم الطويل القامة، الوسيم، الذي انحنى لك باحترام مودِّعاً في اليوم المُشمِس في شهر آذار؟ أليس هو الرجل العجوز الذي شاهدتكِ تتحدثين معه بحماس قبل أشهر عِدَّة؟ أم هو الطبيب الذي يُحبّ أنْ يلعب معك لعبة الطبيب في عيادته؟ ماذا كان يقول لكِ، ذلك الرجل، ماذا كان يعرِض عليك وجذبَ انتباهك؟***

لم أعرف ماذا أعتقد، ولذلك فكّرتُ في كل شيء.

ونحن في السرير لاحقاً، عندما أرادتْ أنْ تشعر بالإثارة وهي تستمع إلى أغنية «كل ملوك الأشياء»، ووصلتُ إلى شفا أنْ أقول لها، «هل تقبلين مُضاجعة السيد إيفرسْكوغ؟ هل تقبلين مُضاجعة بحّار، إذا طلبتُ منكِ هذا؟ هل تفعلين ذلك مقابل مال؟»، ولم أقُلْ ذلك، ليس ببساطة خشية أنْ توافق (وهذا أمرٌ مُحتَمَل، ولو فقط للشعور من باب إثارة الموافقة)، بل لأنني يمكن أنْ أُجيب، «إذن افعلي، يا عاهرتي الصغيرة»

في نهاية الفصل الدراسي قمتُ مع بيرغيتا في رحلة مشياً على الأقدام في القارَّة، كنا نزور المتاحف والكاتدرائيات خلال النهار، ومن ثم بعد هبوط الظلام نمتِّع أبصارنا باستعراض الفتيات في المقاهي ***والكهوف*** والحانات. لم تنتبني الشكوك التي انتابتني وأنا في لندن بشأن إعادة بيرغيتا إلى هذا الأمر، بشأن إغوائها بزيارة السيد إيفرسْكوغ في الفندق الذي ينزل فيه. كان الحديث عن «فتاة أخرى» هو أحد تلك «الأشياء» التي كان يستفزّ أحدنا الآخر بها باستمرار خلال الأشهر التي تلتْ رحيل إليزابيث. كان العثور على فتاة أخرى، في الواقع، أحد أسباب قضائنا هذه العطلة. ولم تكن تنقصنا على الإطلاق البراعة في هذا المجال. ومن المؤكَّد أنّه لم يكن أيٌّ من بيرغيتا وأنا بمفرده يتحلّى بالكثير من البراعة والشجاعة، ولكن بدا أننا معاً يدعم كلٌّ منا الآخر بقوة في تمرّده، ومع مرور الليالي، أصبحنا باطّراد أكثر دهاءً في جذب أشخاص غرباء تماماً عنا. ولكن، مهما بلغت مناورتنا كفريق من المهارة والحِرفيّة، ظللتُ أشعرُ بقليل من الضعف والدوار كلما بدا أننا نجحنا في الواقع في العثور على طرفٍ راغب وننطلق كلنا للبحث عن مكان أكثر هدوءاً

نتحدث فيه. وتظهر أعراض مُشابهة على بيرغيتا - على الرغم من أنَّها في الشارع تفوز بإعجابي بشجاعتها بمدّ يدها لتزيح عن وجهها شَعر الطالبة الشابة ذات العزيمة التي تتجرّأ على مواجهة ما ينشأ. نعم، عندما رأيتُ مدى شجاعة شريكتي وثقتها بنفسها، استعدتُ مَلكاتي -وتوازني- ومددتُ لكلّ فتاة ذراعاً، وبصوتٍ يكاد يخلو من كل ارتعاش، وبمزيج الدنيويّ من السخرية والرقّة قلت، «هيا بنا، يا أصدقائي - فلننطلق!». وطوال الوقت كنتُ أفكِّر فيما كنتُ أُفكر فيه منذ أشهر: ***هل هذا يحدث؟ هذا، أيضاً؟*** ذلك أنّه في محفظتي كانت هناك إلى جانب صور إليزابيث صورة المنزل العائلي على شاطئ البحر، التي تلقّيتُها قبل أنْ تصلني علاماتي المدرسيّة البائسة واستقللتُ مع بيرغيتا قطار السفينة[1]. وكنتُ قد تلقّيتُ دعوة لزيارتها في جزيرة ترانغهولمن الصغيرة والمكوث هناك قدر ما أرغب. فلِمَ لا أفعل؟ وأتزوجها هناك! إنَّ والدها لا يعلم أيّ شيء، ولن يعلم أبداً. وكل ما كان يتراءى لي في مُخيلتي الجامحة هو صورة السوط، ورجل التحرّي، ومشاهد الحنق المُفعم بروح الإجرام والانتقام، والمؤامرة، السريّة لجعلي أدفع ثمن ما فعلتُ مع ابنته. لِمَ لا أجعل مُخيّلتي تسير في الاتّجاه المُعاكِس؟ لِمَ لا أتخيّل إليزابيث وأنا نجذّف قارباً من أمام الشاطئ الصخريّ وأشجار الصنوبر الباسقة، على طول الجزيرة إلى حيث ترسو عبّارات واكسْهولمز في كل يوم؟ لِمَ لا أتخيّل عائلتها تُشرِقُ بالسعادة وتُلوِّح لنا بالأيدي لدى عودتنا بالقارب مع الحليب والبريد؟ لِمَ لا أتخيَّل إليزابيث العذبة هذه على عتبة الشرفة الخارجيّة لمنزل إيفرسكوغ الجميل الأحمر بلون المخزن، حُبلى بأول أطفالنا السويديين اليهود؟ نعم، هناك حب إليزابيث العويص والرائع وهناك شجاعة بيرغيتا العويصة والرائعة، ***ويمكنني أنْ أحصل على أيّ منهما***. أليس ***هذا*** أمراً عويصاً! إمّا الفرن أو الموقد! آه، لابد أنَّ هذا هو معنى احتمالات الشباب.

المزيد من الاحتمالات الشابة. في باريس، في حانة قريبة من الباستيل، حيثُ عَرَّضَ المركيز[2] نفسه للعقاب بسبب جرائمه الشريرة والمتهورة

1- قطار السفينة: قطار ينقل الركّاب من السفينة وإليها.

2- يقصد المركيز دو ساد وممارساته الساديّة التي حملت اسمه. - المترجم

جلست عاهرة في الركن معنا، وبينما هي تتبادل معي النكات بالفرنسيّة حول قصّة شعري القصيرة، كانت منهمكة في مُداعبة بيرغيتا من تحت الطاولة. ووسط جو الإثارة -لأنَّ يدي أيضاً كانت تتحرّك تحت الطاولة- ظهر رجل من بعيد، يومئ لي موبّخاً على التصرفات غير اللائقة التي أترك زوجتي الشابة تتعرَّضُ لها. فنهضتُ بقلبٍ ينبض بقوّة لكي أشرح قائلاً إننا لسنا متزوجَين، وأننا طالبان، وأنَّ ما نفعل هو شأننا وحدنا - ولكن، على الرغم من لفظي الممتاز وتركيبات جملي النحويّة المثاليّة، أخرج من جيب رداء العمل مطرقة، ورفعها في الهواء. وصرخ «*Salaud! Espece de con!*» وللمرة الأولى أمسكتُ بيد بيرغيتا وهرعنا ننجو بحياتنا.

لم نناقش ما سيحدث بعد انتهاء مدة الشهر. وبدل ذلك، فكَّر كلٌ منّا: بالنظر إلى ما حدث، ماذا يمكن أنْ يحدث بعد ذلك؟ أي، افترضتُ أنني سوف أعود إلى أميركا وحدي لكي أستأنف تلقّي تعليمي، وهذه المرَّة بجديّة، وافترضَتْ بيرغيتا أنني عندما سأغادر سوف تحزم أمتعتها وترافقني. كان والدا بيرغيتا قد سمعا أنها تفكر في استئناف دراستها في أميركا على مدى عام، وبدا أنّهما لا يُعارضان ذلك. وحتى إذا لم يوافقا، سوف تفعل بيرغيتا ما تشاء.

عندما تدرّبتُ على إجراء الحديث الصعب الذي يجب أنْ يجري عاجلاً أو آجلاً، شعرت بأدائي ضعيفاً جداً وواهناً. لم يخرج مني أي شيء كما ينبغي، ولم يبدُ أنّها تقول أي شيء خاطئ -ومع ذلك كنتُ أنا، طبعاً، الذي ابتكرَ الحوار. «سوف أذهب إلى ستانفورد لكي أنال شهادتي»، «ثم؟»، «ثم راودتني أحلام مُزعجة عن الدراسة، يا غيتا. لم يحدث مثل هذا معي من قبل. لقد أفسدتُ منحتي الدراسيّة لكنَّ هذا أمر جيد»، «ثم؟»، «أمّا بالنسبة إلينا نحن الاثنين-»، «ماذا؟»، «حسن، أعتقد أنَّ علاقتنا لن تستمر. ما رأيك *أنتِ*؟ أعني أننا لن نعود إلى علاقتنا الجنسيّة المعتادة. لن نحلّ هذا الأمر- لقد عقّدنا الأمور كثيراً، وتمادينا أكثر مما ينبغي ولم يعد في استطاعتنا أنْ نعود إلى سابق عهدنا»، «حقاً؟»، «نعم، أعتقد هذا»، «لكنَّ الفكرة لم تكن فكرتي وحدي، كما تعلم»، «أنا لم أقُلْ إنها كذلك»، «إذن فنكفّ عن التمادي»، «لكنّنا لا **نستطيع** ذلك. أوه، أنتِ تعلمين أننا لا نستطيع»،

«لكنّني أفعل كل ما تريد»، «لم يعُد هذا ممكناً بعد الآن. أم إنكِ تقصدين أنني أخضعتكِ تحت سلطتي طوال الوقت، وأنّكِ نسخةٌ أخرى من إليزابيث أفسدتُكِ كما أفسدتُها؟». ورسمتْ ابتسامتها الجذّابة ذات الأسنان البارزة. وسألتْ «ومَنْ هي النسخة الثانية من إليزابيث؟، *أنت*؟ أوه لكنَّ هذا ليس صحيحاً. أنتَ قُلتَها بنفسكَ. أنتَ مدير العاهرات بالفطرة، ومتعدد الزوجات بالفطرة، بل إنَّ في داخلكَ مُغتصِب-»، «حسنٌ، ربما غيَّرتُ رأيي حول هذا كّله؛ ربما كنتُ أحمق لقولي مثل هذه الأشياء». سألتْ «ولكن كيف تستطيع أنْ تُغيِّر رأيك في فِطرتك؟»

على أرض الواقع، كانت العودة إلى الوطن من أجل استئناف دراستي الجديّة لا تتطلّب الكثير من المشقّة في شقّ طريقي، خلال هذه الغابة الكثيفة من الاعتراضات المُتملّقة، بقليل من العجز، والقليل من الحمق. كلا، لم يكن يلزمني إجراء مُناظرة متحدّية بشأن «طبيعتي الفِطريّة» لكي أتحرّر منها ومن حياتنا الوهميّة المؤلَّفة من المُتع المُثيرة -على الأقل ليس في ذلك المكان وفي تلك اللحظة. وتجرّدنا من ملابسنا لكي نأوي إلى السرير في غرفةٍ استأجرناها في بلدةٍ تقع في وادي السين، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من روين، حيث كنتُ قد نويتُ أنْ أقوم في اليوم التالي بزيارة مسقط رأس فلوبير، عندما بدأتْ بيرغيتا تسرد ذكرياتها عن الأحلام السخيفة التي كانت تراودها وهي في سن المُراهقة وتحمل اسم كاليفورنيا: سيارات ذات غطاء قابل للطيّ، ومليونيرات، وجيمس دين- قاطعتها: «سوف أذهب إلى كاليفورنيا بمفردي. سوف أذهب بمفردي - بلا رفيق»

بعد ذلك ببضع دقائق ارتدت ملابسها من جديد وأعدّت حقيبة الظهر استعداداً للانطلاق. يا إلهي، إنها أكثر جرأة مما تصوّرت! كم من الفتيات من أمثالها في العالم؟ تجرؤ على فعل أي شيء، ومع ذلك هي عاقلة مثلي تماماً. عاقلة، وبارعة، ورائعة، وثابتة - وفاسقة شبقة! إنها النوع الذي لطالما رغبتُ فيه. إذن، لِمَ أهرب؟ بأي عذر؟ من أجل المزيد من أساطير الملك آرثر والملاحم الأيسلنديّة؟ اسمع، ليتني أُفرِغُ جيوبي من رسائل إليزابيث وصورها الفوتوغرافيّة وأُفرِغُ مُخيّلتي من والد إليزابيث -ليتني أُكرِّس نفسي بالكامل لِما لديّ، للشخص الذي معي، لِما يمكن أنْ **يكون** طبيعتي- قلت «كفاكِ سُخفاً،

أين يمكنكِ أنْ تعثري على غرفة في مثل هذه الساعة؟ أوه، اللعنة، يا غيتان، أنا *مُضطرّ* إلى الذهاب إلى كاليفورنيا بمفردي! يجب أنْ أعود إلى الدراسة!»

رداً على ذلك، لا دموع، ولا غضب، ولا تأنيب حقيقيّ يستحق الذِكر. لكنني لم أتلقَّ الكثير من الإعجاب بوصفي أُمثِّل قوة شهوانيّة وقحة. قالت من موقعها عند الباب، «لِمَ أنا مُعجبة بك كثيراً؟ أنت فتى رائع»، وهذا كل ما كان لديها في النقاش حول شخصيتي، وهو، كما اتَّضَحَ، كل ما طلبته كرامتها وسمحتْ به. لم أكن الشاب المُبدِع مُروِّض العشيقات والعاهرات، ولا الكاتب المسرحيّ والشاعر الساخر الناشئ والفاسق، وأيضاً ما يُشبه المُغتصِب الغرّ – كلا، بل فقط «فتى». وبرفق، برفقٍ شديد (لأنه على الرغم من أنَّ الفتاة هي التي تئنّ عندما يُشَدّ شَعرها وتطلب المزيد عندما يكون جسدها قد خُلِقَ ليشعر بالقليل من الألم، وعلى الرغم من ثقتها بنفسها كامرأة قويّة في أشدّ المرابع الليليّة ظُلمة وتحلّيها بأعصابٍ من حديد تُبديها في عالم السفر مشياً على الأقدام المحفوف بالمخاطر، بغضّ النظر عن إحساسها المُذهل بالصواب الخاصّ بها واستعانتها به للقيام بأي عمل تشاء، وتلك المناعة الكاملة ضد الندم أو الشكّ في النفس التي كانت تُذهلني كأي شيء آخر، فإنها أيضاً دمثة، ومُحترمة، وودود، وذات نشأة ممتازة لابنة طبيب من ستوكهولم وزوجته)، أغلقت الباب خلفها لكي لا توقِظ العائلة التي استأجرنا منها غرفتنا.

نعم، بهذه السهولة انتهتِ العلاقة بين الشابة بيرغيتا سفانستروم والشاب ديفيد كيبيش. لكنَّ تخلُّص الشاب كيبيش مما هو عليه ***بالفطرة*** هو المُهمّة الأصعب، بما أنّ الفتى كيبيش لم يبد شديد الوضوح، حتى ذلك الحين، فيما يتعلَّق بماهيّة طبيعته الفطريّة بدقّة. بقيَ يقظاً طوال الليل يتساءل عمّا سيفعل إذا ما تسلّلتْ بيرغيتا عائدة إلى الغرفة قبل بزوغ الفجر؛ وتساءل إنْ كان ينبغي أنْ ينهضَ ويوصِد الباب. وبعد أنْ بزغ الفجر، وحلَّت الظهيرة ولم يعثر لها على أثر، لا في بلدة ليزاندليه ولا في روين -لا في غروس هورلوغ، ولا في الكاتدرائيّة؛ لا في مسقط رأس فلوبير ولا في الموقع الذي أُحرِقَتْ فيه جان دارك- تساءل إنْ كان سيُقابل من جديد شبيهاً لها ويمر بمغامرة كمُغامرتهما.

***

ظهرتْ هيلين بيرد بعد ذلك ببضع سنوات، وأنا في المرحلة الختاميّة من دراسات التخرُّج في الأدب المُقارَنْ وأشعر بالابتهاج بشأن التصميم الذي حشدته لإنجاز العمل. وبدافع من الضجر، والقلق، ونفاد الصبر، والحرج المتزايد الذي كان يُنبئني بشكل مُزعج بأنني أصبحتُ متقدِّماً في السن ولم أعُد صالحاً للجلوس على مقعد الدراسة والخضوع لاختبار أشياء أعرفها، أوشكتُ أنْ أتخلّى عن برنامج كل رسالة جامعيّة تنتظرني. أما الآن، ومع اقتراب النهاية أصبحتُ أحمد الله بصوتٍ مُرتفع وأنا أستحمّ في آخر النهار، وأبثّ الفرح في نفسي بتصريحات على غرار، «لقد أنجزتُ العمل» و«لقد أتممتَ المُهمّة»، كأنّني اجتزتُ جبال ماترهورن لكي أتأهّل لخوض الامتحانات الشفويّة. وبعد انصرام العام الذي أمضيته مع بيرغيتا، أدركتُ أنني لكي أُحقق أيَّ إنجاز يدوم، سوف أُضطرّ إلى كبح جانب من نفسي يتعرَّض بقوة لأشدّ أنواع الإغراءات إرباكاً وإضعافاً، إغراءات اعتبرتُها بعد أنْ أمضينا تلك الليلة خارج روين مؤذية لاهتماماتي عامة. لأنني علِمتُ، بقدر ما تماديتُ مع بيرغيتا، كم كان سيكون سهلاً عليّ لو أنني تماديتُ أكثر -تذكّرتُ الإثارة التي استمددتها من تخيّلها مع رجالٍ آخرين غيري، تخيّلتها تتلقّى نقوداً وتضعها في جيبها... ولكن ***أيعقَل*** أنني تماديت هكذا بسهولة شديدة؟ وأصبحتُ قوّاد بيرغيتا؟ حسن، مهما بلغَتْ موهبتي في تلك المهنة، فإنَّ التخرّج من الجامعة لم يُشجّعني كثيراً على تطويرها... نعم، عندما بدا أنّني ربحت المعركة، شعرتُ بارتياح حقيقيّ من مقدرتي على تسخير حسّي السليم لمصلحة نداء داخليّ جِدّيّ- من دون أنْ تلمسه فضيلتي. ثم ظهرتْ هيلين لكي تُخبرني، بالقُدوة وباستخدام الكثير من الكلمات، أنني للأسف تعرَّضتُ للتضليل وأسأتُ الفهم. هل قالت ذلك كي لا أنسى أبداً تهمة زواجي منها؟

كانت نزعتها البطوليّة، في ذلك الوقت، من نوعٍ يختلف عن نزعتي الخاصّة -في الحقيقة، لقد صدمتني بأنها نقيض نزعتها. كانت قد أمضَتْ عاماً في جامعة جنوب كاليفورنيا وهي في سن الثامنة عشرة، ومن ثم هربتْ مع صحفيّ يبلغ من العمر ضعف عمرها إلى هونغ كونغ، وهناك كان يُقيم أصلاً مع زوجة وثلاثة أطفال. لقد تركتْ، مُسلّحة بمظهر جميل

مُذهل، وبهيئة شجاعة، وبمزاج رومانسيّ جداً، وظيفتها المدرسيّة وصديقها ومُخصّصها الماليّ الأسبوعي وانطلقَتْ، من دون أنْ تترك أيّة كلمة اعتذار أو تفسير لعائلتها المذهولة والمتألِّمة (التي بقيَتْ تعتقد على مدى أسبوع أنها اختُطِفَتْ أو قُتِلَتْ)، من أجل السعي وراء قَدَرٍ أكثر إثارة من قضاء العام الثاني الجامعيّ في مسكن الفتيات، قَدَرٍ عثرتْ عليه- وتخلّتْ عنه مؤخّراً.

قبل ذلك بستة أشهر، علِمتُ أنّها تخلَّتْ عن كل شخص وعن كل شيء كانت تسعى وراءه قبل ذلك بثماني سنوات -عن كل متعة وإثارة التجوال بين الآثار القديمة وتشرُّب غرابة الأماكن الرائعة والمجهولة بصورة مُغرية- لكي تعود إلى كاليفورنيا وتبدأ الحياة من جديد. وفي ليلة لقائنا في إحدى الحفلات التي أقامها عدد من الأثرياء الشبّان يُصدرون صحيفة جديدة في سان فرانسيسكو «تُعنى بالفنون»، كان أول ما قالت لي يُشبه ما يلي «آمل ألّا أضطر من جديد إلى عيشِ عامٍ شبيه بذاك الذي انصرم». وجدتُ هيلين مستعدة لكي تحكي حكايتها من دون أدنى أثر من الإحساس بالخزي، ولكن أنا نفسي تخلّيتُ عن شعوري بالخزي، حالما تمّ تقديمنا للمدعوين، لأنني نأيتُ بنفسي عن الفتاة التي وصلتُ معها، ثم فتّشتُ عنها بين مئات الأشخاص الذين يعج بهم منزل المدينة. سألتها «لماذا؟» -كان أول الأسئلة التي سوف تُضطر إلى إعطاء أجوبة عليها لي- «كيف كان ذلك العام بالنسبة إليك؟ ماذا حدث؟»، «حسن، أولاً، أنا لم أذهب إلى أي مكان طوال ستة أشهر متواصلة بما أنّه لم يكن لديّ وقت وأنا طالبة»، «لمَ رجعتِ، إذن؟»، «بسبب الرجال. والحب. لقد أفلتَ زمام كل شيء من يدي». وفي الحال أصبحتُ مُستعداً لعزو «صراحتها» إلى عقليّة المجلات الشائعة -وإلى ميل إلى تعدّد علاقاتها الجنسيّة، النقيّة والبسيطة. قلتُ في نفسي، آه، يا إلهي، ما أجملها، وما أشدّ ابتذالها. يبدو من حكاياتها أنها تنوي أنْ تُخبرني أنها أقامت حتى الآن خمسين علاقة عاطفيّة عنيفة- على متن خمسين قارباً شراعيّاً حتى الآن، وجابتْ بحر الصين مع رجالٍ أغدقوها بالحلي القديمة ومتزوجين من نساء أخريات. وقالت، بعد أنْ قدَّرَتْ كيفَ قدَّرتُ حجم ذلك الوجود، «اسمع، ما هو اعتراضك على هذا الشغف؟ ما سبب هذا الانفصال المُدقِّق، يا سيد كيبيش؟ أتريد أنْ تعرف مَنْ أنا -حسن، ها أنا أخبرك»، قلت

«إنها ملحمة كبيرة». فقالتْ مع ابتسامة. «ولِمَ لا تكون كذلك؟ أنْ تكونَ «ملحمة» أفضل من أنْ تكون أشياء أخرى كثيرة أعرفها. والآن قُلْ لي، ما هو اعتراضك على الشغف؟ ما الأذى الذي سبّبه لك؟ أم هل أسأل، أي خير سبّبه؟»، «إنَّ السؤال المهم الآن هو ما الذي فعله أو لم يفعله لك»، «لقد فعل أشياء جيدة. أشياء رائعة. ويعلم الله، لم يفعل شيئاً أخجل منه»، «إذن ما سبب وجودكِ هنا وليس هناك، بما أنكِ مُفعمة بالشغف؟». أجابت هيلين، من دون اللجوء إلى نبرة السخرية لتحتمي بها- وربما هذا ما دفعني إلى البدء بالإفضاء ببعض ما لديّ، وبإدراك أنّها ليستْ فقط ذات جمال أخّاذ، بل أنّها حقيقيّة، وموجودة هنا معي، وربما أحصل عليها إذا رغبتُ فيها - قالت «لأنني أتقدَّم»

إنها تتقدَّم وهي في عمر السادسة والعشرين. في حين أنَّ المُرشّحة التي تحمل درجة الدكتوراه ذات الرابعة والعشرين وخرجتُ معها في المساء -وتركت الحفلة في نهاية المطاف كلمح البصر، من دوني- كانت تقول بهذا الشأن ونحن في الطريق، وهي تُصنِّف بطاقات الفهرس في المكتبة بعد ظهيرة ذلك اليوم، إنها تتساءل إنْ كانت حياتها سوف تستمر ومتى.

سألتُ هيلين عن شعورها بشأن عودتها. كنا حينئذٍ قد غادرنا الحفلة وننتقل إلى حفلة أخرى تُقام في حانة مُجاورة. لقد تركتِ الرفيقَ الذي كانت قد بدأت الأمسية معه، بسلبيّة أقلّ من سلبيتي. إذا رغبتُ فيها... ولكن هل أرغبُ فيها؟ هل **يجب** أنْ أرغب فيها؟ دعني أولاً أسمع عن شعورها بعدولها عن الفرار. بالنسبة إليّ، طبعاً، كان ذلك مُريحاً أكثر بكثير من كونه خيبة الأمل، وأنا لم أُضيِّع اتّجاهي إلّا مدة عام. «أوه، لقد وقّعت على معاهدة هدنة مع أمّي المسكينة، وكانتْ أخواتي الصغيرات يتبعنني حيثما ذهبت كأنني نجمةٌ سينمائيّة. أما ما تبقّى من أفراد العائلة فكانوا مذهولين. إنَّ فتيات الحزب الجمهوريّ الرقيقات لم يفعلن ما فعلتُ. ما عدا أنّه بدا أنَّ هذا كل ما كنتُ أواجه أينما ذهبت، من نابولي وحتى سينغافورا. في الواقع نحن نشكّل جيشاً صغيراً. وفي رأيي أنَّ نصف الفتيات اللائي يطرنَ إلى رانغون على متن ذلك الصندوق المتوجّه إلى مدينة مانداليه هنَّ في العموم من مرتفعات شيكر»، «والآن ماذا تفعلين؟»، «في الواقع، أولاً يجب أنْ أجد طريقة للكفّ

عن البكاء. كنتُ أبكي في كل يوم منذ أنْ رجعت على مدى الأشهر القليلة الأولى. والآن يبدو أنَّ هذا الوضع انتهى، ولكن، بصراحة، من الشعور الذي ينتابني عندما أستيقظ في الصباح قد أكون *أيضاً* أبكي. الأمر هو أنَّ كل شيء يبدو غاية في الجمال. أعني أنَّ العيش وسط كل ذلك الجمال -كان شيئاً غامراً. أنا لم أكفّ عن كوني مبتهجة. كنتُ أذهب إلى أنكور في ربيع كل عام، وفي تايلاند كنا ننتقل بالطائرة من بانكوك إلى تشيينغماي مع أميرٍ يمتلك فيلة. كان ينبغي أنْ تراه مع كل فيلته. كان رجلاً عجوزاً ضئيل الحجم بلون الجوز يتحرّك كالعنكبوت وسط قطيعٍ من أضخم الحيوانات. كان في وسعك أنْ تطويه مرَّتين داخل أُذنٍ من آذانها. كانت الفيلة كلها تتبادل الصرخات أحدها في وجه الآخر، لكنّه كان يُتابع طريقه، لا يلوي على شيء. قد تعتقد أنَّ رؤية ذلك هو، في الواقع، فقط رؤية ذلك. ولكن في الواقع، ليس هذا ما قلتُ في نفسي. ما قلتُ هو، «هذا كل ما في الأمر». كنتُ أذهب في آخر النهار بالقارب الشراعي- حدث ذلك في هونغ كونغ - لكي أُحضِر صديقي من مركز عمله. كان يُبحِر في الصباح مع صبي القارب إلى مركز عمله، ومن ثم في الليل كنا نبحر معاً عائدين إلى المنزل، بين القوارب الشراعيّة الصينيّة والمُدمّرات الأميركيّة»، «كانت حياة استعماريّة طيّبة. وكراهيتهم التخلّي عن تلك الإمبراطوريات لها ما يُبرّرها. لكنني ما زلتُ لا أفهم بدقّة سبب تخلّيك عن إمبراطورياتك»

وخلال الأسابيع التي تلتْ ظللتُ أجد صعوبة في أنْ أُصدِّق -على الرغم من تماثيل بوذا الصغيرة العاجيّة، والنقوش على حجارة اليشم، وصفّ تماثيل الثقالات التي على شكل ديكة رُتِّبَتْ على الطاولة المُجاورة لسريرها- أنَّ هذا الأسلوب في الحياة كان حقّاً أسلوبها. الحياة في شيينغواي، ورانغون، وسينغافورا، ومائدلاي... لِمَ لم تذهب إلى كوكب المُشتري، أو إلى المرّيخ؟ أؤكّد لك أنني أعرف أنَّ تلك الأماكن موجودة خارج خريطة راند ماكنالي التي اقتفيت عليها مسار مغامراتها (كما كنتُ ذات يوم قد اقتفيتُ مسار مغامرة بيرغيتا في دليل هاتف لندن)، ومسار مجريات أحداث روايات كونراد التي تعرَّفتُ فيها للمرة الأولى على تلك الأماكن - وعرفتُ أيضاً، طبعاً، تلك «الشخصيات» التي تعيش وتتنفّس وتختار مصيرها في مدن

العالم الغريبة... فما الذي فشل إذن في إقناعي بعمق بأنَّ هيلين التي تعيش، وتتنفّس، هي واحدة منها؟ أهو وجودي معها؟ أمْ هي هيلين الشخصيّة التي لا تُصدَّق بما تضع من قرط مُرصَّع بأحجار كريمة أم هي مُساعدة المُدرّس الخرّيجة المُلتزمة بواجبها بزيّها القطنيّ المُخطَّط الذي يُغسَل ويُنظَّف على الناشف؟

بل لقد أصبحتُ بصورةٍ ما مرتاباً بها ومُنتقداً لجمالها الأنثويّ، الهادئ، أو بالأحرى، لوضعيّة عينيها وأنفها، ونحرها، وثدييها، ووركيها، وساقيها -بل حتى قدماها كانتا تتصفان بالنسبة إليها بمزايا صغيرة فاتنة يجب أنْ تحظى بالمديح. ولكن كيف توصّلتْ إلى هذا الموقف المهيب، هذا الإحساس الأرستقراطي بنفسها الذي يبدو أنّه مُستمَدّ بالكامل تقريباً من نعومة البشرة، ومن طول أحد الأطراف، وعرض الفم واتّساع العينين والطرف المُحزَّز لِما وَصَفَته بأنّه، من دون أنْ يطرف لها جفن (المُظلَّل بأخفّ تدرّجات اللون الأخضر) بأنّه أنف «فلمنكيّ»؟ إنني لستُ متعوّداً على الإطلاق على مُرافقة شخص يتمتّع بمثل جمالها مع إحساس عالٍ بالإنجاز وتقدير الذات. إنَّ تجربتي- بالهروب من بين صفوف المُقبلين على التخرُّج الذين لا يريدون أنْ تكون لهم «صِلة» بي «على ذلك المستوى»، واللجوء إلى بيرغيتا سفانستروم، التي كان حضور الجسد بالنسبة إليها طاغياً ومُستعداً لأنْ يُستَغَلّ في ممارسة كل إثارة -كانت مع نساء صغيرات لا يُثرنَ أيَّ ضجيج بشأن مظهرهن، أو يعتقدنَ على الأقلّ أنه ليس من اللائق أنْ يُظهرن اهتمامهنّ به. صحيح أنَّ بيرغيتا كانت تعلم جيّداً أنَّ قَصَّة شعرها القصيرة تعزّز بطريقة جميلة ولا مبالية مَكرها الساحر، ولكن فيما عدا ذلك لم تكن تولي طريقة تشكيلها لوجهها الخالي من المساحيق الكثير من الاهتمام بين صباح يوم وآخر. وكانت إليزابيث، صاحبة الشَعر الغزير الذي لا يقلّ استحقاقاً للمديح من شعر بيرغيتا، تُسرّحه ببساطة على طول ظهرها، وتتركه ينسدل هناك كما كانت تفعل وهي في السادسة من العمر. أما شَعر بيرغيتا الرائع- الذي كان أقرب في لونه إلى لون شَعر الكلب الأيرلنديّ -فبدا أشبَه بالتاج، أو بالبرج المُستدقّ، أو بهالة النور، ليس الغرض منه الزينة أو الزخرفة بل أنْ يكون تعبيراً، أو رمزاً. ربما كان مجرد معيار لمدى الضيق والتوحّد اللذين اتّصَفَتْ

بهما حياتي- أو ربما هو في الحقيقة المقياس الحقيقيّ للمومس الذي يُشبه القوة التي تنبثق من إحساس بيرغيتا بنفسها بوصفها معبودة يمكن أنْ تكون صورة محفورة على حجر يشب يزن مائة رطل -ولكن عندما كانت ترفع شَعرها وتشكّله على هيئة عقدة رقيقة على خلفيّة رأسها، وترسم خطّاً أسود فوق أهداب العين- فوق عينين ليستا أكبر أو أشدّ زرقة من عينيّ إليزابيث - عندما كانت تلبس عدداً كبيراً من الأساور وتربط وشاحاً من الحرير ذا أهداب حول وركيها كما كانت كارمن[1] تفعل استعداداً للخروج لتشتري بعض ثمار البرتقال لتتناولها على وجبة الإفطار، لم أكنْ أنسى أثر ذلك المشهد عليّ. لم أنسه قط. منذ البدء كان الجمال الجسدي للنساء يبهرني، لكنَّ هيلين لم تسحرني وتثرني فقط، بل أفزعتني أيضاً، وأثارتْ فيَّ شكاً عميقاً، عميقاً - استعبدتني بالكامل القوةُ التي كانت تعلن بواسطتها عن جمالها وتُشدِّد عليه وتجعله فريداً من نوعه، ومع ذلك كنتُ شديد الريبة في الامتيازات، في *المكانة*، التي مُنِحَتْ لها في مُخيّلتها. وأحياناً كان جمالها يبدو لي تعبيراً مُبتذلاً عن الذات والتجربة، ومع ذلك، كان فاتناً ومُفعماً بالسحر. *مع ذلك، ربما كانت على صواب.*

سألتُها -وما زلت أسأل، وما زلتُ كما يبدو آمل كثيراً في أنْ أعبِّر عمّا هو مُفتَعَل في تلك الشخصيّة الرائعة كما تَصِفُ نفسها وفي القصة الرومانسيّة الآسيويّة التي تقول إنّها الماضي- «كيف حدث وتخلّيتِ *أنتِ* عن الحياة الاستعماريّة الطيبة، يا هيلين؟»، «لقد اضطُررتُ إلى ذلك»، «أم لأنَّ المال الموروث وفَّرَ لك الاستقلال؟»، «إنها مجرد ستة آلاف دولار قذرة في العام، يا ديفيد. في الحقيقة، أعتقد أنّه حتى أساتذة الجامعات المُتقشّفون يكسبون أكثر من ذلك بكثير»، «ما قصدتُ هو أنكِ ربما قرّرتِ أنَّكِ لن تتمكني من الاحتفاظ بالشباب وبالجمال إلى الأبد»، «اسمع، لقد كنتُ طفلة ولم تكن المدرسة تعني لي أيَّ شيء، وكانت عائلتي تشبه أيّة عائلة أخرى - مُهذّبة ومُملّة ولائقة، وعشتُ طوال كل تلك السنين العديدة تحت غطاء من الثلج في شارع فيل هيل مانور رقم 18. الشيء المُثير الوحيد كان مصدره

1- كارمن: الغجرية الشهيرة في باليه جورج بيزيه التي تحمل اسمها. - المترجم

وجبة الغداء. في كل ليلة بعد أنْ نتناول حلوى بعد الطعام كان والدي يقول، «أهذا كل شيء؟» وتنفجر أمي باكية. وهكذا في عامي الثامن عشر قابلتُ أول رجلٍ ناضج، شديد الوسامة، ويُحسِن الكلام، علَّمني أشياء كثيرة، كان يعرف كل ما لا يعرفه الآخرون كلّهم، وكان صاحب أساليب أنيقة رائعة، ولم يكن في الحقيقة طاغية متوحشاً، ككل الطُغاة، ووقعتُ أسيرة حبّه -نعم، في غضون أسبوعَين؛ وهذا الأمر يحدث وليس مع تلميذات المدارس فقط،- وقال «لِمَ لا تعودي معي؟»، فوافقتُ - وذهبتُ معه». «ذهبتِ معه داخل «صندوق» كشحنة بحريّة؟»، «ليس في تلك المرّة. بل كطعام شهيّ فوق المُحيط وممارسة جنس ذاتي من الدرجة الأولى. دعني أخبركَ شيئاً، الأشهر الستة الأولى لم تكن سهلة. وأنا لا أشتكي من ذلك. في الحقيقة، لقد كنتُ فتاةً صغيرة حَسَنة التنشئة من باسادينا، هذا كل ما في الأمر، حقاً، ترتدي تنورة زاهية الألوان وحذاءً خفيفاً - وكان ***أطفال*** صديقي في مثل سنّي تقريباً. أوه، من النوع العُصابيّ بصورة رائعة، ولكن عملياً كانوا في مثل سنّي. ولم أتمكّن من تعلُّم الأكل بالعصي على الطريقة الصينيّة، كنتُ شديدة الخوف. وأتذكَّر ذات ليلة أول حفلة تعاطي الأفيون، وانتهى الأمر بي إلى ركوب سيارة ليموزين مع أربعة من أشد المنحرفين جنسياً تطرفاً - أربعة من الإنكليز، يرتدون ملابس نسائيّة وينتعلون أحذية خفيفة ذهبيّة اللون. ولم أستطع أنْ أتوقف عن الضحك. وكنتُ أُكرّر القول «هذا شيء سورياليّ، سورياليّ» إلى أنْ نظر الأشدّ امتلاءً بينهم إليّ من تحت نظارته وقال «طبعاً هو سورياليّ، يا عزيزتي، فأنتِ في التاسعة عشرة»»، «لكنكِ رجعتِ. لماذا؟»، «لا يمكنني الاستمرار في ذلك»، «مَنْ كان ذلك الرجل؟»، «أوه أنتَ تُصبح طالب مدرسة *cum laude* (بامتياز) حقيقيّاً، يا ديفيد»، «هذا غير صحيح. لقد تعلَّمتُ كل شيء عند قَدَميّ تولستوي»

أعطيتها رواية «***آنا كارنينا***» لكيِ تقرأها، فقالت «لا بأس بها - لكنّه لم يكن يُشبه فرونسكي، الحمد لله. إنَّ أشباه فرونسكي لا قيمة لهم، يا صديقي، ومملّون. بل كان رجلاً - في الحقيقة، كان أقرب شَبَهاً بكارنين. ولكن يجب أنْ أُسرع وأُضيف أنّه لا يُثير في النفس أيّ قدرٍ من الشفقة». ***هذا*** الكلام

أسكتني لحظة: يا لها من طريقة مُبتكرة للنظر إلى العلاقة الثُلاثيّة الشهيرة![1] قلت «كأنّه زوج آخر»، «ولكن فقط نصف زوج». «يبدو الأمر مُبهَماً؛ كأنّه دراما عنيفة. ربما ينبغي أنْ تكتب ذلك كلّه»، «وربّما ينبغي أنْ تكفّي عن قراءة كل ما يُكتَب»، «وماذا أفعل غير ذلك في وقت فراغي؟»، «قومي بمراجعة سريعة للمادة نفسها»، «وهناك رواية تدور حول هذا الموضوع، في الواقع. عنوانها «*السفراء*»[2]. قلتُ في نفسي: وهناك أيضاً كتاب عنك. عنوانه «*الشمس تشرق من جديد*»[3] والشخصية اسمها بريت، وهي ضحلة مثلك. وكذلك الأمر فريقها كلّه - وكذلك الأمر فريقك. قالتْ هيلين، وهي تلتقط الطُعم بسعادة، وترسم ابتسامة واثقة، «أراهنُ على أنَّ هناك كتاباً يدور حول هذا. أراهن على أنَّ هناك آلاف الكتب تدور حول هذا. كنتُ أراها مصفوفة حسب ترتيب الأحرف الأبجديّة في المكتبة. لذلك ليست هناك فوضى، دعني فقط أُغالي قليلاً في القضية: أنا أكره المكتبات، وأكره الكتب، وأكره المدارس. وحسبما أذكر، هي تعمل على تحويل كل شيء في الحياة إلى شيءٍ يختلف قليلاً عما هو فعلاً - «قليلاً» في أفضل الأحوال. إنَّ أولئك المُدمنين على القراءة النظريين الأبرياء المساكين الذين يعملون في مجال التعليم هم الذين يزيدون الأمر سوءاً. شيء مُريع، إذا فكّرتَ فيه»، «إذن، ماذا ترين فيّ؟»، «أوه، أنتَ أيضاً تكرههم قليلاً. بسبب ما فعلوه بك»، «وماذا فعلوا؟»، «حوّلوك إلى شيء-»، قلت وأنا أضحك «مُريع؟» (لأنّنا كنا نتبادل ذلك الحوار القصير تحت غطاء السرير بجوار تماثيل الثقل الصغيرة البرونزيّة) «كلا، ليس بالضبط. بل إلى شيء خاطئ قليلاً، قليلاً... إنَّ كل شيء فيك هو أقرب قليلاً إلى الكذبة - ما عدا عينيك. إنهما ما زالتا تمثّلانك. إنني حتى لا أقوى على النظر إليهما مطوّلاً. كأنني أحاول أنْ أضع يدي داخل وعاء يحتوي ماءً حارّاً لكي أنزع السدّادة»، «إنكِ تصفين الأشياء بحيويّة. أنت مخلوق حيويّ. أنا أيضاً لاحظتُ عينيك»، «أنتَ تسيء استغلال

1- في رواية «**آنا كرنينا**»: العلاقة الثلاثيّة بين آنا وزوجها كرنين وعشيقها فرونسكي. - المترجم

2- عنوان رواية لهنري جيمس.

3- عنوان رواية لإرنست هيمنغواي..

نفسك، يا ديفيد، وتُصرّ على أنْ تكون ما ليس أنت. ولديّ إحساس بأنكَ ربما ترتفع لكي تسقط بشكلٍ مُريع. إنَّ أول خطأ ارتكبته هو أنكَ تخلّيتَ عن تلك السويديّة المُفعمة بالحيويّة التي تحمل حقيبة الظهر. ويجب أنْ أُضيف أنها في الصورة الفوتوغرافيّة بدتْ تشبه قليلاً صِبية الأزقّة من التعبير المرتسم حول فمها كالسنجاب، على الأقلّ كانت صحبتها ممتعة. ولكنك طبعاً تكره هذه الكلمة، أليس صحيحاً؟ على غرار كراهيتك لكلمة «صندوق» التي تعني طائرة متهالكة. وكلما نطقتُ كلمة «مرح» أراكَ تجفل بوضوح من الألم. يا إلهي، لقد قمتَ بعملٍ جبار لمصلحة نفسك. إنكَ مُعتد كثيراً بنفسك، ومع ذلك أعلم في دخيلتي أنكَ تعلم أنكَ فقدتَ أعصابك»، «أوه، لا *تُغالي* في تبسيطي. ولا تصِفي «أعصابي» أيضاً بهذا الوصف الرومانسي – اتّفقنا؟ أحبّ أنْ أقضي وقتاً ممتعاً بين حينٍ وآخر. بالمناسبة، لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً في مُضاجعتك»، «وبالمناسبة، لقد أمضيتَ أكثر من وقتٍ ممتع في مُضاجعتي، أمضيتَ أفضل وقت أمضيته مع أي شخص آخر». وأضافت، «ثم، يا صديقي العزيز، أنا أيضاً أطلبُ منكَ ألّا ترسم لي صورة رومانسيّة»

قالت هيلين، وهي تتمطّى بتراخٍ حالما بزغَ الفجر، «أوه، يا الله، ما أمتع النكاح»

هذا صحيح، صحيح، صحيح، صحيح، صحيح. إنَّ الجنس مسعور، ولا ينْفَد، ووِفقاً لتجربتي، هو يُجدّد الحيويّة بصورة فريدة. وعندما أعود بذاكرتي إلى بيرغيتا، يبدو لي من وِجهة نظري الجديدة والدقيقة أنَّ كلاً منّا كان، من بين أشياء أخرى، يساعد الآخر ونحن في عمر الثانية والعشرين لكي نصبح فاسدَين قليلاً، لكي يُصبح كل منا عبداً للآخر وسيداً، أنْ يُصبح الحارِق والمُحترِق. وبممارسة مثل تلك الطاقة الجنسيّة القويّة خلقنا جوّاً مُنوِّماً طاغياً، لكنّه جوّ ينفذُ إلى العقل الغرّ قبل أي شيء: لقد فُتِنتُ وابتهجتُ بفكرةِ ما نحن منهمكَان فيه بقدر افتتاننا بالأحاسيس، بما شعرت وبما رأيت. لم يحدث هذا وأنا مع هيلين. لا شك في أنَّ عليّ أوّلاً أنْ أُعوِّد نفسي على ما صدمني وأنا في ذروة ارتيابي بكونه عرضاً مسرحيّاً، ولكن سرعان ما بدأتُ أخيراً أتخلّى عن بعض من ارتيابي، مع ازدياد فهمي، وتآلفي، وازدياد الشعور معهما، وبدأتُ أبتعد قليلاً عن استفساراتي، وأرى تلك الممارسات

الشبقة تنبثق من قلب غياب الخوف بحيث إنها جذبتني إليها، بعيداً عن ذلك الاستسلام المقصود الذي ستهب به نفسها لأي شيء يومئ لها بقوة، بغضّ النظر عمّا إذا كان سيجلب معه في نهاية المطاف ألماً بقدر ما يجلب متعة. قلتُ في نفسي، كم كنتُ مُخطئاً، مُحاولاً أنْ أنبذ أسلوب تفكيرها لأنه سطحيّ ومُبتذل ومُستمدّ من ***الأفلام الرومانسيّة*** - بالأحرى، هي ***تفتقر*** إلى الخيال، لا يوجد عندها ***حيِّز*** للخيال، وتركيزها كامل، وكذلك براعتها التي تعبِّر بها عن رغبتها. والآن، بعد الرعشة الجنسيّة، أجد نفسي واهناً مع إحساس بالامتنان مع أعمق مشاعر الاستسلام. إنني الكائن الحيّ الأقل حذراً، إذا لم أقُل الأشدّ بساطة، على وجه الأرض. بل إنني لا أعلم ماذا أقول في مثل هذه اللحظات. أما هيلين فتعرف. نعم، هناك أشياء تعرفها هذه الفتاة معرفة شاملة. قالت لي «أحبّك». حسن، إنْ كان هناك ما ينبغي قوله، فأي قول أفضل من هذا؟ وهكذا بدأ كل منا يقول للآخر إننا عاشقان ويُحبّ أحدنا الآخر، حتى مع بروز قناعتي مع كل حديث يدور بيننا بأنَّ كلاً منا يسير في درب مختلف الاتّجاه كليّاً. ورغم اقتناعي كما أرغب في أنْ أكون بأنَّ ثمة صِلة قرابة، نادرة وقيِّمة، تشكِّل أساساً لعلاقتنا الشبقة وتُغذّيها، بقيتُ عاجزاً عن إزالة القلق الأعظم الذي لم تتوقف هيلين عن إثارته عندي. فلِمَ لا نتوقف - لِمَ لا أستطيع ***أنا*** أنْ أتوقّف - عن إقامة الحواجز والتباعُد؟

وأخيراً وافقتْ على إخباري بالسبب الذي دفعها إلى التخلّي عن كل ما تملك في الشرق الأقصى: أخبرتني إمّا لكي تُخاطب مباشرة ارتيابي أو لكي تزيد الغموض الذي بدا أنني لا أستطيع مُقاومته.

كان عشيقها، آخر أشباه آل كرنين، قد بدأ يتحدث عن التخطيط لقتل زوجته في «حادثة». «ومَنْ يكون؟»، كل ما رغبتْ في قوله، «إنّه شخصيّة معروفة وهامّة». أجبرتُ نفسي بأقصى ما في طاقتي على قبول هذا الكلام وسألتها: «أين هو الآن؟»، «ما زال هناك»، «ألم يُحاول أنْ يراك؟»، «جاء إلى هنا لقضاء أسبوع»، «وهل ضاجعته؟»، «طبعاً ضاجعته. كيف يمكنني أنْ أُقاوم مُضاجعته؟ ولكنني في نهاية المطاف أعدتُه من حيث أتى. وكاد ذلك يقضي عليّ. كان رحيله إلى الأبد أمراً شنيعاً»، «حسن، قد يذهب ويقتل زوجته في كل الأحوال، ويخضع للغواية-»، «لِمَ تسخر منه؟ هل يصعُب عليك أنْ تفهم

أنّه كائن بشري مثلك؟»، «هيلين، هناك أساليب معيَّنة للتعامُل مع رفيق فراش ترغبين في التخلّص منه، بعيداً عن القتل. يمكنكِ ببساطة أنْ تتركيه، مثلاً»، «وهل تستطيع أنْ تفعل ذلك «ببساطة»؟ أهذه هي الطريقة التي يُطبّقونها في قسم الأدب المُقارَنِ؟»، ثم قالتْ «أتساءل كيف تشعر عندما لا تحصل على ما تريد»، «هل أنسِف دماغ أحدهم لكي أحصل على ما أريد؟ هل أدفع أحدهم من مهوى المصعد؟ ما رأيكِ؟»، «اسمع، *أنا* التي تخلَّتْ عن كل شيء وكدتُ أموت جرّاء ذلك - لأنني لم أطِق سماع *نطق* الفكرة. شعرتُ بالرعب من معرفة أنَّ في استطاعته حتى أنْ *يحمل* تلك الفكرة. أو ربما كان شيئاً مُغرياً بصورةٍ مُعذِّبة أنْ يكون *هذا* هو سبب إسراعي في الهرب. لقد كان يائساً، يا ديفيد، وكان جادّاً. وهل تعلم كم كان سهلاً أنْ تقول ما يرغب هو في سماعه؟ إنّها مجرد كلمة، ولا تستغرق أكثر من جزء من الثانية: كلمة نعم»، «ربما سألَ لأنّه كان متيقّناً من أنّكِ سترفضين»، «لم يكن في استطاعته أنْ يتيقَّن. *أنا نفسي* لم أكنْ متيقّنة»، «لكنَّ رجلاً معروفاً وشخصيّة هامة مثله كان يمكن أنْ يمضي ويُنفِّذ الأمر وحده، أليس كذلك - ومن دون أنْ تعلمي أنّه الفاعل؟ ولا شك في أنَّ رجلاً معروفاً كهذا وشخصيّة هامة مثله تتوفَّر لديه وسائل شتّى للتخلُّص من زوجة تافهة: سيارات ليموزين تتحطَّم، قوارب تغرق، طائرات تنفجر في الجو. ولو أنّه نفَّذَ الجريمة وحده أصلاً، لما حصل ما اعتقدتِ *أنتِ* أنّه سيحصل. وإذا كان قد طلبَ سماع رأيك، فذلك فقط لكي *يسمع* رفضك»، «أوه، هذا كلام مُثير للاهتمام. تابع. أنا أرفض، وماذا يكسب هو من ذلك؟»، «يكسب ما لديه: زوجته *وأيضاً* أنتِ. سوف يحصل على كل شيء، وعلى مبلغ ضخم من المال من تلك الصفقة. أما هروبك، وكون الفكرة أصبحتْ واقعاً بالنسبة إليك، وكانت لها عواقب أخلاقيّة بالنسبة إليك - حسن، ربما هو لم يفكِّر في الحصول على ذلك النوع من البروز من ذلك الهروب الجميل، المُغامِر، الأميركيّ». «شيء مُبدِع حقاً. شيء جديد، خاصّة بشأن الجزء الخاص بالـ «عواقب الأخلاقيّة». والخطأ الوحيد هو أنّكَ لا تفهم البتّة ما دار بيننا. ولمجرد كونه صاحب سلطة، تعتقد أنّه مُجرَّد من المشاعِر. ولكن في الواقع هناك رجال يتمتّعون بكليهما. لقد بقينا نتقابل مرّتين في الأسبوع على مدى عامَين. وأحياناً أكثر من ذلك - ولكن ليس

أقلّ. ولم يتغيَّر الوضع قط. لم يكن إلّا وضعاً مثاليّاً. أنت لا تعتقد أنَّ مثل هذه الأمور تحدث، أليس كذلك؟ أو حتى إذا كانت تحدث، فأنتَ لا تريد أنْ تُصدِّق أنها أمور هامّة. لكنَّ هذا يحدث، وهي هامّة بالنسبة إليّ وإليه أكثر من أي شيء آخر»، «لكنَّ العودة أيضاً حدثتْ. وكذلك إبعاده عنكِ حدث. وأيضاً إحساسك بالرعب حدث وشعورك بالاشمئزاز. إنَّ مكائد ذلك الشخص لا مجال لها هنا. إنَّ ما يهمّكِ، يا هيلين، هو أنَّكِ وصلت إلى آخر حدودك»، «ربما أخطأتُ وهذه سِمة عاطفيّة جداً عندي. أو هو نوع صبيانيّ من الأمل. ربما كان ينبغي أنْ أبقى، وأنْ أتجاوز حدودي - وأنْ أتعلَّم أنَّ الأمرَ لم يكن فوق طاقتي البتّة»، قلت «لم تستطيعي، ولم تفعلي»

أوه، ومَنْ منّا العاطفيّ الآن؟

ثم بدا أنَّ المقدرة على نكران الذات المُفعَم بالألم بالإضافة إلى موهبة الانغماس في الملذات هما ما جعلَ جاذبيَّتها لا تُقاوَم. وكون علاقتنا لم تنجح بصورة تامة، وكوني لم أكنْ قط *واثقاً*، وكونها تفتقر بصورة ما إلى العمق، وتتَّصِف بتفاهة هائلة، حسن، إنَّ هذا كلّه ليس هامّاً - أليس كذلك؟ - بالإضافة إلى الاحترام الذي حملتُه لهذه البطلة الروائيّة الشابة الجميلة والدراميّة، التي جازفتْ وفازت وخسرت الكثير حتى الآن، وواجهت الشهوة. ومن ثم هناك الجمال نفسه. ألم تكن المخلوق الوحيد الأكثر جاذبيّة الذي التقيته في حياتي؟ فمع امرأةٍ آسرة جسديّاً، امرأة لا أستطيع أنْ أُبعِد عينيّ عنها حتى وهي فقط تشرب قهوتها أو تتصل هاتفيّاً برجلٍ أقلّ حركة تصدر عنه لها تأثيرٌ حسّيّ قويّ عليّ، لستُ في حاجةٍ البتّة إلى القلق من جديد بشأن غواية المُخيّلة لي لتجديد خوض المغامرات في الخسيس والمُحيِّر. أليستْ هيلين الساحرة هي التي كنتُ قد بدأتُ أفتش عنها في الجامعة، عندما حفّزتني شَفَة والش الحريريّة السُفلى على ملاحقتها من كافيتيريا الجامعة إلى الصالة الرياضيّة هناك ومنها إلى غرفة الغسيل في المهجع - تلك المخلوقة التي وجدتُها *فائقة* الجمال إلى درجة أنّه كان في استطاعتي أنْ أركّز عليها، عليها فقط، اشتياقي كلّه، وهيامي كلّه، وفضولي كلّه، وشبقي كلّه؟ إذا لم تكن هيلين، فمَنْ غيرها؟ مَنْ غيرها سوف يأسرني أكثر؟ ثم، للأسف، ما زلتُ في حاجة ماسّة إلى الافتتان.

فقط إذا تزوجنا... ألنْ يزول ببساطة الجانب المُشاكس من العلاقة من تلقاء ذاته، وتذوب الصِلة الحميمة التي تتعمَّق باطّراد، وضمان الاستمراريّة، وما تبقّى من دافع، عند كلا الطَرَفين، وتتحوّل إلى اعتداد بالنفس ودفاع عن النفس؟ وطبعاً لنْ يكون في الأمر مُقامرة إذا كانت هيلين أقرب شَبَهاً بهذا وأقلّ شَبَهاً بذاك؛ ولكن سرعان ما أُذكّر نفسي - متخيّلاً أنني أتّخذ موقفاً *ناضجاً* - بأنَّه ليس هكذا يهِب كلُّ منا الآخر هذا الجانب من الأحلام في هذا العالم. ثم إنَّ ما أُسمّيه «تفاهتها» و«افتقارها إلى العمق» هو ما يجعلها مُثيرة للاهتمام الشديد! وهكذا، يمكنني فقط أنْ آمل في أنْ يتَّضِح أنَّ مجرد الاختلاف «في وجهات النظر» (الذي، أعترفُ في الحال - إنْ كان هذا سيُساعد - بأنني غالباً ما أكون أوّل مَنْ يُشدِّد عليه ويُفَخمه) لا صِلة له بموضوع العلاقة الشهوانيّة التي كانت قد بقيتْ، حتى ذلك الحين، صامدة على الرغم من حواراتنا الحادّة، التي تكاد تكون إنجيليّة. ولا يسعني إلّا أنْ آمل في أنّه كما أنني أخطأتُ من قبل بشأن دوافعها، أخطأتُ من جديد عندما شككتُ في أنَّ ما كانت تأمل سرّاً في كسبه من الزواج هو نهاية علاقتها الغراميّة مع شبيه كارانين في هونغ كونغ. إنني فقط آمل في أنْ أكون أنا في الواقع الذي ستتزوج منه وليس الحاجز الذي قد أُمثّله في وجه الماضي الذي أوشك فقدانه أن يقتلها. ولا يسعني إلّا أنْ آمل (لأنه لا يمكنني أبداً أنْ أعلم عِلم اليقين) في أنْ أكون أنا الذي ستضاجعه، وليس ذكريات الفم والأيدي وعضو أشدّ العشّاق مثاليّة، الذي سيغتال زوجته لكي يتزوج من عشيقته.

وسط الشكّ والأمل، والرغبة والخوف (وتوقّع أشدّ أنواع الكائنات الحيّة ظرفاً في لحظة، وأسوأها في اللحظة التالية)، تزوجت من هيلين بيرد - أي، بعد حوالي ثلاث سنوات كاملة من التكريس والشك - والأمل - والرغبة - والخوف. إنَّ بعض الرجال، على غرار والدي، يكفي أنْ يرى امرأة واقفة فوق آلة بيانو تغنّي «أمابولا» حتى يُقرِّر في الحال، «ها هي - ها هي زوجتي»، وهناك آخرون يتنهّدون، «نعم، هذه هي» بعد فترة دراما مُطوّلة من التذبذب قادتهم إلى النتيجة التي لا مفرّ منها وهي أنه لا ينبغي أنْ يروا تلك المرأة من جديد. لقد تزوجتُ هيلين عندما تبيَّن أنَّ ثقل التجربة المطلوبة من أجل التوصّل إلى اتّخاذ القرار الهائل بالتخلّي عنها إلى الأبد هائل ومؤثّر إلى

درجة أنني لا أستطيع أنْ أتخيّل الحياة من دونها. ولم أكتشف مدى عمق تورّطي في الزواج بعد مرور وقت طويل من التردُّد، وبعد كل تقييم دقيق للاحتمالات التي جعلت من علاقةٍ عاطفيّةٍ دامت فترة ثلاث سنوات تبدو كثيفة بحدثٍ إنسانيّ كالزواج قبل نصف قرنٍ من الزمان، إلّا عندما **تيقّنتُ** في نهاية المطاف من أنَّ ***هذه العلاقة يجب أنْ تنتهي***. إذن تزوجتُ من هيلين - وهي تزوّجتْ مني - في لحظةٍ من التأزُّم والاستنزاف التي يجب أنْ يمرّ بها في نهاية المطاف كل الذين أمضوا سنين عديدة وسط تلك الترتيبات المُعقّدة والمتميِّزة بوضوح التي تتضمَّن شقّتين منفصلتين وفترات عطل مُشتركة، وادّعادات الإخلاص وليالي مُعيَّنة منفصلة، وعلاقات عاطفيّة تنتهي بارتياح بعد كل خمسة أشهر أو ستة، نُسيَتْ بسعادة على مدى اثنتين وسبعين ساعة، ومن ثم استُؤنِفتْ، غالباً بنشوة جنسيّة لذيذة، هائجة، إثر لقاء شبه تصادفيّ في السوق العامة المحليّة، أو استؤنِفَت من جديد بعد مُكالمة هاتفيّة كان الهدف الوحيد منها تقييم المُشاهدة المتراخية لفيلمٍ وثائقيّ جدير بالاهتمام سيُعاد عرضه على شاشة التلفزيون عند الساعة العاشرة، أو إثر حضور حفل عشاء التزم الثنائيّ بحضوره على مدى فترة طويلة ومن غير اللائق الامتناع عنه، وقاما معاً بتلبية هذا الالتزام الاجتماعي الأخير المُشترَك. ولا شك في أنّه كان يمكن لكلٍ منهما أنْ يُلبّي الالتزام بحضور الحفل وحده، ولكن عندما يكون وحده لن يوجد شريك يجلس معه على الطاولة ويُبادله إشارات الإحساس بالضجر والتسلية، ومن ثم في طريق عودته بالسيارة إلى المنزل لن يُرافقه أحد يسترجع معه محاسن ومساوئ الضيوف الآخرين؛ وعندما يخلع ملابسه استعداداً للإيواء إلى السرير لن تكون هناك صديقة مُشتاقة، ومبتسمة تتمدد بكامل ملابسها على غطاء السرير والتي يقرّ لها بأنَّ الشخص الوحيد الفاتن حقاً الذي جلس على الطاولة تصّادفَ أنْ كان رفيقته السابقة الغائبة التي لم يُعطِها حقّها.

تزوّجنا، واستمرّ النقد وخيبة الأمل المتبادلان في تسميم حياتنا، كما كان ينبغي أنْ أعلم ولم يكن من الممكن أنْ أعلم وربما كنتُ أعرفه دائماً، وهذا دليل ليس على الشرخ العميق الذي كان يفصل بين مزاجينا منذ البداية فقط، بل كان دليلاً على الإحساس الذي استمرّ ينتابني بأنّه ما زال هناك رجلٌ آخر

يسيطر على أعمق مشاعرها، وأنّها تعلم بقدر عِلمي، مهما حاولتْ أنْ تُخفي هذه الحقيقة المُحزِنة وتلتزم بي وبحياتنا، أنها زوجتي فقط لأنه ليست هناك طريق لا تؤدي إلى ارتكاب جريمة قتل (أو هكذا يُقال) لكي تُصبح زوجةً لعشيقها الشهير وذي السُمعة الواسعة. وفي أفضل أحوالنا، وأشدّها شجاعة وعقلانيّة وإخلاصاً؛ بذلنا أقصى جهدنا لنكره ما فرَّقَ بيننا بدل أنْ يكره أحدنا الآخر. ليتَ ماضيها لم يكن فائق الحيويّة، والفخامة، والعظمة - ليت كان في استطاعة أحدنا أنْ ينسى ذلك! ليت كان في استطاعتي أنْ أردم ثغرة الثقة السخيفة هذه التي ما زالت تفصل بيننا! أنْ أتجاهلها! أو *أتجاوزها*! كنّا في أفضل الأحوال نتّخذ قرارات جازمة، كنا نعتذر، نُجري تحسينات، ونمارس الجنس. أما أسوأ أحوالنا... في الواقع لم يكن أسوأها أشدّ سوءاً من أحوال أي شخص آخر، في اعتقادي.

ما الذي كنا نتنازع حوله؟ في البدء - كما يمكن لأي شخص أنْ يُخمِّن مَنْ منّا، بعد مضيّ ثلاثة أعوام من المُماطلة، اندفعَ مباشرة وهو شبه مُقتنِع نحو لهب الزواج - في البدء تنازعنا بشأن الخبز المُحمَّص. أتساءل، لِمَ لا يُمكن إحضار الخبز المُحمَّص في أثناء إعداد البيض، وليس قبل ذلك؟ بهذه الطريقة يمكن أنْ نأكل الخبز وهو دافئ وليس وهو بارد. تقول «لا أريد أنْ أخوض في هذا النقاش». وفي الختام تصرخ قائلة «إنَّ الحياة ليست خبزاً مُحمَّصاً!».. وأسمع نفسي أردّ، «بل هي كذلك! عندما تجلسين لتأكلي الخبز المُحمَّص، تُصبح الحياة خبزاً مُحمّصاً. وعندما تُخرجين القمامة، تُصبح القمامة هي الحياة. لا يمكنكِ أنْ تتركي القمامة عند منتصف الدَرَج، يا هيلين. إنَّ مكانها هو الحاوية في الفناء. ويجب أنْ تُغطّى»، «لقد نسيتها»، «كيف تنسينها وأنتِ تحملينها بيدك!»، «ربما، يا عزيزي، لأنها قمامة - ثم ما الفرق على أي حال!». وكانت تنسى أنْ تضع توقيعها على الشيكات التي تكتبها وتنسى أنْ تضع طوابع على الرسائل التي تودعها صندوق البريد، في حين أنَّ الرسائل التي كنتُ أُعطيها لها لكي تودعها البريد بالنيابة عني وعن أهل المنزل كانت تظهر بانتظامٍ دقيق في جيوب معاطف المطر والملابس الفضفاضة بعد أنْ تودعها صندوق البريد بأشهر عديدة. «فيمَ تفكّرين وأنتِ تقطعين المسافة من هنا إلى هناك؟ ما الذي يجعلك تنسين، يا هيلين؟ أهو

الاشتياق إلى ماندالِيه القديمة؟ أم ذكريات «الصندوق» والبحيرات والفيلة، والفجر الذي يبزغ كما الرعد-»، «اللعنة، لا أستطيع أنْ أفكّر في رسائلك طوال الوقت»، «ولكن كيف تتذكرين *أصلاً* أنكِ خرجتِ من المنزل وأنتِ تحملين الرسالة بيدك؟»، «لكي أشمّ بعض الهواء النقي، هذا هو السبب! لكي أشاهد السماء! لكي أستنشق الهواء!»

وبدل أنْ أُبيِّن أخطاءها وسهوها، أو أتعقَّب خطواتها، أو أربط الأمور بعضها ببعض، أو أكبح نفسي (ومن ثم أباشر بصبّ اللعنات عليها من خلف باب الحمّام)، أُحمِّص الخبز، وأعدّ البيض، وأُخرِج القمامة، وأُسدِّد قيم الفواتير، وأضع الرسائل في صندوق البريد. وحتى عندما كانت تقول، بكل كياسة (في محاولةٍ، من *طرفها*، لردم الفجوة الهائلة)، «أنا خارجة لكي أتسوّق، ألا ترغب في أنْ أضع هذه-»، وتقودني التجربة، إذا لم أقُل الحِكمة، إلى قول «كلا - كلا، شكراً». وفي اليوم الذي فقدتْ محفظة نقودها بعد أنْ سحبتْ بعضها من حساب مُدّخراتها، قمتُ بالإجراءات القانونيّة في المصرف. وعندما تركت السمك ليتعفّن تحت مقعد السيارة الأمامي بعد أنْ خرجتْ في الصباح لكي تُحضِر قطع سمك السلمون من أجل العشاء، قمتُ بنفسي بالتسوّق. وفي اليوم الذي أخذت قميص الصوف خطأً لكي تقوم بتنظيفه على الناشِف، تولّيتُ أنا الذهاب إلى مركز التنظيف. ونتيجة لذلك أنّني أصبحتُ قبل انصرام عام أنهمكُ في العمل - وأسعدني ذلك - على مدى حوالي ست عشرة ساعة في اليوم في إعطاء دروس وإعادة كتابة بعض أجزاء من أطروحتي عن الأوهام الرومانسيّة في قصص لأنطون تشيخوف (الموضوع الذي انتقيته حتى قبل أنْ أقابل زوجتي)، وكانت هيلين قد أصبحت تدمن باطراد شرب الخمر وتعاطي المُخدرات.

كانت أيامها تبدأ بماء يفوح بعطر الياسمين. ووضع زيت الزيتون على شَعرها لجعله لامعاً بعد غسله، بالإضافة إلى وضع كريما بأنواع الفيتامينات على وجهها، ثم تتمدد في صباح كل يوم داخل حوض الاستحمام على مدى عشرين دقيقة، وتُغمِضُ عينيها وتُريح جمجمتها الثمينة على وسادة صغيرة منفوخة، ولا تتحركُ تلك المرأة إلّا لكي تدعك برفق بشرة قدميها الخشنة بحجر الخفّاف. وثلاث مرّات في الأسبوع يتبعُ الاستحمامَ تعريض وجهها

لحمّام بُخار: كانت تجلس، برداء الكيمونو الحرير الأزرق، المُطرَّز بنبات الأفيون الأحمر والقرنفليّ والطيور الصفراء التي لا تُشاهَد على اليابسة ولا في البحر، تجلس على طاولة مطبخنا الصغيرة، ورأسها الذي تعلوه عمامة مائل فوق وعاء من الماء الذي ينبعثُ منه البخار وتنثُر عليه أوراق نبات إكليل الجبل والبابونج وأزهار البلسان. وبعد أنْ تتلقّى البخار وتتبرَّج وتُصفِّف شعرها، تُصبح جاهزة لارتداء ملابس تلقّي درس التمارين - أو للذهاب إلى أي مكان في أثناء وجودي في الجامعة: كان ثوبها صينيّ الطِراز ضيّقاً من الحرير ذي اللون الأزرق البحريّ، عالي الياقة ويوجد شقّ عند الفخذ؛ وتضع قرطاً مُرصّعاً بالأحجار الكريمة، وتلبس سواراً من حجر اليشب ومن الذهب، وخاتماً من حجر اليشب، وتنتعل صندلاً، وتحمل حقيبة القشّ.

لدى عودتها في وقتٍ لاحق من النهار - بعد القيام بتمارين اليوغا، تُقرِّر الذهاب إلى سان فرانسيسكو «لكي تُلقي نظرة»: تتحدث (وكانت تتحدث منذ سنين) عن خطط من أجل افتتاح محل بيع قِطع أثريّة من الشرق الأقصى هناك - إنها متحمّسة منذ الآن، ومع حلول موعد العشاء تكون قد امتلأت بهجة: تُصبحُ يانعة، منتشية وساخرة. وتقول «الحياة خبزٌ مُحمَّص»، وهي ترشف مقدار أربعة أصابع من مشروب الرَمْ بينما أقوم بتتبيل قطع لحم الضأن. «الحياة هي بقايا. الحياة هي نِعال من الجلد وأعقاب القدم المطاطيّة. الحياة تنقل التوازُن قُدُماً إلى دفتر شيكات جديد. الحياة تدوِّن المبلغ الصحيح الواجب دفعه مقابل كل أرومة في الشيك. وأيضاً هي الاسم الصحيح لليوم، والشهر، والعام»، أقول «هذا كلّه صحيح»، فتقول، وهي تراقبني أُعدّ المائدة، «آه، ليتَ زوجته لم تنسَ ما وضعت على النار ليسخن ومن ثم تركته يحترق؛ ليتها تذكّرتْ أنّه عندما كان ديفيد يتناول وجبة الغداء في مطعم أركاديا، كانت أمّه دائماً تضع الشوكة على جهة اليسار والملعقة على جهة اليمين ولا تضع بتاتاً كليهما على الجهة نفسها. أوه، ليت كان في استطاعة زوجته أنْ تطبخ البطاطا مع الزبد كما كانت أمّه تفعل في فصل الشتاء»

مع بلوغنا ثلاثينيات عمرينا كانت مشاعر كراهيّة كلّ منّا نحو الآخر قد تفاقمتْ بحيث اختُزِلَ إلى الصِفة التي كان الآخر بارعاً فيها في البداية، صِفة «المُعتدّ بنفسه» و«النيِّق» التي كرهتني هيلين من كل قلبها بسببها - «لقد

نجحتَ حقّاً، يا ديفيد - أنتَ شاب مُحافِظ بكل معنى الكلمة» - وبصورة لا تقلّ وضوحاً عن «خلوّها التام من العقل»، و«إسرافها الأحمق» و«أحلامها المُراهِقة»، إلى آخره. ومع ذلك لم أستطع أنْ أتركها، ولا هي استطاعتْ أنْ تتركني، أي، ليس قبل أنْ تحدث كارثة جليّة تجعل ببساطة من المُضحِك الاستمرار في انتظار وقوع التحول المُعجِز للآخر. ودُهِشنا كما دُهِشَ كل شخص آخر لأننا بقينا متزوجَين مدّة تُعادل تقريباً المدّة التي كنا خلالها عاشقين، ربما بسبب الفرصَة التي أتاحها هذا الزواج لكلٍ منا للانقضاض المباشر على ما اعتبره شيطانه (وبدا في أوّل الأمر أنّه خلاص الآخر!). ومرَّت الأشهر وبقينا معاً، نتساءل إنْ كان إنجاب طفل سوف يعمل نوعاً ما على حل هذه العقدة المُستعصية... أو افتتاح محل لبيع القطع الأثريّة خاص بهيلين... أو محل لبيع المجوهرات... أو عيادة للمعالجة النفسية لكلينا. وبقينا نسمع باستمرار مَنْ يصِفنا بأننا زوجان «جذّابان» بصورة مُذهلة: أنيقان، نسافر كثيراً، ذكّيان، خبيران في الحياة (خاصّة بوصفنا شابين أكاديميين)، مع دخلٍ سنويّ مُشترك يبلغ اثني عشر ألف دولار... والحياة فظيعة بكل بساطة.

لم تكن الروح القليلة المكبوتة داخلي خلال الأشهر الأخيرة من الزواج تظهر إلّا في قاعة المُحاضرات؛ وفيما عدا ذلك، كنتُ شديد التكلُّف والانطواء على ذاتي إلى درجة أنَّ إشاعة سرَتْ بين أفراد كليّة المُستجدّين قالتْ إنني «تحت تأثير عقّار مُسكِّن». ومنذ أنْ تمّت الموافقة على أطروحتي وأنا ألقي مُحاضراتي حولها، بالإضافة إلى مُقرَّر السنة الأولى «مُقدّمة في أدب النثر»، وجزأين من كتاب نظرة عامة في الأدب «العامّ» في سنة التخرّج. وخلال الأسابيع التي سبقتْ مباشرة ختام الفصل الدراسي عندما كنا ندرس قصص أنطون تشيخوف، اكتشفتُ، في أثناء قراءة بصوتٍ مرتفع على مسمع طلابي مقاطع انتقيتُها خصيصاً لكي يُدوّنوا حولها مُلاحظات، أنّه يبدو أنّ كل جُملة تُلمّح قبل أيّ شيء إلى مشكلتي، كأنَّ كل مقطع لفظي أفكِّر فيه الآن وأنطقه يجب أولاً أنْ يعبُر من خلال مشاكلي. ثم كانت هناك أحلام اليقظة في أثناء إلقاء مُحاضراتي، التي أضحتْ كثيرة بقدر ما كان من المُستحيل كبحها، ومن الواضح أنها كانت مُستلهمة من الاشتياق إلى حدوث خلاص

مُعجِز - من الولوج من جديد إلى حيوات فقدتُها منذ زمن بعيد، من التجسُّد في كيان يختلفُ كل الاختلاف عنّي - بحيث كنتُ ممتنّاً بصورةٍ ما لأنني يائس وأفتقر إلى أدنى قدر من الإرادة لتنفيذ أي وهم ضئيل.

«إنني أدركُ أنّه عندما يعشق المرء فينبغي، حسب فكرته عن الحب، إمّا أنْ يبدأ بما هو أرقى، وأشدّ أهميّة من السعادة أو التعاسة، أو من الإثم أو من الفضيلة بمعناها المعتاد، أو ينبغي ألّا يُفكِّر في الأمر أصلاً». وأسأل طلابي عن معنى هذا الكلام، وبينما كانوا يُدلون بإجابتهم، لاحظتُ في ركنٍ قصيّ من الغرفة وجود الفتاة المُتّزنة، صاحبة الصوت الناعم التي أعتبرها من أشد الطلاب ذكاءً، وجمالاً - وأشدّهم ضجراً وغطرسة - تأكل قطعة من الحلوى وتشرب كوكاكولا على سبيل الغداء. قلتُ لها بصوت خافت، «أوه، لا تأكلي طعاماً غير صحّي»، وتراءى لي أننا نحن الاثنين نقفُ على مصطبة فندق غريتّي، نُمعن النظر من خلال الضوء الخفّاق عبر القنال العظيم إلى الواجهة المُقابلة من الساحة الصغيرة المثاليّة حيث حجزنا غرفة بنوافذ ذات مصاريع... وأننا نتناول وجبة الغداء، معكرونة مع الكريما بالإضافة إلى قطع طريّة من لحم العجل مع الليمون... وعلى الطاولة نفسها حيثُ جلسنا أنا وبيرغيتا، الشابين الصغيرَين المتغطرسَين، الوقحين، اللذين لا يزيدان في العمر عن هؤلاء الفتية والفتيات، لكي نتناول الطعام بعد ظهيرة اليوم الذي ساهمنا فيه بمُعظم ثروتنا من أجل الاحتفال بوصولنا إلى إيطاليا كما شاهدها بايرون...

في تلك الأثناء، كان طالب لامع آخر يشرح ما يعنيه مالك الأرض ألوهين في ختام كتابه «عن الحب» عندما تحدَّثَ عن «ما هو أرفع... من السعادة أو التعاسة، من الرذيلة أو الفضيلة بمعناها المعتاد». قال الفتى «إنّه يندم لأنّه لم يستسلم لمشاعره ويهرب مع المرأة التي وقع صريع حبّها. والآن بعد أنْ هربتْ، أصبحَ بائساً لأنّه سمح للضمير وللوساوس، ولجبنه الخاصّ، بأنْ تمنعه من البوح بحبّه لها لمجرّد أنّها متزوجة أصلاً وأم». أومأتُ برأسي موافقاً، ولكنْ من دون أنْ أفهم، وبدا الفزع على الفتى البارع. وسأل، وقد اصطبغ وجهه باللون القرمزيّ، «أأنا مُخطئ؟». قلت «كلا، **كلا**»، لكنني طوال الوقت كنتُ أقول لنفسي، «ما هذا الذي تفعلين، يا آنسة، تتناولين

الحلوى بدل العشاء؟ كان ينبغي أنْ نرشف النبيذ الأبيض...»، ثم تبيّنَ لي أنَّ هيلين، المُقبلة على التخرّج من جامعة جنوب كاليفورنيا، تبدو أقرب شَبَهاً بطالبتي الضجرة الآنسة رودجرز خلال الأشهر التي سبقت قيام ذلك العجوز – رجل في مثل عمري! – بانتزاعها من غرفة الدرس ونقلها إلى حياة من المغامرة الرومانسيّة...

في وقتٍ لاحق من تلك الساعة، رفعتُ بصري عن القراءة بصوتٍ مرتفع قصة «السيدة صاحبة الكلب» ونظرتُ مباشرة إلى التحديق البريء والنقي لتلك الفتاة اليهوديّة الممتلئة، الرصينة، ذات القلب الرقيق القادمة من بيفرلي هيلز التي تجلس في الصفّ الأماميّ وكانت طوال العام تدوِّن كل ما أقول. وقرأتُ على مسمع طلاب الصف الفِقرة الختاميّة، التي يُحاول فيها الزانيان، اللذان بذلا جهداً مُضنياً ليكتشفا مدى عمق حب كل منهما للآخر، عبثاً «أنْ يفهما لماذا يجب أنْ يحصل هو على زوجة وينبغي عليها هي أنْ تحصل على زوج». «وبدا لهما أنّه في غضون بضع دقائق أخرى فقط سوف يتم إيجاد حلّ وسوف تبدأ حياةٌ جديدة، جميلة؛ لكنَّهما كليهما كانا يعلمان عِلم اليقين أنَّ النهاية ما زالت بعيدة جداً وأنَّ الجزء الأشدّ تعقيداً وصعوبة قد بدأ توّاً». وأسمع نفسي أتكلَّم عن الشفافيّة المؤثِّرة للخاتمة – بلا ألغاز زائفة، بل فقط تقرير حقائق قاسية بشكلٍ مُباشَر. وتحدثتُ عن مقدرة تشيخوف على دمج مساحة من التاريخ الإنسانيّ في خمس عشرة صفحة، وكيف يُفسِحُ السخيفُ والساخرُ الطريقَ، حتى ضمن مساحة صغيرة جداً، للحزن وللشفقة، للإحساس بلحظة الخيبة ولتلك العمليات التي يبدو بها أنَّ الواقع يقفز حتى على أشدّ أوهامنا براءة، ناهيك عن الأحلام الفخمة حول الإنجاز والمغامرة. وأتحدّث عن التشاؤم حول ما يُسمّيه «تلك السعادة الشخصيّة»، وطوال الوقت كنتُ أرغبُ في أنْ أسأل الفتاة الممتلئة الجالسة في الصف الأمامي، التي كانت تقوم بسرعة بتدوين كلماتي في دفترها، إنْ كانت ترغب في أنْ تُصبح ابنتي. أردتُ أنْ أعتني بها وأضمن شعورها بالأمان وبالسعادة. أردتُ أنْ أُسدِّد ثمن ملابسها وفواتير طبيبها وأردتُ أنْ أضمّها بين ذراعيّ عندما تشعر بالوحدة وبالحزن. ليتنا أنا وهيلين ربّيناها لكي تُصبح شديدة العذوبة! ولكن كيف نستطيع نحن الاثنين أنْ نُربّي أيّ شيء؟

وفي وقتٍ لاحق من ذلك النهار، عندما قابلتها مُصادفة وهي تتقدم نحوي في حرم الجامعة. شعرتُ من جديد بدافعٍ إلى أنْ أقول لشخصٍ ربما لا يصغرني بالعمر بأكثر من عشرة أعوام أو أحد عشر عاماً إنني أرغبُ في تبنّيها، وأريد منها أنْ تنسى والديها، اللذين لا أعلم عنهما أيّ شيء وأنْ تسمح لي بالاعتناء بها وحمايتها كأبّ. قالت، مع انحناء قصير من رأسها، ومن الواضح أنَّ ذلك الإيماء الرقيق أحدثَ تأثيره، «مرحباً، سيد كيبيش». وشعرتُ كأنني أُصبح أخفّ وزناً أكثر فأكثر، وشعرت بانفعال يقتربُ مني وبأنّه سوف ينتقيني ويتفحّصني ولا أعلم أين سيضعني. هل سأُصاب بانهيارٍ عصبيّ هنا على الممشى أمام المكتبة؟ وأمسكت بإحدى يديها بيدي - وقلتُ، على الرغم من اختناقي بفيض المشاعر، «أنتِ فتاة طيّبة، يا كاثي»، فأطرقَتْ رأسها، واحمرّ جبينها. كرّرتُ القول «أنت فتاة طيبة»، وأفلتُّ اليدَ اللينة التي كنتُ أُمسكُ بها وذهبتُ إلى المنزل لأرى إنْ كانت هيلين التي لم تُنجِب أطفالاً صاحية من السُكر بما يكفي لتُعدّ عشاءً لشخصَين.

في تلك الفترة من الزمن زارنا صاحب مصرف استثمار إنكليزي اسمه دونالد غارلند، وكان أول أصدقاء هيلين في هونغ كونغ دعوناه على العشاء معنا في شقّتنا. وفي الحقيقة كانت بين حين وآخر تتجمّل بصورة استثنائيّة لكي تذهب إلى سان فرانسيسكو وتتناول وجبة غداء مع شخصيّة بارزة من الفردوس المفقود، ولكن لم يكن قد حدث قبل ذلك أنْ رأيتها تُعدّ لمثل ذلك اللقاء وهي سعيدة هكذا، وفي حالة طفوليّة من الترقُّب. في الحقيقة، في الماضي كانت أحياناً، بعد قضاء ساعات في الاستعداد لتلبية موعد غداء، تخرج من الحمّام وهي تضع أفضل رداء عندها وتُعلن أنّها لا تستطيع أنْ تُغادر المنزل لمُقابلة أي شخص. «أبدو شنيعة»، «هذا غير صحيح البتّة»، «بل أنا كذلك»، ثم تعود إلى السرير وتبقى هناك طوال النهار.

الآن تقول إنَّ دونالد غارلند هو أشد مَنْ عرِفَتْ من الرجال «كياسة». «كنتُ قد دُعيتُ إلى تناول وجبة الغداء في منزله في الأسبوع الأول من وجودي في هونغ كونغ، ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقَين حميمين. أصبح كل منا مولعاً بالآخر. كان منتصف المائدة تتوّجه أزهار الأوركيديا التي قطفها من حديقة منزله - على شرفي، كما قال - وكان الفناء المرصوف الذي

تناولنا الطعام فيه يطلّ على هلال مرفأ ريبلس. كنتُ حينئذ في الثامنة عشرة. وكان هو في حوالي الخامسة والخمسين. يا إلهي. ربما أصبح دونالد الآن في السبعين! لم أكن لأصدِّق أنّه تجاوز الأربعين. كان دائماً سعيداً، وممتلئاً بالشباب، ويتحمّس لكل شيء. وكان يعيش مع أشد الفتية الأميركيين طيبة وسهولة في المعشر. كان تشيبس حينئذٍ في حوالي السادسة أو السابعة والعشرين. وقد نقل دونالد إليّ اليوم عبر الهاتف نبأً مُريعاً – ففي صباح أحد الأيام قبل شهرين مات تشيبس متأثّراً بتمدُّد الأوعية الدمويّة وهو على مائدة الإفطار، انكفأ على وجهه بكل بساطة. وأعاد دونالد الجثّة إلى ويلْمينغتون، في ديلاوير، ودفنها هناك، ومن ثم لم يستطع أنْ يُغادر المكان. كان يحجز أماكن في الطائرة ومن ثم يُلغيها. والآن، في نهاية المطاف، هو في طريق عودته إلى أرض الوطن»

تشيبس، دونالد، إدغار، براين، كواين... ليس لديّ أيّ ردَّة فعل أُبديها، أو استفسارات أو استجواب، أو أي شيء يشبه ولو قليلاً التعاطُف، أو الفضول أو الاهتمام. أو الصبر. وكنتُ قبل وقت طويل قد سمعتُ كل ما أستطيع تحمّله بشأن أفعال حلقة أثرياء هونغ كونغ من المثليين جنسيّاً الإنكليز الذين «يعبدونها». ولم أُظهِر إلّا نوعاً فظاً من الدهشة واكتشفتُ أنني أشكّل جزءاً من ذلك التآلف الخاصّ جداً. وأغمضتْ عينيها بإحكام، كأنَّ عليها أنْ تمحوني مؤقّتاً عن مجال رؤيتها فقط لكي تبقى على قيد الحياة. «لا تكلّمني بهذا الأسلوب. لا تتكلَّم بهذه النبرة الفظيعة. لقد كان أعزّ أصدقائي، وأنقذ حياتي مائة مرَّة». ***ولِمَ جازفتِ مائة مرّة؟*** لكنَّني نجحتُ في إسكات الاتّهام المُصاغ على شكل استجواب، ونبرة الصوت الفظيعة التي تماشَتْ معها، أصبح في وسعي حتى أنا أنْ أعرف أنني سُحِقتُ أكثر بكثير بفعل غضبي من كل ما تفعل وفعلَتْ من تأثير أساليبها التي كان ينبغي أنْ أتعلَّم كيف أتجاهلها، أو أنْ أقبلها بكياسة قبل وقتٍ طويل، طويل... ومع انصرام المساء، أصبح غارلند ينغمس باطّراد في ذكرياته، بدأتُ أتساءل إنْ كانت قد دعته إلى الشقّة أملاً في أنْ أعلم أولاً كيف أنّها سقطَتْ بعيداً جداً عن القمّة بربط مصيرها بجنون بمصير ذلك المُحافِظ. وسواء أكانت هذه هي نيَّتها أم لا، فإنها تشبه النتيجة. وأنا في صحبتهما لا أكون تشيبس الطيب والودود، بل

أُشبه شَبَهاً تاماً أستاذ مدرسة من العصر الفيكتوريّ لا ينتعش قلبه إلّا لفرقعة السوط وحفيف العصا. وفي مُحاولة عقيمة لانتزاع هذا الورع المتزمت الحقير، والعيّاب الورع البغيض، من تفكيري، حاولتُ أنْ أعتقد أنَّ هيلين تعمل ببساطة على أنْ تبيِّن لهذا الرجل الذي كانت تُقدِّره كل التقدير وعاملها بكياسة شديدة، وعانى من تلقّيه ضربة قويّة، أنَّ كل شيء على ما يُرام في حياتها، وأنَّها وزوجها يعيشان معاً بارتياح وحب، وأنّه لا داعي لحاميها أنْ يقلق بشأنها بعد الآن. نعم، إنَّ هيلين تتصرَّف كما تفعل أيّة ابنة متفانية تتمنّى أنْ توفِّر على والدها المُحبّ سماع الحقيقة القاسية... باختصار: بقَدَر ما قد يبدو تفسير وجود غارلند لشخصٍ آخر شديد البساطة، فإنه بدا بعيداً كلَّ البُعد عن إدراكي، وكأنَّما بينما لم يعُد العيش مع هيلين الآن له أي معنى، لا أستطيع أنْ أكتشف حقيقة أيّ شيء.

كان غارلند، وهو في السبعين من العُمر، وهشّ، وضئيل البنية، ما يزال يتمتَّع بنوع مُفعم بروح الشباب من السِحر، ويكتنفه جو من الخبرة في الحياة والصِبيانيّة في وقتٍ واحد. كان جبينه شديد الهشاشة كأنما يمكن كسره بالربت عليه بالملعقة، ووجنتاه صغيرتين، ومُستديرتين، ولامعتين، جديرتين بإله حب مصنوع من المرمر. وفوق القميص المفتوح كان يعقد ربطة عنق من الحرير حول عنقه، تكاد تُخفي بالكامل نحره الذي كانت تجاعيده هي الشيء الوحيد الذي ينمّ عن عمره. وفي ذلك الوجه الشابّ بصورة غريبة كان الشيء الوحيد الذي يشي بالحزن هو عينيه، الرقيقتين، البنّيتين، اللتين يغمرهما الإحساس حتى عندما ترفض لكنته الرشيقة أنْ تكشف عن أوهى لمسة من حزن.

«لقد قُتِلَ المسكين ديريك، في الواقع». لم تكن هيلين تعلم. ووضعتْ يدها على فمها. قالتْ، وهي تستدير نحوي، «ولكن **كيف**؟ لقد كان ديريك يعمل مُساعداً في شركة دونالد. أحياناً كان يتصرّف بحمق، وكان مُشوّشاً جداً وما إلى ذلك، لكنَّه صاحب قلبٍ طيّب، حقّاً-» وبسرعة أعادها تعبير وجهي الجامد إلى غارلند. قال «نعم، كان رجلاً طيباً جداً، وكنتُ مُخلصاً له. أوه، كان بارعاً في الحديث وأشياء أخرى، ولكن كان لابد من إخباره، «ديريك، يكفي هذا الآن»، وسكتَ. حسن، لقد اعتبرَ شابان صينيّان أنّه لم يُعطهما ما

يكفي من النقود، فدفعاه إلى أسفل الدَرَج. وانكسر عنق ديريك». «ما أفظع هذا. ما أشدّ بشاعته. يا له من رجلٍ مسكين، مسكين»، وسألتْ هيلين «وماذا حدث لحيواناته كلها؟»، «العصافير نَفَقَتْ. أصابها فيروس أطاح بها خلال الأسبوع الذي تلا مقتله. أما ما تبقّى منها فتبنّتها مادج. مادج تبنّتها وباتريسيا اعتنتْ بها. ولولا ذلك، لما حصل التعارف بينهما». «من جديد؟»، «أوه، نعم. في استطاعة مادج أنْ تكون بنت حرام طيبة، عندما ترغب في ذلك. وقبل مُضيّ عام قام تشيبس بتجديد منزلها، وكادتْ تجرف الفتى المسكين نحو حافّة الجنون بشأن حمّامها الذي في الطابق العِلويّ». حاولتْ هيلين من جديد أنْ تُعيدني إلى عالم الأحياء، وشرحتْ قائلة إنَّ مادج وباتريسيا، اللتين تمتلكان منازل على طول المرفأ من دونالد، كانتا نجمتين في السينما البريطانيّة في حقبة الأربعينيات. وأخذ دونالد يسرد أسماء الأفلام السينمائيّة التي اشتركتا فيها. كنتُ أهزّ رأسي إيجاباً باستمرار، كأي شخص مُهذَّب، لكنَّ الابتسامة التي حاولتُ أنْ أرسمها له لم تنجح. ما نجح كانت النظرة التي وجّهتْها هيلين إليّ، وبفعاليّة تامة. سألته هيلين «وكيف يبدو شكل مادج؟»، قلتُ «حسن، عندما تضع المساحيق، تبقى رائعة الشكل. طبعاً، لا ينبغي أنْ ترتدي ثوب السباحة المؤلَّف من قطعتين، لماذا؟»، ولكنْ كأنَّ أحداً لم يسمعني. وانتهت الأمسية التي أمضيناها مع غارلند الذي كان عندئذٍ قد أضحى ثملاً قليلاً، وأمسك بيد هيلين وحكى لي عن حفلة تنكّريّة شهيرة أُقيمَتْ داخل فُسحة في غابة على جزيرةٍ صغيرة في خليج سيام يمتلكها أحد أصدقائه التايلانديين، وتقع على مسافة نصف ميل من جنوب أرض تايلاند الشبيهة بالإصبع. كان تشيبس الذي صمَّمَ ثوب هيلين، ألبسها ثوباً أبيض، فأصبحت أشبه بالأمير إيغور في باليه «*عصفور النار*»[1]. وكانت مُذهلة. بقميص القوزاق الحرير وبنطلون من الحرير تجمَّعَ بأكمله داخل حذاء ليِّن فضيّ ذي رقبة طويلة خاص بالأطفال، وتعتمر عمامة فضيّة اللون مع مشبك من الأحجار الكريمة. وتُحيط خصرها بحزام مُرصَّع بحجارة الزمرّد. «زمرّد؟ مَن الذي اشتراه؟ كرانين طبعاً. وأين الحزام الآن يا تُرى؟ ما الذي تضطرين إلى إعادته وما الذي سوف تحتفظين به؟ لا شك في أنكِ سوف تحتفظين

1- للموسيقار الروسيّ إيغور سترافينسكي.

بالذكريات، هذا مؤكَّد». انفجرتْ أميرة تايلانديّة صغيرة باكية حالما رأتها. يا للمسكينة الصغيرة. لقد جاءتْ وهي ترتدي كل شيء ما عدا مدفأة المطبخ وتوقّعت من الناس أنْ ينتشوا من فرط الإعجاب بها. أما التي بدتْ كأنها من العائلة المالكة في تلك الليلة فكانت هذه الفتاة العزيزة. أوه، كم أثار ذلك من لغط. ألم تعرض هيلين عليك الصور الفوتوغرافيّة؟ أليس في حوزتك صور فوتوغرافيّة، يا عزيزتي؟»، أجابتْ «كلا، لم يعُد لديّ صور»، قال، بعد أنْ رشَفَ رشفة طويلة من كأس البراندي، «أوه، ليتني أحضرتُ صوري. ولكنْ لم يخطر في بالي أنني سأقابلك - بل إنني لم أكن أعرفُ مَنْ أكون عندما غادرتُ المنزل. أتعرف الصِبية الصِغار؟ كان تشيبس يدفع كل الصِبية الصِغار المحليين إلى التجرّد من ملابسهم لا تستر عورتهم غير قشرة ثمرة جوز الهند، وتتدلّى من أعناقهم زينة عيد الميلاد. كم كان منظرها غريباً عندما تهبّ الريح! ورسَا القارب، وكان هناك ثلاثة من الشبّان الصِغار لتحيّة الضيوف ولقيادتهم على طول درب تحفّ به مصابيح يؤدي إلى فُسحة مكشوفة أقمنا فيها الوليمة. أوه، يا إلهي، نعم - جاءتْ مادج بالثوب الذي ارتداه ديريك بمناسبة حفلة عيد مولده الأربعين. ولو كان في استطاعتها لما أنفقتْ مالاً. كانت دائماً تغضب بشأن شيء ما، ولكن في الغالب يكون السبب هو المال الذي يسرقه الجميع منها. قالتْ «لا يمكنكَ أنْ تذهب ببساطة إلى أحد تلك الأماكن، يجب أنْ ترتدي ثوباً رائعاً»». فقلتُ لها، فقط من باب المُزاح، طبعاً، «لِمَ لا ترتدين ثوب ديريك؟ إنه من الشيفون المُرصَّع بالأحجار الكريمة وله ذيل طويل. وهو قصير جداً من الخلف. وسوف تبدين جميلة وأنت ترتدينه، يا عزيزتي». وقالتْ مادج «كيف يمكن أنْ يكون شديد القِصَر من الخلف، يا دونالد؟ كيف بحقّ الله استطاع ديريك أنْ يرتديه؟ وماذا عن الشعر المنهمر على ظهره، وكل ذلك الشيء المُقرِف؟»»، فقلت «أوه، عزيزتي، إنّه لا يقصّ شعره إلّا مرَّة كل ثلاث سنوات». وقال غارلند لي، «في الواقع، لقد كان ديريك من نمط ضابط الحرس القديم - نحيلاً، أنيقاً، وذا بشرة ورديّة زاهية، وفي العموم، كان مُجرّداً من الشَعر بصورة غريبة. أوه، هناك صورة لهيلين يجب أنْ تراها، يا ديفيد. يجب أنْ أرسلها إليك. تبيِّن هيلين يقودها أولئك الفتية الصِغار المحليون الفاتنون من القارب

تتدلّى منهم زينة عيد الميلاد. كم بدتْ مبهِرة بساقيها الطويلتين وهي ترفل بكل ذلك الحرير. ثم هناك وجهها - وجهها في تلك الصورة الفوتوغرافيّة بدا كلاسيكيّاً. يجب أنْ أرسلها إليك، يجب أنْ تحصل عليها. كانت مُبهِرة. وقد قالت باتريسيا عن هيلين، حالما وقع بصرها عليها، - حدث ذلك على مائدة الغداء في المنزل، والفتاة العزيزة لا تزال ترتدي الملابس الصغيرة الاعتياديّة جداً - لكنَّ باتريسيا قالتْ حينئذٍ إنها تتمتَّع بمواصفات النجمة، قالتْ إنها من دون أدنى شك يمكن أنْ تُصبح نجمة سينمائيّة. وكان ذلك في مقدورها. ولا زال ذلك مُتاحاً لها. وسوف تبقى كذلك دائماً»، أجاب أستاذ المدرسة، وهو يُلوّح بعصاه بحركة صامتة، «أعلمُ هذا»

بعد أنْ غادر، قالت هيلين، «حسن، لا داعي إلى أنْ أسألك عن رأيك فيه، هل هناك داعٍ؟»، «كأنك تقولين: إنّه يعبدك»، «حقاً، وهذا ما أمدَّكَ بالقوة للحكم على انفعالات الآخرين؟ ألم تسمع؟ إنّه عالم لا متناه، وهناك مجال لكل شخص لكي يفعل ما يشاء. حتى أنتَ فعلتَ ذات مرَّة ما شئتَ. أو هذا ما يُقال»، «إنني لا أحكمُ على أي شيء. لن تُصدّقي ما أحكمُ عليه»، «بل أعرف، إنّه نفسك. إنَّ أصعب حكم هو على الذات. لقد نسيتُ ذلك برهة»، «لقد جلستُ، يا هيلين، وأصغيتُ ولا أتذكَّر أنني قلتُ أي شيء عن الانفعالات أو عن الخيارات أو عن الأجزاء الخاصة من الجسد من هنا وحتى بلاد النيبال»، «لعلَّ دونالد غارلند هو ألطف رجل حيّ»، «لا اعتراض لي على هذا»، «عندما احتجتُ إلى مَنْ يُساندني هرع إلى مُساندتي. أحياناً كنتُ أُقيمُ في منزله. وقام بحمايتي من بعض الأشخاص الأشرار». ***لِمَ لمْ تحمي نفسك بمُحاولة الابتعاد عنهم؟*** وقلت، «عظيم، لقد كنتِ محظوظة وهذا شيء عظيم»، «إنّه يُحبّ الثرثرة وحكاية الحكايات، وطبعاً في هذه الليلة كان ثملاً قليلاً - انظر كم عانى. ولكنّه يعرف معدن البشر، وكيف يحصلون على الكثير من المال مقابل القليل من العمل - وهو مُخلِص لأصدقائه، حتى للحمقى منهم. وولاء هذا النوع من الرجال رائع جداً، ولا يمكن لأحد أنْ يحطّ من قدرهم. ولا تسمح لأحد بتضليلك. وعندما يكون على سجيّته يُصبح صلباً كالحديد. يمكن أنْ يكون راسخاً، ورائعاً»، «أنا واثق من أنّه كان صديقاً رائعاً لكِ»، «وما زال!»،

«اسمعي، ما الذي تحاولين أنْ تخبريني به؟ ليس دائماً أفهم جوهر الأشياء هذه الأيام. ثمة شائعة تقول إنَّ طلابي هم الذين سيُجرون *لي* الامتحان الختاميّ، ليروا إنْ كانوا يستطيعون أنْ يعرفوا ما الذي يجري في عقلي. عمَّ نحن نتحدث الآن؟»، «عن كوني ما زلتُ شخصيّة مرموقة بالنسبة إلى عدد كبير من الناس، حتى وإنْ كنتُ بالنسبة إليكم معشر الأساتذة الجامعيين المُثقفين وزوجاتكم الصغيرات، الأنيقات والحيويات أقلّ من مُثيرة للاشمئزاز. صحيح أنني لستُ بارعة بما يكفي في إعداد خبز الموز خبز الجزر وفي زرع نباتاتي الخاصة من البقول وفي «تحضير» الأطروحات و«ترؤس» اللجان من أجل تحريم الحرب في كل الأزمان، لكنّني ما زلتُ أجذب الانتباه أينما أذهب، يا ديفيد. كان في وسعي أنْ أتزوج من أحد الرجال الجديرين **بحكم** العالم! ولم أكنْ سأُضطر إلى البحث كثيراً. إنني أكره أنْ أضطرّ إلى أنْ أقول لك مثل هذا الكلام السوقيّ، القذر عن نفسي، لكنَّ هذا ما يُضطر المرءِ إلى قوله لشخصٍ يعتبره مُثيراً للاشمئزاز»، «أنا لا أعتبركِ مُثيرة للاشمئزاز. أنا ما زلتُ أشعر بالرهبة لأنكِ اخترتني لأكون رئيس مؤسسة ITT. كيف يسع شخص غير قادر حتى على وضع أطروحة صغيرة عن أنطون تشيخوف إلّا أنْ يشعر بالامتنان لأنّه يعيش مع امرأة تخوض سباق الفوز بمنصب ملكة التيبت؟ يُشرّفني أنّك انتقيتني لأكون قميص كفّارتك»، «ليس معروفاً مَنْ يمثّل قميص الكفّارة هنا. أنتَ تراني بغيضة، وترى دونالد بغيضاً-»، «هيلين، أنا لا أحبّ الرجل ولا أكرهه. لقد بذلتُ قُصارى جهدي اللعين. اسمعي، إنَّ أقرب أصدقائي إليّ قبل زمنٍ بعيد يعود حتى أيام الجامعة كان عمليّاً المثليّ الوحيد ***هناك***. وفي عام 1950 اتّخذتُ من مثليّ صديقاً لي - حتى قبل أنْ يكون لأمثاله وجود! لم أكنْ أعلم ما هي طبيعته، لكنّه كان صديقي. لا يهمّني *مَنْ* يرتدي ثوب *مَنْ* - أوه، اللعنة، انسي الأمر، لم يعُد لديّ ما أقول»

ثم في وقتٍ متأخِّر من صباح يوم سبت في فصل الربيع، حالما جلستُ على طاولة مكتبي لأباشر وضع علامات الامتحانات، سمعتُ الباب الأمامي لشقّتنا يُفتَح ثم يُغلَق - وأخيراً بدأت نهاية ذلك الزواج غير الموفَّق والفاشل. لقد رحلتْ هيلين. ومضَتْ عدَّة أيام - أيامٌ شنيعة، تخلّلتها زيارتان

إلى مشرحة سان فرانسيسكو، واحدة مع والدة هيلين الرزينة، والحائرة، التي أصرَّتْ على أنْ تحضر بالطائرة من باسادينا وأنْ ترافقني بشجاعة لكي نعاين الجثّة المُحطَّمة لامرأة «قوقازيّة» غارقة، في عمرٍ يتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين - قبل أنْ أعرف مكان وجودها.

المكالمة الهاتفيّة الأولى - التي أبلغتني بأنَّ زوجتي موجودة في سجنٍ في هونغ كونغ - جاءتني من وزارة الخارجيّة. والمكالمة الثانية جاءتني من غارلند، الذي أضافَ قدراً من التفاصيل الرهيبة، والتوضيحيّة: لقد انتقلتْ من مطار هونغ كونغ مباشرة بسيارة أجرة إلى قصر العشيق السابق الشهير في كاولون. وهو بمنزلة النسخة الإنكليزيّة من أوناسيس، كما سمعت، وابن ووريث مؤسِّس خط ماكدونالد - ميتكالف، ملك طرق الشحن من رأس الرجاء الصالح وحتى خليج مانيلا. وفي منزل جيمي ميتكالف، لم يسمح لها الخادم المُعيَّن عند الباب حتى بالدخول، ولم يتمّ إبلاغ زوجة ميتكالف باسمها. وعندما تركت الفندق الذي كانت تُقيم فيه بعد ذلك ببضع ساعات لكي تُخبر الشرطة عن الخطة التي كان قد وضعها رئيس شركة ماكدونالد ميتكالف قبل ذلك ببضعة أعوام لكي يقوم بدهس زوجته بالسيارة، أجرى ضابط الشرطة المُناوب في مركز الشرطة اتّصالاً هاتفيّاً عُثِرَ على إثرها على عبوة من الكوكايين داخل كيس نقودها.

سألتُ «وماذا سيحدث الآن؟ يا إلهي، يا دونالد، ماذا سيحدث الآن؟»

قال غارلند «لقد عملتُ على إطلاق سراحها»

«أهذا ممكن؟»

«ممكن»

«كيف؟»

«ما رأيك أنتَ؟»

بالمال؟ أم بالابتزاز؟ أم بالفتيات؟ أم بالغلمان؟ لا أعلم، ولا يهمّني، ولن أسأل من جديد. ***الجأ إلى أية وسيلة ناجعة***.

قال غارلند «المهمّ الآن، ماذا سيحدث بعد إطلاق سراح هيلين؟ طبعاً، في استطاعتي أنْ أوفِّر لها كل وسائل الراحة هنا. أستطيع أنْ أزوّدها بكل ما

تحتاج لكي تستعيد تماسكها وما إلى ذلك. أريد أنْ أعرف ما هو في اعتقادك الأفضل لها. لن تتحمّل الوقوع في أيّة ورطة أخرى»

«أيّة ورطة؟ دونالد، هذا الأمر يشوّش قليلاً. بصراحة، لا أعرف ما هو التصرُّف الأفضل. أخبرني، أرجوك، لِمَ لمْ تلجأ إليك عندما وصلتْ إلى هناك؟»

«لأنها أرادتْ أنْ تقابل جيمي. كانت تعلم أنّها إذا أتتْ إليّ أولاً فلنْ أسمح لها بالذهاب إليه. أنا أعرف الرجل أفضل منها»

«وكنتَ تعلم أنها قادمة؟»

«نعم، طبعاً»

«في اليوم الذي كنتَ موجوداً هنا على مائدة العشاء»

«أوه، كلا، يا بنيّ العزيز. لم أعلم إلّا قبل أسبوعٍ واحد. ولكن كان ينبغي أنْ تُرسِل برقيّة. كنتُ سألاقيها في المطار، لكنّها تصرَّفَتْ بأسلوبها الخاصّ»

قلت بغباء «ما كان ينبغي عليها أنْ تفعل ذلك»

«السؤال هو، هل هي قادمة من أجلك أم لكي تُقيم معي؟ أودّ أنْ أعرف منك أيّ الافتراضين هو الأفضل »

«أنتَ تحرص على إخراجها من السجن، وتحرص على إسقاط التُهَم عنها-»

«لم أكنْ لأتصل هاتفيّاً لأقول خلاف ذلك»

«إذن ما يحدث... حسن، إنَّ القرار يعود إلى هيلين، أليس كذلك؟ أي، يجب أنْ أتحدَّثَ معها»

«ولكنك لا تستطيع أنْ تفعل هذا. أما أنا فأستطيع لحُسن الحظ. نحن محظوظان لأنها ليستْ مُكبّلة بالأصفاد وفي طريقها إلى ماليزيا. إنَّ رئيس الشرطة عندنا ليس أشدّ الرجال رِفقاً، ما عدا بنفسه. ومُنافسك ليس ألبرت شفايتزر[1]»

1- ألبرت شفايتزر (1875-1965): مُبشِّر طبي، وفيلسوف، ولاهوتي وعازف أرغن ألماني - فرنسي، من الألزاس. درس الطب وكرّس حياته للقيام بالبعثات الطبيّة في الغابون في إفريقيا. حاز على جائزة نوبل للسلام في عام 1952. - المترجم

«هذا واضح»

«كانت تقول لي: «إنَّ الذهاب مع جيمي من أجل التسوُّق أمرٌ غاية في الصعوبة. فإذا وجدتُ شيئاً أعجبني، فإنه يقوم بشراء مجموعة كاملة منه لأجلي». وكانت تقول له، «ولكن، يا جيمي، لا أستطيع أنْ أرتدي أكثر من واحد في وقتٍ واحد»، لكنَّ جيمي لم يتفهم هذا، يا سيد كيبيش. إنّه يُنفِّذ كل شيء بكميات كبيرة»

«حسنٌ، أُصدِّقُ هذا»

قال غارلند، «لا أريد أنْ يحدث أي خطبٍ آخر لهيلين – أبداً. أريد أنْ أعرف وضع هيلين بالضبط، وأريد أنْ أعرفه الآن. لقد عاشتْ سنين من العذاب، وتصرّفتْ كمخلوقٍ رائع ومُذهل، وعاملتْها الحياة مُعاملة شنيعة. ولن أسمح لأي منكم أنْ يتسبَّب في عذابها من جديد»

لكنني لا أعرف وضعها – بل لا أعرف وضعي *أنا*. أولاً، في رأيي، يجب أنْ أصل إلى عائلة هيلين وأُخفِّف من مخاوفها، وسوف أبلغها بما وصلتُ إليه.

هل سأبلّغها؟ لِمَ؟

قالتْ والدة هيلين بتهذيب «ومتى ستعود إلى المنزل؟»، كأننا أبلغناها أنَّ ابنتها سوف تتأخّر بسبب اجتماع يُعقد في المُنتدى بعد انتهاء الدوام المدرسي.

«لا أعلم»

لكنَّ ذلك لم يبدُ أنّه يُقلِق والدة الفتاة المُغامِرة. قالت بإشراق، «آمل أنْ تبقى على اتّصال بي»

«سوف أفعل»

«حسن، شكراً على اتّصالك، يا ديفيد»

ماذا في وسع والدة الفتاة المُغامِرة أنْ تفعل أكثر من شُكر الناس على اتّصالهم وعلى إبلاغها بآخر الأخبار؟

وماذا في وسع زوج المرأة المُغامِرة أنْ يفعل بينما زوجته في السجن في الشرق الأقصى؟ حسنٌ، لقد أعددتُ على العشاء عجّة، طبختُها بعناية فائقة،

على درجة الحرارة المناسِبة، وقدَّمتُها لنفسي مع بعض البقدونس المفروم، وكأس من النبيذ، وشريحة من الخبز المُحمَّص المدهون بالزبد. ثم أخذتُ دشّاً حاراً طويلاً. إنّه يطلب مني ألّا أعذّبها: حسن، لن أُعذّبها - والأفضل من ذلك أنني لن أُعذِّب نفسي. وبعد أنْ أخذتُ دشّاً قرّرتُ أنْ أرتدي بيجامتي ثم أباشر قراءتي الليليّة وأنا في السرير، وحدي. كنتُ بلا فتيات. حتى ذلك الحين. سوف يحدث ذلك في الوقت المناسِب. كل شيء سوف يأتي في الوقت المناسب. أهذا ممكن؟ لقد رجعتُ إلى حيث كنت قبل ستة أعوام، إلى الليلة السابقة التي تخلّفتُ فيها عن موعدي المعقول واصطحبتُ هيلين القادمة من هونغ كونغ إلى المنزل بعد انتهاء تلك الحفلة. الفرق الآن هو أنّه أصبح لديّ عمل ثابت، ولديّ كتاب ينبغي أنْ أُكمِل تأليفه، ويبدو أنَّ لديّ شقّة مُريحة، مُزخرفة زخرفة فاخرة، تدلّ على ذوقٍ رفيع، لي وحدي. ماذا قال مورياك؟ «لكي أتمرَّغ في ملذّات السرير بلا شريك»

بقيَتْ سعادتي كاملة على امتداد ساعات طويلة. هل سبقَ أنْ سمعتُ أو قرأتُ عن شيء كهذا يحدث، عن شخص يقفز *مباشرةً* من بؤسه إلى النعيم؟ وتقول الحِكمة السائرة إنَّ العكس بالعكس. حسن، إنني هنا لأقول إنّه في مناسباتٍ نادرة يبدو أنَّ هذا القول أيضاً يصحّ. يا إلهي، كم أشعر بالارتياح. لن أُعذِّبها، أو أعذِّبَ نفسي، بعد الآن. وهذا يُناسبني.

استمرَّ هذا الوضع على امتداد ساعتين وأربعين دقيقة، تقريباً.

اشتريت بمبلغٍ اقترضته من آرثر شونْبرون، زميل الدراسة الذي كان مُستشاري في كتابة أطروحتي، بطاقة سفر بالطائرة ذهاباً وإياباً وانطلقتُ في اليوم التالي إلى آسيا. (اكتشفتُ في المصرف أنَّ هيلين سحبت كامل رصيد مُدّخراتنا في الأسبوع السابق، لكي تشتري بطاقة سفر بالطائرة في اتّجاه واحد، ولكي تبدأ حياتها الجديدة). وعلى متن الطائرة هناك فُسحة من الوقت للتفكير - والتفكير والتفكير والتفكير. لابد أنني أرغب في عودتها، وأنني لا أستطيع أنْ أتخلّى عنها، وأنني أحبّها سواء أكنتُ أعلم هذا أم لا أعلمه، وأنّها قَدَري-

لا شيء من هذه الأفكار أقنعني. إنَّ مُعظمها مُجرَّد كلمات أمقتها. كلمات

جديرة بأنْ تصدر عن هيلين، وأسلوب تفكير خليق بهيلين. أنا لا أستطيع أنْ أعيش من دون هذا، وهو لا يستطيع أنْ يعيش من دون ذاك، أعني زوجتي، زوجي، أو قَدَري... كلام أطفال! كلام أفلام! *كلام رومانسي سينمائيّ!*

مع ذلك إذا لم تكن هذه المرأة *زوجتي*، فماذا أفعل هنا؟ وإذا لم تكن *قَدَري*، لماذا أتحدّثُ عبر الهاتف من الساعة الثانية وحتى الخامسة صباحاً؟ هل الأمر هو فقط أنَّ كبريائي لا تسمح لي بأنْ أتخلّى عنها من أجل حاميها المثليّ؟ كلا، ليس هذا هو السبب. ولا أنا أدَّعي تحمُّل المسؤوليّة، ولا أدّعي الشعور بالخزي، أو بالمازوشية، أو بفرح الانتقام...

إذن لا يتبقّى إلّا الحب. الحب! في هذا الموعد في وقتٍ متأخِّر! الحب! بعد كل ما وقع لتدميره! فجأة، حبٌّ يزيد عن كل حب ظهر في أي مكان حتى الآن!

أمضيتُ ما تبقّى من ساعات استيقاظي خلال رحلة الطيران تلك في تذكُّر كل كلمة فاتنة، عذبة، مُسلّية، نطقتْها.

كان يُرافق غارلند - الذي أصبح الآن صاحب مصرف ورجل الأعمال المِثاليّ، المتجهِّم، والدمث - رجل مباحث من هونغ كونغ، شاب أنيق من القنصليّة الأميركيّة حضرَ أيضاً لاستقبال طائرتي. وبينما نحن نغادر المحطّة النهائيّة متجهين إلى السيارة، قلتُ لغارلند، «ظننتُ أنّها قد غادرت السجن»، فقال «يبدو أنَّ المفاوضات تتضمَّن من المصالح أكثر مما اعتقدنا»، وأبلغني موظّف القنصليّة الشاب باستياء «إنَّ هونغ كونغ هي مهد عقد الصفقات الجماعيّة». وبدا أنَّ كل مَنْ في السيارة يعرف فحوى الموضوع، ما عدا أنا.

فتّشوني ومن ثم سمحوا لي بالجلوس معها في غرفة صغيرة جداً أُقفِلَ بابها خلفنا بصورة مسرحيّة. ودفعها ضجيج إحكام القفل إلى الإمساك بيدي بعنف. كان وجهها تعلوه البقع، وشفتاها متقرّحتين، وعيناها... لم أستطع النظر في عينيها من دون أنْ أشعر بانقباض أحشائي. وكانت رائحة هيلين كريهة. وعلى الرغم من كل ما شعرتُ به نحوها وأنا في الجو، لم أستطع أن أدفع نفسي إلى الشعور بالحب نفسه وأنا هنا على الأرض. إنني لم أُحبّها هكذا وأنا على الأرض من قبل، ولن أبدأ بالشعور هكذا وأنا في زنزانة

سجن. أنا لستُ بهذا الغباء. وقد يجعل مني هذا نوعاً آخر من الأغبياء... ولكن سوف أُضطر إلى اتّخاذ قرار بشأنه لاحقاً.

«لقد اتّهموني كذباً بأنني أحمل كوكايين»، «أعلم»، قالتْ «لا يمكن أنْ ينجو بفعلته»، «لن ينجو. سوف يعمل دونالد على إخراجكِ من هنا»، «*بل يجب أنْ يُخرجني!*»، «إنّه يفعل ذلك، يعمل على إنجازه. لا تقلقي. سوف تخرجين قريباً»، «يجب أنْ أخبركَ شيئاً فظيعاً. لقد خسرنا مالنا كلّه. سَرقَته الشرطة. هو الذي أملى عليهم الأسلوب الذي عليهم أنْ يُعاملوني به – ونفّذوا الأمر. لقد ضحكوا عليّ، واعتدوا على جسدي»، «هيلين، أخبريني الحقيقة الآن. يجب أنْ أعرفها. يجب أنْ نعرفها جميعنا. هل تريدين أنْ تستمرّي في الإقامة مع دونالد في منزله بعد أنْ تخرجي من هنا؟ إنّه يقول إنّه سوف يعتني بكِ، وإنّه–»، «ولكنْ لا أستطيع! كلا! أوه، لا تتركني هنا، أرجوكَ! سوف يقتلني جيمي!»

في طريق عودتنا بالطائرة ظلَّتْ هيلين تشرب الخمر إلى أنْ قالت المضيفة إنها لا تستطيع أنْ تُقدِّم لها المزيد من المشروب. قالتْ، بفجاءة «مازحة»، «أراهن على أنك كنتَ أشدّ إخلاصاً لي. نعم، أراهن على أنكَ كنتَ كذلك»، قالتْ ذلك بصفاءٍ خدِر بعد أنْ أزال الويسكي رعب السجن وتجاوزتْ هي كابوس انتقام جيمي ميتكالف. ولم أُدلِ بأي جواب. لم يكن هناك ما يُقال عن العلاقات الجنسيّة التي لا معنى لها وجرت في العام السابق: ولو أنّي أخبرتها مَنْ هنَّ مُنافساتها كانت ستكتفي بالضحك. ولم أتوقَّع أنْ أتلقّى منها الكثير من التعاطُف لو أنّي حاولتُ أنْ أشرح لها مدى انزعاجي لأنني خنتها مع نساءٍ لا يتمتّعنَ في نظري ولا حتى بمقدار واحد من المائة من جاذبيتها – ولا حتى بواحد في المئة من شخصيّتها، ناهيك عن ظُرفها – وكان في وسعي أنْ أبصق على وجوههن عندما أدركتُ كم أنَّ إشباع شهواتهن مُستمدّ من وضعهن هيلين كيبيش في مكانها المناسِب. ورأيتُ، بسرعة نسبيّة – بل *تقريباً* بسرعة كافية – أنَّ خيانة زوجةٍ كهيلين تكرهها نسوة أخريات لا يمكن أنْ يحدث من دون أن أهين نفسي. لم أكنْ أتمتَّع بموهبة جيمي متكالف في التراجع بكل برود وتسديد ضربة قويّة وقاتلة إلى خصمي؛ كلا، كان الانتقام هو أسلوبه أما أسلوبي فهو السوداويّة المُشاكسة... تأثَّر حديث هيلين

بالمشروب وبالتعب وجعله رخواً بصورة سيئة، ولكن بعد أنْ أخذتْ دشّاً، وتناولتْ وجبة، وغيَّرتْ ملابسها، وأُتيحتْ لها الفرصة لوضع المساحيق على وجهها قرّرتْ أنْ تُجري حديثاً، أول حديث بعد مرور فترة طويلة. قرَّرتْ حينئذٍ أنْ تستعيد مكانها في العالم، ليس بوصفها المهزومة، بل كما هي. قالتْ «حسن، لم تكن مُضطراً إلى أنْ تكون فتى طيّباً *جداً*، في الواقع. كان في وسعك أنْ تُقيم علاقاتك العاطفيّة الخاصّة، إنْ كان ذلك سيجعلك أسعد حالاً. وكان في استطاعتي أنْ أتقبَّله»، قلت «يسعدني سماع هذا»، «أنتَ الذي لم يكن في استطاعتك أنْ تخرج سليماً، يا ديفيد. في الواقع، لقد كنتُ مُخلِصَة لك، صدِّق أو لا تُصدِّق، أنتَ الرجل الوحيد الذي أخلصتُ له في حياتي كلّها». هل أُصدِّق هذا؟ هل أستطيع؟ وإذا كان ينبغي أنْ أفعل؟ فإلى أين كان سيوصلني *ذلك الردّ*؟ لم أُدلِ بأي ردّ. «أنتَ لا تعرف بعد إلى أين كنتُ أذهب أحياناً بعد الانتهاء من درس التمارين»، «كلا، لا أعرف»، «ولا تعرف لماذا كنتُ أخرج في الصباح مُرتدية ثوبي المُفضَّل»، «كانت لديّ أفكاري الخاصّة»، «حسن، كانت خاطئة. لم يكن لديّ عشيق. لم أفعل ذلك وأنا معك، قط، قط. لأنَّه أمر شنيع. ما كان يمكن أنْ تتقبّله – لذلك لم يحدث. كنتَ ستنهار، كنتَ ستسامحني، ولم تكن لتستعيد توازنك. كنتَ ستتألَّم إلى الأبد»، «لقد بقيتُ أتألَّم في كل الأحوال. كلانا تألَّم. إلى أين ذهبتِ بعد أنْ ارتديت ملابسك؟»، «ذهبتُ إلى المطار»، «وبعد ذلك؟»، «جلستُ في غرفة انتظار المطار، وأنا أحمل جواز سفري في حقيبتي. ومجوهراتي. جلستُ هناك أقرأ في صحيفة إلى أنْ سألني أحدهم إنْ كنتُ أرغب في تناول شراب في عربة الدرجة الأولى»، «وأراهن على أنَّ المرء يوافق على ذلك دائماً»، «دائماً – هذا صحيح. وأذهبُ إلى هناك وأتناول مشروباً. ونتحدث... ومن ثم يطلب مني أنْ أسافر معه. إلى أميركا الجنوبيّة، وإفريقيا، وإلى كل مكان. بل إنَّ أحدهم طلبَ مني أنْ أرافقه في رحلة عمل إلى هونغ كونغ. لكنني لم أقبل، قط. وبدل ذلك كنتُ أعود إلى الوطن وتبدأ أنتَ تتقصّى حولي بشأن أرومات دفتر الشيكات»، «كم مرَّة فعلتِ ذلك؟»، أجابتْ «مرّات كافية»، «كافية لِمَ – لتُدركي أنكِ ما زلتِ تتمتّعين بالسُلطة؟»، «كلا، أيّها الأبله، بل لأرى إنْ كنتَ *أنتَ* لا تزال تتمتّع بالقوة». وبدأتْ تجهشُ

بالبكاء. سألتْ «هل ستُصدَم إذا سمعتَ أنني أعتقد أنَّه كانَ علينا أنْ نُنجِب ذلك الطفل؟»، «ما كنتُ لأجازف بفعل ذلك، ليس معك». أثارتْ كلماتي غضبها، ما تبقّى من غضبها. قالتْ «أوه، أيّها التافه، لم يكن ضروريّاً أنْ تقول هذا، هناك سُبُل أقلّ قسوة...»، ثم هتفَتْ «أوه، لِمَ لم أترك جيمي يقتلها عندما أرادَ ذلك؟»، «اهدأي، يا هيلين»، «كان يجب أنْ تراها الآن - وقفَتْ هناك، على مسافة عشرة أقدام داخل الرواق، تنظر إليّ بغضَب. كان يجب أنْ تراها - بدتْ أشبه بحوت! ذلك الرجل الوسيم يُضاجع حوتاً»، «قلت اهدأي»، «لقد دفعهم إلى اتّهامي بحيازة الكوكايين - اتّهامي أنا، التي تُحبّه! وتركهم يأخذون كيس نقودي ويسرقون مالي! كم أحببتُ ذلك الرجل! ولم أتركه إلّا لكي أمنعه من ارتكاب جريمة قتل! وها هو الآن يكرهني لأنني أُفرطُ في الكياسة، وأنتَ تنفرُ مني لافتقاري إلى الكياسة، والحقيقة هي أنني أفضل حالاً وأقوى وأكثر شجاعة منكما كليكما مجتمعَين. على الأقلّ كنتُ كذلك - كنتُ كذلك وأنا لم أتجاوز العشرين من العمر! *أنتَ* الذي لا يُريد أنْ يُجازف بإنجاب طفل *مني*؟ وماذا عن شخصٍ *مثلك*؟ ألم يخطر في بالك أنّه فيما يخصّ الطفل كان يمكن أنْ يكون الأمر معكوساً؟ كلا؟ نعم؟ أجبني! أوه، لا أقوى على الانتظار حتى أرى الطفل الوليد الذي تجازفُ من أجله. ليتكَ حملته بين ذراعيك قبل وقتٍ طويل، قبل سنين - في البداية! حين لم يكن لديّ ما أقول عنه!»، «هيلين، أنتِ مُرهَقَة ومشحونة ولا تعين ما تقولين. لقد أبديتِ اهتماماً كبيراً بشأن إنجاب طفل»، «تقول اهتممتُ كثيراً، أيها الأحمق، أيّها المُغفّل! أوه، لِمَ أتيتُ على متن هذه الطائرة معك! كان يمكن أنْ أبقى مع دونالد! إنّه في حاجة إلى شخص يُلازمه بقدر حاجتي أنا. كان ينبغي أنْ أمكث معه في منزله، وأطلب منكَ أنْ تتابع طريقك إلى الوطن. أوه، لِمَ فقدتُ السيطرة على أعصابي في ذلك السجن!»، «فقدتِها بسبب جيمي. اعتقدتِ أنكِ عندما تخرجين سوف يقتلك»، «لكنه لم يفعل - هذا شيء جنونيّ! ولمْ يفعل ما فعل إلّا لأنّه يُحبّني حبّاً جمّاً، وأنا أحببتُه! أوه، كم انتظرتُكَ! - انتظرتكَ ستة أعوام! لِمَ لم تأخذني إلى عالمك كرجلٍ حقيقيّ!»، «ربما ما تعنين هو لماذا لمْ أُبعدكِ عن عالمكِ. لأنني لم أستطع. إنَّ الشخص القادر على إبعادكِ عن عالمكِ هو الذي أدخلكِ إليه. أنا أعلمُ

طبعاً أنَّني أُخاطبكِ بنبرة صوت فظيعة، وأنني أرميك بنظرة احتقار، لكنني لم ألجأ إلى قاتل مأجور بخصوص النخب، أنتِ تعلمين. في المرة التالية حين ترغبين في أنْ ينقذكِ أحد من طاغية ابحثي عن شخصٍ آخر يقوم بالمهمّة. أنا أعترفُ بهزيمتي»، «أوه، يا إلهي، أوه، يا يسوع الرب، لماذا يكونون إمّا بهائم أو أطفالاً مُنشدين؟»، قالتْ هذا وهي تقبض على ذراع الفتاة في أثناء مرورها في الممرّ بين المقاعد، «أيتها المُضيفة، لا أريد مشروباً. لقد شربت كفايتي. أريد فقط أنْ أسألك سؤالاً. لا تخافي. لماذا يكونون إمّا بهائم أو أطفالاً مُنشدين، هل تعرفين؟»، «عمَّن تتحدثين، يا سيدتي؟»، «ألم تكتشفي ذلك في رحلات الطيران التي ترافقينها من قارة إلى أخرى؟ بل إنهم في الواقع يخافون فتاة صغيرة وجميلة مثلك. ولهذا السبب أنتِ مُضطرة إلى توزيع ابتسامتك هكذا. فقط انظري في عيون أولاد الحرام وسوف تجدين أنهم إما يرتمون عند رُكبتيك أو ينقضّون على عنقك»

عندما نامت هيلين في نهاية المطاف - ووجهها يتحرك بصورة مألوفة على كتفي - أخرجت أوراق الامتحان الختاميّ من حقيبتي وبدأتُ من حيث اضطررتُ إلى التوقّف قبل مائة ساعة أو نحوها. نعم، كنتُ قد أحضرت واجبي المدرسيّ معي - وهذا أمرٌ جيّد. لم أتصوّر كيف يمكن أنْ أقضي الساعات الطويلة المتبقّية من رحلة الطيران من دون أنْ أنهمك في أوراق الامتحان. «من دون هذا...» وتخيّلتُ نفسي أخنق هيلين بشَعرها الطويل حتى خصرها. مَن الذي خنقَ عشيقته بشَعرها؟ من التي خنقَتْ عشيقها بشَعرها؟ أليست شخصيّة وردتْ في موقع ما من أعمال الشاعر براونينغ؟ أوه، لا يهمّ!

«إنَّ السعي إلى إقامة علاقة حميمة، ليس لأنها تؤدّي بالضرورة إلى السعادة، بل لأنها ضروريّة، هو أحد المواضيع التي تتكرَّر عند تشيخوف»

الورقة التي اخترتُها أولاً - أولاً من جديد - هي ورقة كاثي ستاينر، الفتاة التي حلمتُ في تبنّيها. كتبتُ على الهامش بجوار جُملتها الافتتاحيّة، «جيِّد»؛ ثم أعدتُ قراءتها ووضعتُ بعد كلمة «ضروريّة» علامة وكتبت، «للبقاء على قيد الحياة (؟)». وكنتُ طوال الوقت أقول في نفسي، «وعلى مسافة أميال إلى الأسفل تقع شواطئ بولينيزيا. حسن، أيّتها المخلوقة العزيزة، المُذهلة،

إنها تُفيدنا كثيراً! أعني هونغ كونغ! كان يمكن للأمر اللعين كلّه أنْ يقع في سينسناتي! في غرفة في فندق، في مركز شرطة، في مطار. بين أحد مجانين العَظَمَة المملوء بروح الانتقام، وبعض رجال الشرطة المُنحرفين! وشخصيّة كليوباترا المُدَّعية! لقد أُهدرَتْ مُدَّخراتنا على هذه الرواية المُشوِّقة التافهة الرخيصة! أوه، إنَّ هذه الرحلة البحريّة هي الزواج نفسه - عبور أربعة آلاف ميل من الكرة الأرضيّة الغريبة الأطوار مرَّتين، ومن دون أي سبب!»

أحاول مرَّة أخرى أنْ أُركِّز انتباهي على المهمّة التي بين يديّ - وليس على ما إذا كنا هيلين وأنا يجب أنْ نُنجب طفلاً، أو على مَنْ نضع اللوم لأننا لم نُنجِب؛ رافضاً أنْ اتّهم نفسي مرة أخرى بكل ما كان يمكن أنْ أقوم به ولم أقُم به، وبكل ما قمتُ به وبما كان ينبغي أنْ أقوم - ورجعتُ إلى ورقة امتحان كاثي ستاينر النهائي. أبلغَ جيمي ميتكالف رجالَ الشرطة: «عذّبوها قليلاً، أيّها السادة، وسوف يفيد ذلك العاهرة قليلاً»، بينما كنتُ أُخمِد انفعالاتي بالقراءة المتأنّية لكل صفحة من صفحات كاثي، مُصحِّحاً كل خطأ بعد كل فاصلة أخيرة، مُذكّراً إيّاها بمشكلتها المُعلّقة حول الكلمة المُفيدة، ومالئاً الهامش بتعليقاتي وبأسئلتي كما يوحيه ضميريّ عليّ. أنا و«أوراق امتحاناتي الختاميّة»، وقلم التعليم وملاحظاتي المتفرّقة على الورقة. كم سيستمتع الإمبراطور ميتكالف بالمشهد - على غرار دونالد غارلند ورئيس قسم الشرطة غير المُتسامِح. واعتقدتُ أنني أنا نفسي يجب أنْ أضحك قليلاً؛ ولكن بما أنّي أستاذ مادة الأدب ولستُ رجل شرطة، وشخص قام قبل زمن بعيد باستخلاص القليل مما تبقّى من الطاغية الكامن فيه - ربما بسبب مظهر الأشياء، المستخلصَة ربما بشكلٍ مُكثَّف - بدل أنْ أضحك على كل شيء، وصلتُ إلى جُملة كاثي الختاميّة، وكنتُ مُرهقاً. لقد تلاشى تماسكي منذ اختفاء هيلين، وكان يجب أنْ أُدير وجهي وأضغطه على النافذة المُظلِمة للطائرة الهادرة التي تنقلنا في طريق العودة إلى أرض الوطن لكي أُكمل، بأسلوب مُنظَّم وقانونيّ، تفكُّك حياتينا المُحطَّمتين. بكيتُ على نفسي، وعلى هيلين، وختاماً بدا أنَّ بكائي اشتدَّ أكثر بكثير مع اكتشافي أنّ الأشياء لم تُدمّر كلها، وأنّه على الرغم من هوسي المُستنزِف بتعاستي الزوجيّة وبرغبتي الحالمة في طلب المُساعدة من طلابي الشبّان، فإنّي حصلتُ بصورة ما على

ابنة عذبة، ممتلئة ولم يمسسها أذى من بيفرلي هيلز لم يُصِبها الرعب بعد ليدفعها إلى إكمال عامها الدراسي الثاني في الجامعة بتأليف هذه المرثاة الكئيبة والجميلة لتي تلخّص ما سمّته «فلسفة الحياة العامة عند أنطون تشيخوف»، ولكن أيمكن أنْ يكون البروفسور كيبيش هو الذي علّمها هذا؟ كيف؟ **كيف**؟ إنني بالكاد بدأتُ أعرفُ هذا وأنا على متن هذه الرحلة! كانت الفتاة قد كتبتْ تقول «إننا نولَد أبرياء، ونعاني مُعاناة رهيبة من خيبة الأمل قبل أنْ نتمكّن من اكتساب المعرفة، ومن ثم نخشى الموت - ولا نحصل إلّا على نُتفٍ من السعادة نعوِّض بها عن الألم»



أخيراً تخلَّصتُ من حُطام طلاقي بقبولي عملاً عَرَضَه عليّ آرثر شونبرون، الذي كان قد غادر جامعة ستانفورد لكي يُصبح رئيس برنامج الأدب المُقارَن في جامعة ولاية نيويورك في لونغ أيلند. كنتُ قد بدأتُ أتردَّد على طبيب نفسيّ في سان فرانسيسكو - بعد فترة قصيرة من بدء استشارة مُحام - وهو الذي أوصاني بمواصلة العلاج، حالما أعود إلى الشرق، مع الدكتور فريدريك كلينغر، الذي كان يعرفه ويستطيع أنْ يوصي باللجوء إليه بوصفِهِ شخصاً لا يخشى التحدّث بصراحة مع مرضاه، ووصفه لي بأنّه رجل صلب، وعاقل، وقيل لي إنّه «متخصِّص»، «بالمعنى السليم» للكلمة. ولكن هل أنا في حاجة إلى العقل والحسّ السليم؟ قد يقول البعض إنني دمَّرتُ الأشياء بإخلاصٍ شديد الضيق لهذه الصِفات بالذات.

إنَّ فريدريك كلينغر صلب حقاً: صاحب وجه مُستدير، ودود، يضجّ بالحيويّة، كان يُدخّن السيجار طوال فترات جلسات المُعالجة، بعد الاستئذان مني. من ناحيتي، أنا لا أحبّ عبقَ الدخان، لكنني سمحتُ له بذلك لأنَّه بدا أنَّ التدخين يُكثِّف الحِدَّة التي تعاملَ بها مع إحساسي باليأس. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يكبرني بسنوات كثيرة، ولديه من الشَعر الشائب أقلّ قليلاً مما كان يظهر عندي مؤخّراً، فإنّه كان ينضح بالرضا وبالثقة في النفس اللذين يتَّصِف بهما رجلٌ ناجح في منتصف سنوات عمره. وحزنتُ لعلمي من المكالمات الهاتفيّة التي تلقّاها خلال الساعة المُخصَّصة لي، أنّه شخصية أساسيّة ضمن دائرة الأطباء النفسيين، وعضو في الهيئات الفاعلة في المدارس، ووسائل الإعلام، ومراكز البحث، بالإضافة إلى كونه الأمل الأخير لأي عدد من اليائسين. في أول الأمر شعرتُ بالنفور من الاستمتاع

الصِرف الذي بدا أنَّ الطبيب يُبديه بتبديد مسؤولياته - بالنفور، في الحقيقة، من كل ما يكتنفه: من بزّته ذات الصدر المُضاعَف والمُخطَّطة ومن ربطة العنق الرخوة، ومعطف تشسترفيلد البالي الذي يزداد ضيقاً مع ازدياد بدانة الخصر، ومن *الحقيبتين* المُنتفختين على منصب المعطف، وصور الأطفال الأصحّاء المُبتسمين على طاولة المكتب المُكدَّسة بالكتب، ومن مضرب كرة التنس على منصب المظلّة - بل النفور حتى من حقيبة أدوات الرياضة التي أُقحِمَت خلف كرسي المكتب الذي يُناقش منه، والسيجار في يده، فوضى حياتي. أيُمكن لهذا الفاتح الحيويّ، الأنيق، أنْ يفهم أنَّ هناك فترات في الصباح أثناء انتقالي من السرير إلى فرشاة الأسنان أُضطرّ خلالها أنْ أمنع نفسي من الانهيار والتكوُّم على أرض غرفة الجلوس؟ أنا نفسي لا أفهم تماماً عمق هذه الورطة. وبما أني فشلتُ في أنْ أكون زوجاً لهيلين - فشلتُ في معرفة كيف أجعل من هيلين زوجة - يبدو أنني الآن أُفضِّل أنْ أقضي حياتي نائماً على أنْ أعيشها.

كيفَ، على سبيل المِثال، أصبحتُ على صِلة سيئة مع النزعة الحسّيّة؟ أجاب، «أنتَ الذي تزوّجَ من *femme fatale* (امرأة فاتنة) تطرح هذا السؤال؟»، «ولكنّي فعلتُ ذلك فقط لكي أروّضها، لكي أُجرّدها من أسلحتها، مع مرور الوقت. كنتُ أُضايقها، أُضايق هيلين، بشأن القمامة والغسيل والخبز المُحمَّص. حتى أمّي ما كان يمكن أنْ تفعل ذلك أفضل مني، وبدقّة!»، «كانت شديدة الاهتمام بالتفاصيل، أليس كذلك؟ اسمع، إنها ليستْ هيلين التي وُلِدَتْ من صُلب ليدا وزيوس، كما تعلم. إنها من سكان الأرض، يا سيد كيبيش - فتاة مسيحيّة من الطبقة الوسطى من باسادينا، كاليفورنيا، وهذا كافٍ لكي تحصل على رحلة مجّانيّة إلى معبد أنغور وات الأثريّ في كل عام، ولكن هذا كل شيء، في مجال الإنجاز الخارق. والخبز المُحمَّص البارد هو خبز مُحمَّص، مهما جمعَت الطبّاخة من أحجار كريمة على مرّ الأعوام من الزواج من رجال يشتهون فتيات صغيرات»، «كنتُ أخافها»، «هذا طبيعيّ». رنّ جرس هاتفه. كلا، لا يمكن أنْ يكون في المُستشفى قبل حلول الظهيرة. نعم، لقد رأى الزوج. كلا، لا يبدو الرجل راغباً في التعاون. نعم، هذا أمرٌ مؤسِف جداً. والآن لنعُد إلى هذا

السيد غير المتعاون. قال «طبعاً كنت تخافها. ولا يمكن أنْ تثِقَ بها»، «بل كان من *المستحيل* أنْ أثق بها. وقد كانت مُخلِصة لي ***حقّاً***. أنا أُصدِّق هذا»، «لا أهمّية لهذا. لقد كانت تمارس بعض الألعاب مع نفسها، هذا كل ما في الأمر. ما قيمة هذا عندما تكون الحقيقة هي أنّه لم يكن هناك أي تواصُل حقيقيّ بينكما؟ من هذا الوضع نستنبط أنَّ الشيء الوحيد الخاطئ ***تماماً*** الذي قام به كل منكما في حقّ الآخر هو زواجكما»، «وكنتُ أخاف بريدجت أيضاً»، هتفَ «يا إلهي، ومَن لا يخافها؟»، «اسمع، إمّا أنّي لا أقول كلاماً واضحاً أو أنكَ لا ترغب حتى في البدء بفهمي. أنا أقول إن تينك المرأتين هما من المخلوقات الخاصّة، إنّهما زاخرتان بالجرأة وبالفضول - وبالحريّة. لم تكونا مجرد شابتين عاديتين»، «أوه، أنا أفهم هذا»، «أحقاً؟ أحياناً أعتقد أنكَ تفضّل أنْ تنسبهما كليهما إلى فئة مُنمّقة من البشر. ولكنّ ما يجعل منهما من الفئة الخاصّة هو أنهما لم تكن أيٌّ منهما مُنمَّقة، ليس في نظري. لقد كانتا استثنائيتين»، «أتّفق معك». رنَّ جرس الهاتف. نعم، ماذا؟ لديّ جلسة علاج، نعم. كلا، كلا، كلا، تابع. نعم، نعم. طبعاً يتفهَّم. كلا، كلا، إنّه يتظاهر، لا عليك. حسن، زدِ الجرعة إلى أربع في اليوم. ولكن لا أكثر من هذا. واتّصل بي إذا استمرَّ في البكاء. اتّصل بي في كل الأحوال. وداعاً. قال «أتّفق معك، ولكن ماذا كان يُفترَض بكَ أنْ تفعل، أنْ ***تتزوج*** من إحدى «المخلوقتين الاستثنائيتين»؟ أنْ تقضي أيّاماً وليالي تعبث بثدييها المثاليين؟ وتتردَّد على بؤرة تعاطي الأفيون؟ لقد قلتَ لي مؤخّراً إنَّ الشيء الوحيد الذي تعلَّمته من العيش ست سنوات مع هيلين هو كيف تُدير حانة»، «أتذكَّر أنني قلت إنَّ هذا ما يُسمّى باكتساب تأييد الطبيب النفسيّ. لقد تعلَّمتُ الكثير»، «تبقى الحقيقة هي - أنَّ لديكَ عملاً تقوم به»، قلتُ، من دون أنْ أُخفي غضبي من «تأويله العِلمانيّ» العنيد، «إنَّ العمل هو مجرّد عادة»، اقترحتُ بضجر «ربما قراءة الكتب هي أفيون الطبقات المُثقّفة»، قال، وهو يُشعل سيجاراً جديداً، «أهو كذلك؟ هل تفكّر في أنْ تُصبح هبيّاً؟»، «في أحد الأيام كنتُ وهيلين نتشمّس ونحن عاريان على شاطئ ولاية أوريغون. كنا نقضي فترة إجازة، نتوجّه بالسيارة شمالاً. بعد قليل لمحنا شخصاً يُراقبنا من دغل بعيد. وبدأنا نرتدي ملابسنا، لكنّه مع ذلك اقترب منا وسألنا إنْ كنا من أنصار التعرّي.

وعندما نفينا سلَّمنا نسخة من صحيفة العُراة في حال أردنا أنْ نشترك فيها»، وضحك كلينغر بصوت مرتفع. «لقد قالت هيلين لي إنَّه لابد أنَّ الله ذاته أرسله لأنّه كانت قد مرَّتْ، حتى ذلك الوقت، تسعون دقيقة كاملة لم أقرأ خلالها أيّ شيء». ومن جديد ضحك كلينغر باستمتاع حقيقيّ. فقلتُ له «اسمع، أنتَ لا تعرف شعوري عندما قابلتها أول مرّة. ليس من السهل الاستخفاف به. أنت لا تعرف كيف كنتُ، ولا تستطيع أنْ تعرف - ولا أنا أستطيع، بعد الآن - وأنت تراني على هذا الشكل. ولكن عندما كنتُ فتى غير هيّاب في أوائل عشرينيات عمري، كنتُ أكثر جرأة من الغالبيّة، خاصّة في تلك الفترة الكئيبة من تاريخ المتعة. في الواقع لقد نفّذتُ ما حلُمَ الفنانون البلهاء به عندما انطلقتُ وحدي في العالم، وكنتُ، إنْ صحَّ التعبير، معجزة في ممارسة الجنس»، «وتريد أنْ تُصبح كذلك من جديد، وأنت في ثلاثينيات عمرك؟». لم أُزعج نفسي بالردّ على هذا، لقد فاجأني بأنَّ حسّه السليم الذي يبرع فيه كان ضيِّق الأفق وعنيداً. تابع كلينغر قائلاً «لماذا سمحتَ لهيلين، التي شوّهتْ شكلها في محاولة مسعورة لتكون كاهنة إله الحب - وكادتْ تُدمِّرك بتصريحاتها وتلميحاتها - لماذا سمحتَ لحُكمها بالاستمرار في السيطرة عليك؟ إلى متى تنوي أنْ تتركها تستمر في توبيخك عندما تشعر أنك في أضعف حالاتك؟ إلى متى تنوي أنْ تبقى تشعر بالضعف جراء هذه الحماقة الصِرف؟ ماذا عن بحثها «الجريء» ذاك - ؟» الهاتف يرنّ. قال «عُذراً». نعم، هذا هو. نعم، تابع. مرحباً - نعم، أسمعكَ جيّداً. كيف حال مدريد؟ ماذا؟ طبعاً هو مُريب، ماذا كنتَ تتوقَّع؟ ولكنْ فقط أخبره أنّه يتصرَّف بغباء ثم انسَ الأمر. كلا، طبعاً لستَ في حاجة إلى المشاجرة. أفهمُ هذا. فقط قُلْ هذا ومن ثم حاول أنْ تستجمع بعض الشجاعة. يمكنكَ أنْ تواجهه. عُدْ إلى الغرفة وأخبره. هيا افعل الآن، أنت تعلم جيداً أنَّك تستطيع ذلك. حسن. حظاً موفقاً. استمتع بوقتك. قلتُ، ثم اخرج واقضِ وقتاً ممتعاً. وداعاً. «عمَّ كانت تبحث خلاف الكثير من التملّص، عن الهروب الصبياني من مشاريع الحياة الحقيقيّة الممكنة؟»، قلت «ثم، من ناحية أخرى، ربما «المشاريع» هي بمنزلة تملّص من البحث»، «أرجوك، أنتَ تحبّ أنْ تقرأ وتكتب عن الكتب. وهذا، بشهادتك، منحك رضاً هائلاً - على أيّ حال، منحك وسوف

يمنحك من جديد، أؤكّد لك. أما الآن فقد مللتَ كلَّ شيء. لكنّك تحب مهنة التدريس، صحّ؟ وحسب ما فهمتُ أنتَ لا تخلو من موهبة. وما زلتُ لا أعلم ما هو البديل الذي تفكِّر فيه. أتريد أنْ تنتقل إلى البحار الجنوبيّة وتُدرِّس الكتب العظيمة لفتيات يرتدين السارونغ[1] في جامعة تاهيتي؟ أتريد أنْ تجرّب حظّك مع الحريم من جديد؟ أنْ تصبح معجزة غير هيّاب من جديد، وتعزف في حفلة جاك وجيل مع فتاتك السويديّة الصغيرة المتهوّرة في حانات الطبقة العاملة في باريس؟ أتريد أنْ تتلقّى ضربة من هراوة على رأسك من جديد - ولكن ربما في هذه المرَّة سوف تُصيب الهدف؟»، «إنَّ مُحاكاتك ما أتحدث عنه بسخرية لا يفيدني، في الواقع. من الواضح أنني لا أفكِّر في العودة إلى بيرغيتا. بل أفكِّر في التقدُّم إلى الأمام. أنا لا أستطيع أنْ *أتقدَّم*»، «لعلَّ التقدُّم، على هذا الطريق على أي حال، هو ضلال»، «دكتور كلينغر، أؤكّد لك أنني أصبحتُ الآن أتشرَّب بقدرٍ كافٍ انحرافات تشيخوف بحيث أصبحتُ أشكّ في نفسي كثيراً. أنا أعرف ماذا يمكن أن تعلّمه رواية «المبارزة» والقصص القصيرة الأخرى التي تدور حول أولئك المتورطين في الأفكار الشهوانيّة الخاطئة. أنا أيضاً قرأتُ ودرستُ الحِكمة الغربيّة العظيمة حول هذا الموضوع. بل إنني درّستها. ومارستُها. ولكن، إذا أمكنني أنْ أُضيف، كما كان تشيخوف يتمتّع بالحس السليم الاعتيادي بحيث يكتب: حول المسائل النفسيّة، أقول «إنَّ الله يقينا من التعميمات»»، «شكراً لك على درس الأدب. أخبرني الآن، يا سيد كيبيش: أتستطيع حقاً أنْ تحزن على ما حلَّ بها - على ما يبدو أنكَ تعتقد أنكَ «فعلته» في حقّها - أم إنكَ فقط تحاول أنْ تبرهن لنا أنكَ رجل حسّاس وصاحب ضمير؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا تُغالِ فيه. لأنَّ هيلين *هذه* كانت ستمضي ليلة في السجن، عاجلاً أم آجلاً. إنّه قَدَرها قبل أنْ تقابلك بوقتٍ طويل. ويبدو أنَّ هكذا وقعَ اختيارها عليك - يحدوها الأمل في أنْ تنجو من السجن، ومن إهانات حتميّة أخرى. وأنت تعلم هذا، بقدر عِلمي به»

ولكن مهما قال، ومهما لجأ إلى التنمُّر، والمُحاكاة الساخرة، أو حتى

1- السارونغ: اللباس الرسمي لكلا الجنسين في أرخبيل الملايو.

محاولة ممارسة القليل جداً من السِحر لدفعي إلى نسيان الزواج والطلاق، فإنني، سواء صدَّقَ أم لم يُصدِّق، لستُ منيعاً تماماً ضد إدانة الذات عندما تصلني أخبار عن الأمراض التي قيل إنها تُحوِّل من كانت ذات يوم أميرة غربيّة تحكم الشرق إلى شيطانة تنطوي على المرارة. وسمعتُ عن إصابتها بحالة التهاب أنف موهِنة يبدو أنَّ الأدوية تعجز عن علاجها وتستلزم منها أنْ تحمل دائماً منديلاً تمسح به أنفها - وعن منخريها اللذين يُصدران صفيراً كأنَّ الريح تمرّ منهما عندما تُحقِّق متعتها. وسمعتُ قصّة طفح جلدي واسع الانتشار، ظهر على الأصابع البارعة («أيُعجبك هذا؟... هذا؟... أوه، إنّه يُعجبكِ، يا حبيبي!»)، وعلى شفتيها الواسعتين، الشهيتين («ما الذي تراه أولاً على الوجه؟ العينين أم الفم؟ يُعجبني أنكَ اكتشفتَ فمي أوّلاً») لكنَّ فم هيلين ليس قطعة اللحم الوحيدة التي تنتقم لنفسها ببطء، أو تُكفِّر عن نفسها، أو تهيمُ عشقاً، أو تنأى بنفسها عن البلى. وبما أنّي أكاد لا آكل أيّ شيء، خسرت الكثير من وزني منذ حدوث الطلاق، وللمرة الثانية في حياتي حُرِمتُ من فحولتي، حتى من تسليةٍ غير طموح كحبّ الذات. أقول لكلينغر، الذي أعطاني تلبية لطلبٍ مني عقاراً مُضاداً للكآبة، انتزعني من سريري في الصباح لكنّه تركني طوال ما تبقّى من نهاري مع مشاعر، مُبهمة، غريبة، عن شيء يُغلّفني، عن مسافات شاسعة تفصل بيني وبين القطعان المتزايدة، «ما كان ينبغي أنْ أعود إلى الوطن من أوروبا. كان ينبغي أنْ أتمادى وأُصبح قوّاد بيرغيتا. كنتُ سأصبحُ أسعد فردٍ في المجتمع، وأوفر صحّة. كان يمكن لشخصٍ آخر أنْ يقوم بتدريس الأعمال العظمى عن الخيبة ونكران الذات»، «أحقاً؟ كنتَ تفضّل أنْ تصبح قوّاداً على أنْ تكون بروفسوراً مُساعداً؟»، «هذه إحدى صِيَغ التعبيرات عن الأمر»، «صِغْها على طريقتك»، قلتُ في فورة من اليأس، «ذلك الشيء داخلي الذي انقلبتُ ضدَّه، حتى قبل أنْ أفهمَه، أو أدعه يخرج إلى الحياة... خنقتُه حتى مات... قتلته، فعلتُ ذلك حرفيّاً بين ليلةٍ وضُحاها. ولماذا؟ لماذا بحقّ الله تطلَّبَ الأمر ارتكاب *جريمة قتل*؟»

وخلال الأسابيع التي تلتْ حاولتُ، بين المكالمات الهاتفية، أنْ أصِفَ وأسجّل تاريخ هذا الشيء الذي استمررتُ، وأنا في حالتي اليائسة والخاملة، في أنْ أفكِّر فيه على أنّه «مقتول». إنني أتكلَّم الآن مُطوّلاً ليس عن هيلين

فقط، ولكن عن بيرغيتا أيضاً. ورجعتُ إلى لويس جيلينيك، وحتى إلى هيربي براتاسكي، وتحدثت عمّا يعنيه كل منهما إليّ، وما يُشيعه كل منهما فيّ من إثارة ومن رعب، وكيفيّة التعامل مع كل منهما، على طريقتي. وذات يوم في الأسبوع العشرين أو الثلاثين من فترة مناظرتنا سمّاهما كلينغر «معرض أوغادك». ولاحظَ «أنَّ للتقصير الأخلاقيّ سِحره الخاصّ بالنسبة إليك»، فقلت «وأيضاً بالنسبة إلى مؤلِّفيّ «*ماكبث*» و«*الجريمة والعقاب*». أنا آسف لأنني أوردتُ عنوانَي اثنين من الأعمال الأدبيّة، يا دكتور»، «لا بأس على الإطلاق. إنني هنا أسمع أنواعاً شتى من الأسماء. تعوّدتُ على ذلك»، «يبدو أنّه ينتابني شعور بأنَّ ما يُناقِضُ قواعد المكان بالنسبة إليّ هو اللجوء إلى تحفّظاتي الأدبيّة وسط مناوشاتنا هذه، لكنَّ النقطة الوحيدة التي أحاول أنْ أُبرِزها هي أنَّ «التقصير الأخلاقيّ» ظلَّ يشغل تفكير الجادّين من الناس منذ زمن بعيد. ولماذا «المُقصّرون» على أيّة حال؟ لمَ لا يشغل «المُستقلّون» تفكيرهم؟ إنَّ ذلك ليس *أقلّ* دقَّة»، «إنَّ كل ما أرمي إليه هو أنهم ليسوا غير مؤذين بصورة كاملة»، «ألا تعتقد أنّ الأشخاص غير المؤذين بصورة تامة يعيشون حياة ضيِّقة؟»، «ومن ناحية أخرى، لا ينبغي على المرء أنْ يستخفّ بالألم، وبالعزلة، وبالشك، وبكل شيء آخر مُزعج يمكن أنْ يُرافق هذا النوع من «الاستقلال». انظر إلى هيلين الآن»، «أرجوك، انظر إليّ الآن»، «أنا أنظر. حقاً. أعتقد أنّها أسوأ حالاً. أنت على الأقلّ لم تُقامِر بكل شيء»، «إنني عاجز عن تحقيق انتصاب، يا دكتور كلينغر. ولا أستطيع أنْ أبتسم، لهذا السبب». على الأثر يرنّ جرس هاتفه.

إنني غير مُرتبط بأي شخص أو بأي شيء، وأنجرف، أنجرف، أحياناً، بصورة مُخيفة، أغرق؛ أتشاجر مع الطبيب البارع بصورة خارقة وصاحب الحسّ السليم، ونتشاحن، ونتجادل، نناقش من جديد موضوعاً كان منبع الكثير من المرارة الشجاعة – فقط عندما أكون مستلقياً على ظهري أقوم في العموم بدور هيلين، بينما يقوم الذي يجلس بدوري أنا.

***

في كل فصل شتاء كان والداي يأتيان إلى مدينة نيويورك لكي يقضيا ثلاثة أيام أو أربعة في زيارة العائلة، والأصدقاء، والضيوف المُفضّلين. وفي أوقاتٍ

سابقة، كنا نُقيم كلّنا في جادّة ويست إند مع شقيق والدي الأصغر، لاري، وهو متعهّد مأكولات حلال، وزوجته، سيلفيا، نسخة بينفينوتو تشيلليني[1] في صناعة المُعجّنات، وفي عهد طفولتي، كانت عمّتي المُفضّلة. وحتى بلوغي سن الرابعة عشرة، كنتُ أشعر ببهجة مُدهشة عندما تضعني في السرير في الغرفة نفسها مع ابنة عمي لورين. كان النوم بجوار سرير يضمّ فتاةً حيّة – أي فتاة «تنضج» – والخروج لتناول وجبة العشاء في مطعم موسكوفيتش ولوبوفيتش (طعام يصِفه والدي بأنّه يكاد يكون مُعدّاً تقريباً بالطريقة الجيدة التي يُعدّ بها في مطابخ مُنتجع هنغاريان رويال)، والانتظار وسط درجات حرارة تهبط إلى ما دون الصِفر لكي أتمكَّن من مُشاهدة فرقة الروكيت، ورشف الكاكاو وسط الأقمشة الثقيلة ومجموعة الأثاث المهيب في مخازن بيع الخردة بالجملة وتجّار الإنتاج الذين لم أرهم إلّا وهم يرتدون قمصانهم الفضفاضة ذات الأكمام القصيرة وملابس السباحة الفضفاضة، والذين كان والده يُسمّيهم ملك التفاح وملك سمك الرنكة وملك البيجاما – بل كل ما يكتنف تلك الزيارات إلى نيويورك كان ينطوي على إثارة سريّة بالنسبة إليّ، وجرّاء «الإثارة الغامرة» كنتُ دائماً أُصاب بـ «المكوّرات العُقديّة في الحنجرة» وأنا أقود السيارة في طريق عودتي إلى المنزل، وفي أثناء عودتنا إلى أعلى جبلنا لكي أقضي على الأقلّ يومين أو ثلاثة في السرير ريثما أبرأ. قلت متجهّماً، قُبيل رحيلنا بثوانٍ «لم نزُر هيربي» – فأعطتْ أمي ردَّها الدائم، «ألا يكفيك قضاء صيف كامل معه؟ هل يجب أنْ نسافر إلى بروكلين لكي نقوم بجولة خاصّة؟»، فقال والدي «إنّه يُضايقكِ، يا بيل»، وقام بهزّ قبضته خِلسة في وجهي، كأنّني لا أستحق أقلّ من ضربة على رأسي لأنني أتيت على ذِكر ملك الضراط.

والآن بعد أنْ رجعتُ إلى الشرق وبقيَ عمّي وعمّتي يُقيمان في سيدارهيرست، في لونغ أيلند، أجبت عبر الهاتف على رسالة وصلتني من والدي ووجّهتُ دعوة إلى أبويّ للإقامة في شقّتي بل النزول في الفندق عندما جاءا من أجل قيامهما بزيارتهما السنويّة الشتويّة. والغرفتان اللتان

1- بينفينوتو تشيلليني (1500–1571): صائغ، ومثّال ومؤلّف إيطالي. بالإضافة إلى تماثيله معروف أيضاً بسيرته الذاتيّة. – المترجم

في الشارع الخامس والسبعين الغربيّ ليستا في الواقع ملكي، ولكن تمَّ استئجارهما من الباطن، مفروشتين، عبر إعلان ورد في صحيفة التايمز من ممثِّل شابّ كان قد ذهب لكي يُجرِّب حظّه في هوليوود. كان يُغطّي جدران غرفة النوم فولاذ دمشقيّ قرمزيّ اللون وعلى رفّ الحمّام صُفَّتْ زجاجات العطر، واكتشفت داخل صناديق في مؤخّر الخزانة المكسوّة بالكتّان عدداً من قطع الشَعر المُستعار. وفي ليلة اكتشافي لها أشبعتُ فضولي بتجريب عدد منها على رأسي. فبدوت بها أشبه بخالتي.

ذات ليلة، مع اقتراب بداية احتلالي المكان، رنَّ جرس الهاتف وسألني رجل، «أين مارك؟»، «إنه في كاليفورنيا، وسوف يبقى هناك على مدى عامَين»، «نعم، طبعاً. اسمع، أخبره فقط أنَّ والي موجود في المدينة»، «لكنّه ليس هنا. ولكن لديّ عنوانه»، وبدأتُ أسرده عليه، لكنَّ الصوت، الذي أصبحَ أجشّ وغاضباً، قاطعني، «إذنْ مَنْ أنت؟»، «أنا المُستأجِر لديه»، «أهذا ما يُسمّونه في الـ thee – yater؟ ما هو شكلك، أيّها الأنيق؟ أنتَ أيضاً لديك عينان زرقاوان؟». وعندما أصبحت المكالمات الهاتفيّة تزداد، قمتُ بتغيير رقم هاتفي، لكنَّ المكالمات البارعة استمرتْ بالتوافُد عن طريق الهاتف الداخلي الذي يربط الشقّة برواق الطابق السفلي ذي الحجارة البنيّة. يجب أنْ تُخبر صاحبك الحقير–»، «مارك في كاليفورنيا، ويمكنكَ أنْ تتصل به هناك»، «ها ها – هذه نكتة جيدة. ما اسمكَ، أيّها الأنيق؟ اهبط إلى مدخل الباب وسوف نرى إنْ كنتُ أستطيع أنْ أتواصل معك»، «كفى، والي، دعني وشأني. لقد رحل. ابتعِدْ عني»، «أنتَ أيضاً تحبّ النوع الخشن؟»، «أوه، هلّا غربتَ عن وجهي؟». هكذا كان يدور الغزل.

خلال الليالي التي أشعر فيها أنني في أسوأ حالات الوحشة، عندما أبدأ بالتحدث مع نفسي ومع أناسٍ لا وجود لهم. أحياناً أُضطر إلى كبت إلحاح قويّ لطلب المُساعدة عبر الهاتف الداخليّ. وما منعني عن ذلك ليس كونه بلا معنى، بل بالأحرى الخوف من أنْ يكون أحد جيراني أو، أسوأ من ذلك، المريض والي، واقفاً في الممرّ بينما صراخي العالي النبرة يتصاعد؛ إنَّ ما أخشى هو نوع المساعدة التي قد أتلقّاها – إذا لم يكن المثليّ المتودّد إليّ، ففرقة طوارئ بيلفيو. بدل ذلك ذهبتُ إلى الحمّام، وأغلقتُ الباب خلفي،

وملتُ نحو المرآة لكي أتمعّن النظر إلى وجهي الممتقع، وقلت «أريد شخصاً ما! أريد شخصاً ما! أريد شخصاً ما!». أحياناً أستطيع أنْ أستمرّ هكذا على امتداد بضع دقائق متواصلة في محاولة لاستحضار نوبة بكاء تُرهقني وتُفرِغني، ولو لبعض الوقت على الأقلّ، ومن اشتياقٍ إلى نوبة أخرى. وطبعاً لم *أتمادَ* إلى درجة الاعتقاد أنَّ الصراخ بصوتٍ مرتفع داخل حيِّز مُغلَق سوف يدفع ذلك الآخر إلى الظهور. وزيادة على ذلك، مَنْ هو؟ لو كنتُ أعلم لما اضطررتُ إلى الصراخ في وجه المرآة - كان في وسعي أنْ أكتب أو أتّصل هاتفيّاً. صرختُ، *أريد شخصاً ما* - هنا وصل والدي.

حملتُ حقائبهما إلى الطابق العُلويّ بينما حمل والدي بمشقّة المُبرِّد الإسكتلندي الممتلئ بكميّة كبيرة من الحاويات البلاستيكيّة المُدوَّرة التي تضم حساء الملفوف، وحساء كرات الخبز، وحساء البيض مع الشعيريّة، وشرائح اللحم السميكة، وكلّها مُجمَّدة ومُصنَّفة بشكل أنيق. وداخل الشقّة أخرجتْ أمي مُغلَّفاً من كيس نقودها - مطبوعاً عليه اسم «ديفيد» في المركز بالضبط ووُضِع تحته خطّ أحمر. كان المُغلَّف يتضمَّن إرشادات موجَّهة إليّ مطبوعة بالآلة الكاتبة على قرطاسيّة الفندق: الزمن الذي يستغرقه ذوبان التجمُّد وتسخين كل طبق، وتفاصيل بخصوص التوابل. قالت «اقرأها وانظر إنْ كانت لديك أيّة أسئلة»، وقال والدي «ما رأيكِ في أنْ يقرأها بعد أنْ تخلعي معطفكِ وتجلسي؟»، قالتْ «أنا بخير»، فقال لها «تبدين مُتعَبة». «ديفيد، هل لديك حيِّز كافٍ داخل مُجمِّدة ثلاجتك؟ لم أكنْ أعلم أنَّ المُجمِّدة لديك فسيحة جداً»، قلتُ بخِفّة، «ماما، يمكن توفير حيِّز». ولكنْ عندما فتحتُ الثلاّجة أصدرتْ أنيناً كأنَّ أحداً حزَّ نحرها. هتفتْ «أليس لديك إلّا هذا؟ انظر إلى هذا الليمون، يبدو أكبر سنّاً مني. كيف تأكل؟»، «خارج المنزل، في الغالب»، «لقد أخبرني والدك أنني أُغالي»، فقال لها «كنتِ مُتعبة، وكنتِ *فعلاً* تُغالين»، قالتْ «كنتُ أعلم أنّه لا يُحسِن الاعتناء بنفسه»، فقال «أنتِ التي ينبغي أنْ تعتني بنفسها»، سألتُ «ما هذا؟ ما خطبكِ، ماما؟»، «إنني أُعاني من ذات الجنب، ووالدك يُزيد معاناتي. إنني أشعر ببعض الألم عندما أقوم بالحياكة مدة طويلة. وهذه كل ما أنال من كل النقود التي أُنفِقها على الأطباء وإجراء الفحوصات»

لم تكن تعلم - ولا أنا كنتُ أعلم، إلى أنْ رافقني والدي في صباح اليوم التالي من أجل شراء صحيفة وبعض الأشياء من أجل وجبة الإفطار ومن ثم لكي يأخذني بكل رصانة إلى حيث كان لاري وسيلفيا يُنزلاننا في جادّة الويست إند - أنّها تحتضر بفعل إصابتها بالسرطان الذي كان قد أخذَ ينتشر انطلاقاً من البنكرياس. إذن هذا يُفسِّر ما ورد في رسالته، «ربما إذا أقمنا معك هذه المرة فقط...». فهل يُفسِّر أيضاً طلبها زيارة معالِم لم تقُم بزيارتها منذ عقود؟ أكاد أعتقد أنّها تعرف ما الذي يحدث والغرض من هذا العَرض المُبهرج هو أنْ توفِّر عليه هو معرفة أنّها تعرف. إنَّ كلاً منهما يحمي الآخر من سماع الحقيقة الرهيبة - ووالداي يُشبهان طفلين شجاعين وعاجزين... ماذا في وسعي أنْ أفعل في هذا الأمر؟ وفي طريق عودتنا إلى شقّتي أسأله، بينما كنا كلانا نبكي، «تقول ستموت - *متى*؟». على مدى بضع لحظات يعجز عن إعطاء جواب. وأخيراً ينجح في قول «هذا أسوأ جزء من الوضع. خمسة أسابيع، خمسة أشهر، خمسة أعوام - خمس *دقائق*. إنَّ كل طبيب يُخبرني شيئاً مُختلفاً!»

لدى عودتنا إلى الشقّة طلبتْ مني من جديد «هلّا أخذتنا إلى غرينيتش فيليج؟ هلّا أخذتنا إلى متحف المتروبوليتان للفنون؟ عندما كنتُ أعمل لمصلحة السيد كلارك كانت إحدى الفتيات هناك تأكل ألذّ أنواع الشعيريّة الخضراء في المطعم الإيطالي في منطقة غرينيتش فيليج. ليتني أتذكَّر اسمه. أتُراه مطعم توني، يا آبيه؟»، قال والدي، بصوت مشوبٍ بنبرة من الحزن، «حبيبتي، لا يمكن أنْ يكون لا يزال قائماً هناك حتى يومنا هذا»، التفتتْ نحوي بحماسة وقالتْ، «سوف نلقي نظرة - ربما ما زال موجوداً! أوه، ديفيد، كم كان السيد كلارك يُحبّ متحف الفنون! في كل يوم أحد، كان يُرافق أولاده إلى هناك لمشاهدة اللوحات الفنيّة مع تقدّمهم في العمر»

كنتُ أرافقهما إلى كل مكان، لمشاهدة لوحات رامبرانت الشهيرة في متحف المتروبوليتان، ولكي نبحث عن مطعم توني الذي يُقدِّم الشعيريّة الخضراء، ولزيارة أعزّ أصدقائهما القُدامى، بعضهم لم أره منذ أكثر من خمسة عشر عاماً لكنهم قبّلوني وعانقوني كأنني لا أزال طفلاً، ومن ثم يطرحون عليّ أسئلة جديّة، عن وضع العالم لأنني بروفسور؛ ونذهب، كما

في الأيام الخوالي، إلى حديقة الحيوان وإلى مركز نموذج النظام الشمسيّ وختاماً نقوم برحلة إلى المبنى الذي كانت تعمل فيه ذات يوم سكرتيرة قانونيّة. وبعد تناول الغداء في الحيّ الصينيّ، توقفنا عند تقاطُع شارعيّ بورد ووال ستريتس بعد ظهيرة يوم أحد شديد البرودة، وكما يحدث دائماً، باشرتْ بكل براءة بسرد ذكرياتها عن أيامها التي أمضتها في الشركة. قلتُ في نفسي، كم كان سيكون الأمر مختلفاً بالنسبة إليها لو أنّها استمرّتْ في العمل لمصلحة السيد كلارك طوال حياتها، وأصبحت إحدى تللك العوانس العذارى اللواتي يعشقن رئيسهن الأبويّ في العمل ويقمنَ بدور العمّة لأطفال الرئيس في أيام العطل. ولولا المتطلّبات التي لا تنتهي للفندق - المنتجع الذي تُديره العائلة لعرفت بعض السكينة وعاشت في تناغُم مع مواهبها البسيطة في الترتيب والنظام وليس تحت رحمتها. ومن ناحية أخرى، ما كانت ستعرف والدي وتنجبني - ولما كنا خرجنا إلى ***الوجود***. لولا، لولا... لولا ماذا؟ لولا أنّها لم تُصَب بالسرطان.

ناما على سرير مزدوَج في غرفة النوم وبقيتُ أنا يقِظاً تحت الغطاء على أريكة غرفة الجلوس. تكاد أمي تتلاشى - إلى هنا وصل الأمر. وآخر ذكرى تحملها عن طفلها الوحيد هي عن وجوده الباهت، العابر - الذكرى الأخيرة سوف تكون عن شراب الليمون هذا الذي أعيش به! أوه، ما أشدّ الاشمئزاز والندم اللذين أتذكَّر بهما سلسلة الأخطاء - كلا، بل الخطأ الوحيد المعتاد والمُتكرِّر - التي جعلت من غرفتيّ النوم هاتين منزلاً لي. وبدل أنْ نكون عدوّين، بدل أنْ يمنح كلٌّ منا الآخر عدوّاً ***مثاليّاً***، لِمَ لمْ نُسخِّر أنا وهيلين ذلك الجهد من أجل إرضاء كلّ منا الآخر، من أجل عيش حياة راسخة ومتفانية؟ أهذا أمرٌ صعب على اثنين من ذوي الإرادة الصلبة؟ أكان ***ينبغي*** أنْ أقول منذ البداية، «انظري، نحن ننتظر طفلاً»، وأنا أتمدّد هناك أصغي إلى آخر أنفاس أمي، وأحاول أنْ أتلاءم مع اتخاذ قرار جديد: يجب، ***سوف***، أُنهي هذا الأمر العبثيّ، التافه... وتُقاطِعُ إليزابيث، ذات المُدلّاة التي تُحيط بجيدها وبذراعها المكسور الذي برؤ، من دون الناس جميعاً، أفكاري. كم ستكون عذبة، ومُرحِّبة بوالدي الأرمل! ولكن من دون وجود امرأة كإليزابيث، ماذا في مقدوري أنْ أفعل من أجله؟ كيف يمكن أنْ يستمر في الحياة هناك وحده؟

آه، لماذا يجب أنْ تقف هيلين وبيرغيتا على طرفٍ قصيّ من الحياة ومشروب عصير الليمون على الطرف المقابل؟

مع مرور دقائق الأرق - أو، بالأحرى، كأنها لا تمرّ البتّة - بدتْ كل الأفكار التي يمكن أنْ تُسبِّب لي البؤس كأنها تندمج لتُصبح كلمة لا معنى لها ولا شكل لن تدعني وشأني. ولكي أتحرَّر من عبوديّتها التافهة، بدأتُ أتقلَّب بغضب بين طرَفيّ الأريكة. شعرتُ كأنني على حافّة خدار عميق - أغوصُ داخل سكرات آلام الأماكن الضيقة التي تُسبّبها حجرة الطوارئ، ورأيتها آخر مرَّة وأنا في سن الثانية عشرة، إبّان استئصال الزائدة الدوديّة - إلى أنْ انحلَّت الكلمة أخيراً وأصبحتْ سلسلة من مفاتيح أحرف الآلة الكاتبة تُقرأ من اليسار إلى اليمين، التي علَّمتني أمي أنْ أضع رؤوس أصابعي عليها عندما كانت تعلّمني الضرب على آلة ريمنغتون الخاصة بها التي لا تُصدر ضجيجاً. والآن بعد أنْ عرِفتُ مصدر هذه الفوضى الأبجديّة المُبتذلة، أصبح الأمر أسوأ. وكأنّها **فعلاً** كلمة أصلاً، الكلمة التي تنطوي مقاطعها اللفظيّة العصيّة على النُطق على كل ألم طاقاتها المكتومة وحياتها المسعورة. ثم هناك ألمي الخاص. وفجأة رأيتُ نفسي أتصارع مع والدي حول نقش ضريحها، كان كل منا يدفع الآخر على صخور ضخمة، بينما كنتُ أُلحُّ على الحجّار أنْ ينقش الأحرف ASDFGHJKL تحت اسمها على شاهد القبر.

النوم يُجافيني. أتساءلُ إنْ كان من الممكن ألّا أنام أبداً بعد الآن. كانت أفكاري كلّها إمّا بسيطة أو مجنونة، وبعد قليل لم أعُد أستطيع التمييز بينها. أريد أنْ أدخل غرفة النوم وأنام على سريرهما. وقمتُ في عقلي بالتدرُّب على كيفيّة فعل ذلك. ولكي أُخفِّف من خوفهما الأوّليّ، سوف أجلسُ أولاً على حافة السرير وأتحدث بهدوء معهما حول أفضل أوقات الماضي وأنظر إلى وجهيهما المألوفَين المتجاورَين على الوسادة الجديدة، إلى وجهيهما المُحدِّقين إليّ من فوق الغطاء المرفوع حتى مستوى ذقنيهما. سوف أُذكِّرهما بالزمن الطويل الذي مرّ منذ أنْ انضممنا كلنا تحت غطاء سرير كبير واحد. ألم يحدث ذلك داخل كوخ السيّاح بجوار ليك بلاسيد؟ أتذكران تلك الحجرة الصغيرة؟ أكان ذلك في عام 1940 أم 41؟ وإذا لم أكن مُخطئاً ألم يُكلِّف ذلك والدي دولاراً واحداً فقط في الليلة الواحدة؟ ورأتْ

أمّي أنّه سيفيدني أنْ أشاهد الألف جزيرة وشلالات نياغارا خلال فترة عطلة عيد الفصح. وانطلقنا إلى هناك بسيارة الدودج. أتذكران، لقد أخبرتنا كيف أنَّ السيد كلارك كان يأخذ صِبيته الصِغار لمشاهدة مناظر أوروبا الطبيعيّة؛ أتذكران كل تلك الأشياء التي أخبرتماني عنها ولم أكنْ قد سمعتُ عنها؛ يا الله، أتذكران عندما رجعنا أنا وأنتما بسيارة الدودج الصغيرة قبل نشوب الحرب... ومن ثم، عندما يبتسمان، سوف أخلع مبذلي وأزحف بينهما. وقبل أنْ تموت، سوف نتعانق كلنا معاً ونبقى كذلك طوال الليل والصباح. مَنْ سيعرف هذا، بغضّ النظر عن كلينغر، ولماذا يجب أنْ أهتمّ بما يفهم هو أو أي شخص آخر منه؟

عند حوالي منتصف الليل، يرنّ جرس الباب. عند المُجيب الداخلي في المطبخ الصغير أضغط ذراع العتلة وأسأل، «مَن المتكلِّم؟»

«أنا السمكري، يا حلو. في آخر مرّة لم تكن موجوداً. كيف حال الرشح عندك، ألم تُصلحه بعد؟»

لم أُجِبْ. جاء والدي إلى غرفة الجلوس مرتدياً مبذله. «أهذا شخص تعرفه؟ في مثل هذه الساعة؟»

قلت، بينما أصبح الجرس يرنّ الآن على إيقاع أغنية «حلاقة ذقن وقصّ شعر»، «إنّه مُجرّد مُهرِّج»

هتفتْ أمي من غرفة النوم، «مَن المُتكلِّم؟»

«لا أحد، يا أمي. عودي إلى النوم»

قرّرتُ أنْ أتكلَّم عبر الهاتف الداخلي مرة أخرى. «كفى وإلّا استدعيتُ الشرطة»

«استدعهم. أنا لا أقوم بأي شيء يستدعي إقامة دعوى، يا فتى. لِمَ لا تدعني أصعد ببساطة؟ أنت تعلم أنني لستُ شريراً جزئيّاً. أنا شرير كُليّاً»

شحبَ قليلاً لون والدي، الذي كان واقفاً بجواري ويُصغي.

قلت «أبي، عُد إلى السرير. إنّه مجرد أحد الأشياء التي تحدث في نيويورك. أي لا أهمية لها»

«أهو يعرفك؟»

«كلا»

«إذن كيف عرف طريقك إلى هنا؟ لِمَ يتحدث بهذه اللهجة؟»

فترة صمت، ثم رن الجرس من جديد.

قلتُ، من خلال غضبي هذه المرَّة، «إنَّ الشخص الذي أستأجِر منه بالباطن مثليّ جنسيّاً – وحسب ما أتذكَّر فإنَّ هذا صديق له»

«أهو يهوديّ؟»

«تقصد الذي أستأجِر منه؟ نعم»

قال والدي ساخراً «يا إلهي، ما **خطب** شخص كهذا؟»

«أعتقد أنني سوف أُضطر إلى النزول إلى الطابق السفليّ»

«وحدك؟»

«سوف أكون بخير»

«لا تكن مجنوناً – إنَّ اثنين أفضل من واحد. سوف أرافقك»

«أبي، لا داعي لهذا»

هتفتْ أمي من غرفة النوم، «والآن ماذا يحدث؟»

قال والدي «لا شيء. جرس الباب مُعطَّل. سوف نهبط لكي نُصلحه»

هتفتْ أمي «في مثل هذه الساعة؟»

قال والدي لها «لن نغيب طويلاً. الزمي السرير»، ويهمس لي، «ألديك عصا، أو مضرب أو ما شابه؟»

«كلا، كلا–»

«ماذا لو كان مُسلَّحاً؟ ألديك مظلّة، على الأقلّ؟»

في تلك الأثناء، كان الرنين قد توقَّف. قلت «لعلّه رحل»

أصغى والدي.

قلت «لقد رحل. غادر»

ولكن لم يكن في نيّة والدي أنْ يعود إلى السرير في الحال. همس لأمّي وهو يُغلِق باب غرفة النوم – «هسسسس. كل شيء بخير، عودي إلى النوم» – جاء لكي يجلس قبالة الأريكة. وسمعتُ مدى عمق تنفّسه وهو

يستعدّ للتحدّث. أما أنا فلم أكن مرتاحاً كثيراً. استندتُ بثبات إلى الوسادة، وانتظرتُ بدء رنين الجرس من جديد.

تتنحنحَ - «لا أظنكَ متورطاً بشيء تريد أنْ تُخبرني عنه...»

«لا تكن سخيفاً»

«لأنكَ غادرتنا، يا ديفي، وأنتَ في السابعة عشرة ومنذ ذلك الحين لم يعُد هناك تدخُّل في نوع التأثيرات التي تركتَ نفسك تتعرَّض لها»

«أبي، أنا لا أخضع لأي «تأثيرات»»

«أريد أنْ أسألك. بلا مُقدّمات»

«اسأل»

«ليس عن هيلين. أنا لم أسألك قط حول هذا الموضوع، ولا أريد أنْ أبدأ به الآن. لطالما عاملتُها ككنّة. ألم أفعل، ألم تفعل أمك هذا، ودائماً باحترام-؟»

«نعم، بلا أدنى شك»

«لقد لجمتُ لساني. لم نُرِد منها أنْ تنقلب ضدّنا. ليس لديها أي شيء ضدنا حتى يومنا هذا. إنَّ كل شيء موضوع في الحسبان. أعتقد أننا أبلينا بلاءً حسناً. أنا إنسان ليبرالي، يا بنيّ - وسياستي أشدّ ليبراليّة. أتعلم أنني في عام 1924 صوّتُ لمصلحة نورمان توماس في انتخابات حاكم نيويورك وكانت المرّة الأولى التي أنتخب فيها؟ وفي عام 1948 صوّتُ لمصلحة هنري والاس - ربما لم يكن لذلك أي معنى وكان غلطة، لكنَّ المهم هو أنني ربما كنتُ الوحيد الذي يمتلك فندقاً في البلاد كلّها ويُصوّتُ لمصلحة شخص ينعته الجميع بأنّه شيوعيّ. وهذا غير صحيح - لكنَّ الأمر الهامّ هو أنني لم أكنْ يوماً ضيِق الأفق، قط. كما تعلم - وإذا لم تكن تعلم، فيجب أنْ تعلم - ليس ما أزعجني هو أنَّ المرأة ليست يهوديّة. فغير اليهوديات حقيقة واقعة ولن يختفين لمجرّد أنَّ الآباء اليهود ربما يُفضّلون ذلك. ولِمَ يفضّلون ذلك؟ إنني أؤمن بتعايُش الأعراق كلّها والأديان بوئام، وزواجك من فتاة غير يهوديّة لم يكن أمراً هاماً بالنسبة إلى أمك وإليّ. وأعتقد أننا أبلينا بلاءً حَسَناً في هذا المجال. ولكن هذا لا يعني أننا نستطيع أنْ نتحمّل الجوانب الأخرى

منها ومن مواقفها. وحقيقة المسألة، إذا أردتَ معرفتها، هي أنني لم أحظَ بليلة نوم هانئ على مدى سنوات زواجك الثلاث»

«في الواقع، ولا أنا»

«أصحيحٌ هذا؟ إذن فلِمَ لم تفلت بجلدك؟ لِمَ تورّطت منذ البداية في تلك الفوضى؟»

«تريد مني أنْ أخرج من تلك المنطقة، أليس كذلك؟»

«كلا، كلا -أنتَ على صواب- اللعنة على هذا. من ناحيتي، إذا لم أسمع اسمها بعد الآن، فذلك لن يحدث قريباً جداً. لستُ مهتماً إلّا بك»

«ما هو سؤالك؟»

«ديفيد، ما هو التوفرانيل، لقد عثرتُ عليه في صيدليتك المنزليّة، الزجاجة الكبيرة الممتلئة؟ لِمَ تتعاطى هذا العقّار؟»

«إنّه مُضاد للاكتئاب. التوفرانيل»

يُصدر هسيساً. مُشمئزاً، مُحبَطاً، وغير مُصدِّق، ومُمتعِضاً. لابد أنني سمعتُ أوّلاً ذلك الصوت يصدر عنه قبل زمن بعيد، عندما اضطُرَّ إلى طرد نادل بلَّلَ سريره وأشاع رائحة كريهة في العليّة التي ينام فيها الخدم. «*وما* حاجتك إليه؟ مَنْ نصحكَ بتناول عقّار كهذا وحقنه في مجرى دمكَ؟»

«طبيب نفسي»

«أتلجأ إلى طبيب نفسيّ؟»

«نعم»

هتفَ «*لِمَ*؟»

«لكي يجعلني أطفو. لكي أتبيَّن الأشياء. لكي أجد مَنْ أأتمنه على... سرّي»

«لِمَ لا تجد زوجة تتحدث معها؟ هذه هي وظيفة الزوجة! أعني هذه المرة زوجة *حقيقيّة*، وليست امرأة يُكلّفكَ ارتيادها صالونات التجميل راتبك الكامل الذي تناله من التدريس. إنَّ هذا كلّه *خطأ* يا بنيّ. ولا يصلح أسلوباً في الحياة! طبيب نفسي، وتعاطي عقاقير قويّة التأثير، وأناس يظهرون في أي ساعة - أناسٌ ليسوا حتى أناساً-»

«ليس هناك ما يستحق الغضب بشأنه»

«بل *كل شيء* يُثير الغضب»

قلتُ، بصوتٍ منخفض «كلا، كلا، يا أبي، هناك فقط أمي...»

غطّى عينيه بإحدى يديه وطفَقَ يبكي بسرعة. وضمّ يده الأخرى على شكل قبضة وأخذَ يُهددني بها. «هكذا اضطررتُ أنْ أكون طوال حياتي! *من دون* أطباء نفسيين، *ومن دون* أقراص السعادة! أنا رجل لا أستسلم أبداً!»

من جديد، رنَّ جرس الباب في الطابق السفليّ.

«دعكَ منه. دعه يرنّ. سوف يرحل يا أبي»

«ومن ثم يعود؟ سوف أُحطِّم جُمجمته، وصدِّقني، عندئذٍ سوف يرحل ولن يعود أبداً!»

هنا فُتِحَ باب غرفة النوم وظهرتْ أمي بقميص نومها. «مَن الذي ستكسر رأسه؟»

«أحد المثليين القذرين العفنين الذين يُلاحقونه!»

رنَّ الجرس من جديد: رنّتين قصيرتين، وواحدة طويلة. كان والدي ثملاً. هذه المرة ظهرت الدموع في عينيها *هي*، وقالت أمي النحيلة، «ومنذ متى يحدث هذا؟»

«منذ عهد قريب»

«ولكنْ – لِمَ لا تُبلِّغ عنه السلطات؟»

«لأنّه مع وصول رجال الشرطة سيكون هو قد رحل. ولا أعتقد أنكِ في حاجة إلى استدعاء الشرطة من أجل أمرٍ كهذا»

قال والدي «هل تُقسِم لي بأنكَ لا تعرفه؟»

«أُقسِمُ لك»

جاءت أمي إلى غرفة الجلوس وجلستْ إلى جواري. أمسكتْ بيدي وشدَّتْ عليها. أصغينا نحن الثلاثة إلى رنين الجرس – الأم، والأب، والابن.

قال والدي «أتعلم ما الذي سيُبعِد ابن الحرام هذا إلى الأبد؟ الماء المغلي»

صرختْ أمي «*آبيه!*»

«لكنَّ ذلك سيُعلِّمه أنَّه لا ينتمي إلى هذا المكان!»
«أبي، لا ينبغي أنْ تبالغ في جديّة التعامُل مع الأمر»
«وعليك أنت ألّا تستهين به! لِمَ *ترافق* هذا النوع من الأشخاص؟»
«لكنّي لا أرافقهم»
«إذن لِمَ تُقيم في مكانٍ كهذا، حيث يظهرون ويُسبّبون لك المشاكل؟ أما زلت تحتاج إلى المزيد من المشاكل؟»
قالتْ أمي «اهدأ، أرجوك. ليس *ذنبه* أنَّ هناك مهووساً يرن جرس الباب. هذه نيويورك. كما أخبرك. وهذا يحدث هنا»
«هذا لا يعني أنْ تتركي نفسك بلا حماية، يا بيل!» وقفز عن كرسيه، واندفعَ نحو جهاز الاتصال الداخليّ. صرخ «هيه! أنت! كُفَّ عن هذا"! أنا والد ديفيد-!»
همستُ وأنا أداعب ذراعها، النحيلة، «لا بأس، لا بأس، إنّه لا يتعامل مع الأمر بشكل صحيح في كل الأحوال. لا تقلقي، يا أمي، أرجوك - إنَّ الرجل لا يسمعه أصلاً»
«- إذا أردتَ أنْ تحصل على حروق من الدرجة الثالثة، سوف نُعطيها لك! افعل ما تشاء في مجرور في مكان ما، ولكن إذا كنتَ تعرف مصلحتك، فلا تقترب من ابني!»
بعد ذلك بشهرين توفيتْ أمي في مستشفى في كينغستون. وبعد انتهاء مراسم الجنازة غادر الضيوف كلهم، وحثّني والدي على أخذ الطعام الذي كانت قد وضعته في المُجمِّدة من أجلي قبلَ ذلك بشهر، وهو آخر ما طبخَتْ على هذه الأرض. قلت «وماذا ستأكل *أنت*؟»، «أنا رجل أحبّ الوجبات السريعة حتى من قبل أنْ تولَد. خذه. خُذ ما أعدَّتْ من أجلك»، «أبي، كيف ستعيش هنا وحدك؟ كيف ستتمكّن من تدبير شؤون الطعام؟ لِمَ أبعدتَ الجميع عنك؟ لا تُغال في إبداء الشجاعة. لا يمكنكَ أنْ تبقى هنا وحدك»، «أستطيع أنْ أعتني بنفسي جيداً. إنَّ رحيلها لم يكن أمراً غير متوقَّع. أرجوك، خذه. خذه كله. إنها إرادتها. كانت كلّما تذكَّرَتْ داخل ثلاجتك تقول إنها تستشيط غضباً.»، ثم قال بصوتٍ مُرتعش، «لقد طبخت من أجلك، ومن ثم

رحلتْ»، وبدأ يجهش بالبكاء. أحطته بذراعيّ. قال «لا أحد فهمها، أقصد الضيوف، أبداً، *أبداً*. كانتْ مخلوقا طيباً، يا ديفيد. عندما كانت شابّة، كان كل شيء يُثير حماسها، بل أصغر الأشياء. ولم تكن أعصابها تتوتّر إلّا عندما تُصبح أجواء الصيف محمومة، وجامحة. لذلك سخروا منها. ولكن هل تتذكّر الشتاء؟ السكينة والهدوء؟ والمرح الذي استمتعنا به؟ أتتذكّر الرسائل في الليل؟»، هذه الكلمات تركتْ أثرها: للمرة الأولى منذ وفاتها في صباح اليوم السابق. وانهرتُ تماماً. «طبعاً أتذكَّر، حتماً»، «أوه، يا بنيّ، كان ذلك يحدث وهي على سجيّتها. ولكن مَنْ يعرف هذا؟»، قلتُ له «نحن نعرفه»، لكنّه كرَّر القول، مع نشيجٍ غاضب، «مَنْ كان يعرفه!»

حمل الطعام المُجمَّد داخل حقيبة تسوُّق إلى سيارتي. «خذه، أرجوك، في ذِكراها»، وهكذا رجعتُ إلى نيويورك مع عدد من الأوعية كلٌّ منها يضم الرقعة المكتوبة نفسها «لسان مع صلصة الزبيب الشهيرة التي صنعتها الجَدَّة - حصّتان»

في غضون أسبوع، قدتُ سيارتي عائداً إلى الريف، هذه المرة مع العمّ لاري، لكي نأخذ والدي إلى سيدارهيرست، حيث كان سينتقل مع أخيه وزوجة أخيه. ولكن فقط مؤقّتاً، كما قال بينما كنا نحمل حوائجه إلى السيارة؛ فقط إلى أنْ يتجاوز الصدمة. كان متأكّداً من أنّه سوف يستعيد توازنه بعد بضعة أيام. يجب أنْ يستعيده، هذا كل شيء. قال «إنني أعمل منذ أنْ كنتُ في الرابعة عشرة. والمرء لا يستسلم لشيءٍ كهذا. بل تتمالك نفسك وتستمرّ». ثم، نحن في الشتاء، وهناك دائماً خطر وقوع حريق. نعم، سوف يُقيمُ العامل وزوجته في الطابق الأرضيّ، ولكنْ هذا ليس ضماناً ضد احتمال وقوع حريق في الفندق وانهياره في أثناء غيابه.

صحيح، طبعاً، أنَّ العديد من الحرائق الغامضة اندلعتْ في فنادق مهجورة وفي شقق للإيجار منذ أنْ بدأت المنطقة تُصبح عتيقة الطراز كمُنتَجَع صيفيّ خاصّ باليهود في الوقت الذي كنتُ أوشك أنْ ألتحق بالجامعة، ولكن لمّا كان هو وأمي قادرين، وحتى السنوات الأخيرة، على التمسّك بما تبقّى من زبائنهما العجائز والحِفاظ على المقرّ الرئيسي مفتوحاً وعلى مظهر الطابق الأرضي مُحترَماً، لم يبدُ له قبل ذلك أنَّ مُفتعلي الحرائق يُشكّلون تهديداً

حقيقياً. أما الآن ونحن على الطريق فهو لا يفكّر إلّا فيهم. ويذكر لي ولعمّي أسماء المُخرّبين المحلّيين -«إنهم رجال، في أعمار تتراوح بين الثلاثين والأربعين!»- لطالما ارتابَ في أنهم من مُفتعلي الحرائق. قال لعمّي، الذي أعطى تحليله النموذجي حول ما إذا كانت المشاكل قد بدأتْ، «كلا، كلا، ولا حتى المُعادون للساميّة. إنهم أشدّ حمقاً من أنْ يفعلوا هذا! إنهم مجرد أغبياء بسطاء تافهين ومتخلّفين، لا يليق بهم إلّا النزول في مصحّة عقليّة. إنهم مجرد أناس يُحبون مشهد اللهب! وعندما تُصبح النار رماداً، أتعلم إلى مَنْ سيوجّهون إصبع الاتّهام؟ لقد مررتُ بهذا مرّاتٍ عِدَّة. إليّ! سيقولون إنني افتعلتُ الحريق من أجل الحصول على مبلغ التأمين! لأنَّ زوجتي رحلتْ وأريد أنْ أفلت من العقاب! سوف يوضَع اللوم على سمعتي الطيبة! أتعلم مَنْ أعتقد أحياناً أنّه الفاعل في الغالب؟ إنهم متطوعو إطفاء الحريق أنفسهم! نعم - لكي يندفعوا مع سيارات الإطفاء في قلب الليل وينتشروا في الجبل بخوذهم وجزماتهم!»

حتى بعد تمركزه بارتياح فيما كان ذات يوم غرفة نوم لورين، لم تهدأ مخاوفه على الإمبراطوريّة التي بناها بعرقه وبدمه. كنتُ في كل يوم أتصل به هاتفيّاً فيُخبرني بأنّه لا يستطيع النوم بسبب قلقه من وقوع حريق. أصبحتْ لديه الآن أشياء كثيرة أخرى يقلق بشأنها. «هل عاد ذلك المثليّ من جديد؟»، قلت «كلا»، مُدرِكاً أنّه من الأفضل أنْ أكذب. قال والدي، الذي لم يكن قد ضرب أي شخص آخر في حياته، «أترى - لقد أفادنا تهديده. لسوء الحظ، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها بعض الناس، الضرب»، سألته «وكيف حال العم لاري والعمة سيلفيا؟»، «في أحسن حال. إنهما غاية في اللطف. دائماً يقولان «ابقَ»»، قلت «حسنٌ، يبدو هذا مُطمئناً». وقال لي، كلا، بعد عشرة أيام أُخَر سوف يمرّ أسوأ ما في العيش من دونها. بل يجب أنْ يمرّ. يجب أنْ يعود إلى هناك ما دام المكان اللعين ما زال سليماً!

ثم مرَّتْ خمسة أيامٍ أُخَر، ومن ثم يوم آخر، إلى أنْ حدث أخيراً، بعد نزهة عاطفيّة وحدنا بالسيارة، أنْ وافقَ على عرض منتجع هنغاريان رويال للبيع. قال، وهو يضم وجهه بيديه، «لكنني لم أستسلم مرَّة في حياتي»، «لا شيء مُشيناً في هذا، يا أبي. لقد تغيَّرت الأوضاع»، فصرخ «لكنني لا

أستسلم». قلت «لا أحد سوف يعتبر الأمر استسلاماً»، ورجعتُ به بالسيارة إلى منزل أخيه.

في تلك الفترة لم تكد تمرّ ليلة لم أفكّر فيها في الفتاة التي عرفتها مدةً لم تتجاوز الشهرين قبل ذلك وأنا في الثانية والعشرين من عمري وأُعجوبة في الممارسة الجنسيّة، الفتاة التي كانت تحيطُ جيدها بمدلّاة تضمّ صورة والدها. بل لقد فكّرتُ في مُراسلتها، بوساطة والديها. وكنتُ أنهضُ من السرير، وأُفتِّش بين أوراقي، بحثاً عن عنوانها في ستوكهولم. ولكنْ لابد أنَّ إليزابيث كانت قد تزوجتْ وأضحتْ أُمّاً ولم تعُد تفكّر فيَّ. ليس هناك امرأة حيّة تفكِّر فيّ، وحتماً ليس بحبّ.

***

على الرغم من أنَّ رئيس القسم الذي أعمل فيه، آرثر شونْبرون، رجل في منتصف العُمر وسيم وشديد الأناقة ويتمتع بسِحر طاغٍ وبحرص شديد على الشكليّات - كائن اجتماعيّ مُستقيم ولبِق كما رأيته على أرض الواقع - كانت زوجته، ديبورا، شخصاً لم أستطع أنْ أتحمّس له كثيراً، حتى عندما كنتُ طالب آرثر المُفضَّل وكانت هي دائماً مُضيفتي الكريمة والمُحِبّة. وخلال تلك السنين في جامعة ستانفورد، كنتُ أقضي جزءاً من وقتي، في الواقع، في محاولة فهم ما يجعل رجلاً شديد الدقّة بشأن اللياقة، ومهتمّاً بلا كلل بمُعارضة الهجوم السياسيّ المُستشري، انطلاقاً من المبادئ العليا، على المنهاج الدراسي الجامعي - فهم ما يربط رجلاً ذا ضمير حي بامرأة كان أداؤها العام المُفضَّل جداً هو القيام بدور السيدة المشوّشة الذهن التي يكمن سِحرها المُضلِّل في «صراحتها» المتهوّرة والوقحة؟ وفي المرة الأولى التي دعاني آرثر لتناول وجبة العشاء معهما كليهما، أتذكّر أنني قلت في نفسي في نهاية حديث السهرة - حديث يتألّف إلى حد بعيد من ثرثرة ديبورا «المُشينة» المِغناج - «لا شكَّ في أنَّ هذا الرجل هو أشدّ ما عرفتُ من الرجال إحساساً بالوحدة». كم شعرتُ بالألم وبالخيبة وأنا في سن الثالثة والعشرين بعد اطّلاعي للمرة الأولى على حياة أستاذي الأبويّ الخاصّة... لكنَّ آرثر أخبرني في اليوم التالي عن «طاقات زوجته المُذهِلة في إدارة حديث» و«موهبتها» في «الوصول إلى قلب المشكلة». وعلى هذه

المسارات، أتذكَّر ليلةً أخرى، بعد ذلك بسنوات، عندما كنا أنا وآرثر نعمل في وقتٍ متأخِّر في مكتبينا - أي أنَّ آرثر كان يعمل، بينما كنتُ على طاولة مكتبي لا أفعل شيئاً، عاجزاً كالمعتاد بشأن المأزق الخالي من الحب الذي وصلنا إليه أنا وهيلين ولا أتمتَّع بالقوة أو بالشجاعة اللازمة لحلّه. وعندما رأى آرثر أنني أبدو بكل وضوح أشدّ سكوناً من المعتاد، اقتربَ وحاول، حتى الساعة الثالثة صباحاً، أنْ يبذل أقصى جهده ليحميني من أشد أنواع الحلول جنوناً يمكن أنْ تخطر في بال زوج يعيش حالة فظيعة من التعاسة ويواجه صعوبة في دفع نفسه إلى العودة إلى المنزل. وذكّرني مراراً بمدى جودة أطروحتي. والأمر الهامّ حينئذٍ كان إعادة مُراجعتها استعداداً لطباعتها. والحقيقة، كان مُعظم ما قال آرثر لي في تلك الليلة بدا شديد الشَبَه بما قاله الدكتور كلينغر في نهاية المطاف لي عن نفسي وعن عملي، وعن هيلين. وأنا، بدوري، صببتُ أحزاني، وعند نقطة مُعيَّنة أخفضتُ وجهي على طاولة مكتبي ورحتُ أبكي. قال آرثر «لقد خمّنتُ أنَّ الأمر غاية في السوء. كلانا كنا نعلم. ولكن بقدرِ ما كان يهمّنا أمرك، لم نشعر بأنَّ من شأننا أنْ نتدخّل. لقد أصبح لدينا الآن من التجربة ما يجعلنا نعلم أنَّ هذا يحدث بين الأصدقاء، عاجلاً أو آجلاً. ومع ذلك مرّتْ أيام أردتُ خلالها أنْ أهزّك لأنك غبي كبير. أنت لا تعلم كم مرَّة أردتُ أنْ أتحدث مع ديبي حول ما يمكن عمله لدفعك إلى إنقاذ نفسك من كل تلك التعاسة. لا شيء كان يُزعجنا أكثر من تذكُّر كيف كنتَ عندما أتيتَ أول مرَّة إلى هنا، ومن ثم رؤية ما كان يحدث لك وأنت معها. ولكنْ لم يكن في وسعي أنْ أفعل أيّ شيء، يا ديفيد، إلّا إذا أتيتَ إليّ - ولكنْ أنتَ لا تتعامل مع الأشياء بهذا الأسلوب. أنتَ شخص يتمادى في تعامله مع الناس، لا أكثر، والنتيجة هي أنَّك أصبحتَ تنفرد بنفسك أكثر مما يفعل أُناسٌ كثيرون. وأنا لا أستثني نفسي من ذلك»

مع اقتراب فترة يقظته - وللمرة الأولى قاطبة - تحدّثَ آرثر عن حياته الشخصيّة كأنّنا من نفس العمر والمكانة. في عشرينيات عمره، عندما كان يعمل مُعلِّماً في مينيسوتا، هو أيضاً تورَّطَ في علاقة مع «امرأة مُدمِّرة وعُصابيّة بصورة عنيفة». مُشاجرات فاضحة علنيّة، وعمليتا إجهاض مُعذِّبتان، ويأس هائل إلى درجة أنّه توصّل إلى الاعتقاد بأنَّ الانتحار في الواقع هو الوسيلة

الوحيدة التي يستطيع بوساطتها أنْ يتحرَّر من فوضاه وألمه. وأراني ندباً صغيراً على يده، حيث كانت أمينة المكتبة الصغيرة والمجنونة والمُثيرة للشفقة، التي لم يكن يُطيقها ومع ذلك لم يستطع أنْ يتركها، قد طعنته ذات مرَّة بشوكة طعام على مائدة الإفطار... وبينما كان آرثر يُحاول أنْ يمنحني الأمل (والإرشاد) بربط سوء حظّه المُبكِّر -ومن ثم شِفائه الذي تلا- بما كنتُ أمرّ به، فإنَّ كل ما أردتُ أنْ أقول هو، «ولكن كيف تجرؤ؟ ماذا تُسمّي ما لديك الآن؟ إنَّ ديبي *مُبتذلة* جداً؛ عفويتها كلها تمثيل مُترع بالرياء؛ وصراحتها استعراض تعوزه اللباقة؛ وهي متقلِّبة بالنسبة إلى الشركة؛ وشريرة بالنسبة إلى الأب-آرثر، ولا شيء منه يعني أيّ شيء، إنّه سلوك متهوِّر ولا شيء مُعرَّض للخطر! في حين أنَّ هيلين -يا إلهي، هيلين هكذا مائة مرَّة، بل ألف مرَّة...»، ولكن طبعاً أنا لم أصِلْ إلى تلك الذُرى من السخط الشديد، بحيث أنطق مثل هذه الكلمات الحمقاء حول زيف زوجته وضحالتها ولا ضد استقامتي، وذكائي، وسِحري، وجمالي، وشجاعتي- لقد كان خضوعه لإرادة زوجته هو المسار الذي يتّبعه، وفي تلك الليلة كان خط الأحلام حول قتل الزوجة هو حتماً مساري.

هل شهامة آرثر هذه شيء يستدعي الرثاء أم يُثير الحسد؟ هل مُعلِّمي السابق والمُحسِن إليّ الحالي هو كاذب، ومازوشيّ، أم إنّه فقط عاشِق؟ أم إنَّ ديبي، بعبثها الصارخ قليلاً ومظهرها الجميل العاهر بصورة مُبهمة، هي لمسة من سوء السمعة تجعل حياةً مُزخرفة بصورة خانقة شيئاً مُحتَمَلاً؟

كلمة «مُشوَّش» Vizzied هي التشخيص الذي صاغه شاعرنا المُقيم، رالف بومْغارتن: «مُشوَّش» أو «مُبلبل» -كلتاهما صِفة مُشتقّة من «vizzy» تشوُّش وهي صيغة اسم غير شائعة تجدها منتشرة في كل أرجاء شِعر بومْغارتن، في تناغُم مع «fizzy» و«tizzy»، وشديدة القرابة بـ«fuzzy» و«buzz» وتُشير، طبعاً، إلى الفَرْج. إنَّ المبتلين بالتشوُّش- إلى هذه الفئة من الأزواج نسبَ الشاعرُ الأعزب آرثر بومغارتن -هم أولئك الذين يرضخون بخنوع لمعايير المُلكيّة والمنزلة المُحترمة التي وَضَعَتْها، كما يرى بومْغارتن، أجيالٌ من النساء من أجل تجريد الرجال من أسلحتهم وترويضهم. الترويض الذي من الواضح أنَّ الشاعر لا يتصِف بأي قدرٍ منه.

كنتُ أميل إلى الاتّفاق مع بومْغارتن على أنَّ السبب يعود جزئياً إلى موقفه الراسخ والحازم من الجنس الآخر -ومن ميوله الجنسيّة في العموم- وعلى أنَّ ذلك الجلف الأدبيّ الشابّ لن يُعاد تعيينه بعد أنْ تنتهي مدة عقده. ولكن، إنْ كان قد استجلبَ على نفسه اشمئزاز جزء من زملائنا ومن زوجاتهم، بسبب سلوكه، فإنَّ ذلك لم يُقلِّل من كونه فاضحاً بشأن ما يُحبّ والأسلوب الذي يُحبّه به. وبالنسبة إليه يبدو الاستعراض الفاضح شيئاً ممتعاً. «انتقيتُ فتاة من المُتحف الحديث، وفي أثناء خروجنا منه التقينا مُصادفةً بأصحابك، يا كيبيش. فانتزعت ديبي الفتاة وأخذتها إلى مرحاض السيدات لكي تسمع منها أخباري، وسأل آرثر، في سياق مُزاحه، منذ متى أنا وريتا صديقان. فقلتُ له منذ ساعة ونصف. قلتُ إننا كنا نوشك أنْ نُغادر لأنَّه بدا أنَّ المتحف لا يوفّر لنا ركناً مُريحاً نتطارح فيه الحب. لكنّني تساءلتُ، ما رأي آرثر بمؤخرتها الصغيرة المكتنزة؟ في الواقع، لم يُخبرني. وبدل ذلك، ألقى على مسمعي مُحاضرة عن الشفقة»

لا جِدال حول أنَّ بومْغارتن كان يرمي شَبَكَة كبيرة لكي يصطاد بها أسماكه الصغيرة. وعندما كنا نحن الاثنين نجوب شوارع مانهاتن، كان شيئاً حيوياً بالنسبة إليه ألّا يدع امرأة تحت سن الخمسين أو فتاة تجاوزت الخامسة عشرة إلّا ويُحاول أنْ يستخلص منها معلومات يُشير إليها. فيقول، وهو يكشِّر في وجه الصبيّة التي تضعُ فرواً بلونٍ رماديّ وتجرّ عربة طفلٍ رضيع «يا الله، ما أجمل هذا المعطف!». «أوه شكراً لك»، «هل لي أنْ أسأل ممَّ هو مصنوع؟ من أي حيوان أُخِذَ؟ أنا لم أرَ قط مثيلاً له»، «هذا؟ إنّه زائف»، «*حقاً؟*». وفي غضون دقائق قليلة يكاد لا يُبدي كل ذلك القدر من الذهول (وليس كلّه ادّعاء، أيضاً) لدى عِلمه أنَّ هذه الصبيّة التي تضع فرواً زائفاً مُطلَّقة، وأمٌّ لثلاثة أطفال صِغار، ومطرودة من جامعةTwo Thousand Miles Away. ويهتف قائلاً لي، أنا الواقف جانباً بحياء، «أسمعتَ ما قالتْ، يا ديف؟ هذه أليس. أليس وُلِدَتْ في مونتانا – ومع ذلك ها هي هنا في نيويورك تجرّ عربة أطفال». هذا ما قاله الشهير بومْغارتن، والأمّ الشابّة نفسها تبدو الآن مذهولة قليلاً لانتقالها كل تلك المسافة الشاسعة في غضون أربعة وعشرين عاماً فقط.

يُخبرني بومْغارتن أنَّ النجاح في التعامُل مع الغرباء يكمن في عدم طرح سؤال عليهم لا يمكن الإجابة عنه من دون تفكير، ومن ثم إيلائهم انتباهاً تاماً عندما يُدْلون بجواب، مهما كان مُبتذلاً. «هل تتذكَّر صاحبك جيمس، يا كيبيش - كان يقول «استعرِض، استعرِض»، اجعلْ أولئك الناس يفهمون أنَّ شخصياتهم والأماكن التي جاؤوا منها والملابس التي يرتدون هي أشياء ***مُثيرة للاهتمام***. أو بمعنى آخر، ***على قدر من الأهميّة***. هذه هي الشفقة. وأرجوك، لا تسخر، ممكن؟ إنَّ مشكلتك هي أنكَ تُخيفهم وتبعدهم عنك بميلك الرائع إلى تعقيد الأشياء. وحسب تجربتي المرأة العاديّة في الشوارع لا تميل إلى السخرية، حقاً. في الحقيقة، إنَّ السخرية تُغضبها. إنها ترغب في جذب الانتباه، ترغب في إثارة الاستحسان. وهي حتماً لا تريد أنْ تتنافس معك في الذكاء، يا بنيّ. وفِّر كل تلك الرهافة واستخدمها في مقالتك النقديّة. وعندما تخرج إلى الشارع، ***انفتح***. هذا ما ***يطلبه*** الشارع»

خلال أشهري الأولى في الجامعة اكتشفتُ أنّه عندما يُذكَر اسم بومْغارتن وسط تجمّعات القسم تجد دائماً شخصاً لا يطيق رؤيته، ولديه رغبة جامحة في ذِكر السبب. وزعمتْ ديبي شونبرون أنَّ «بشاعة الإقامة» سوف تكون هزليّة إذا لم يكن هو كذلك - والكلمة المُفضَّلة لديها ولدى آرثر - هي كلمة «مُدمِّر». وطبعاً ردّاً على هذا لم أكنْ في حاجة إلى قول أيّ شيء: اكتفيتُ برشف مشروبي وقفلتُ عائداً إلى نيويورك. قلتُ لها «أوه، هذا ليس سيئاً جداً»، ثم أضفتُ «في الحقيقة، يمكنني القول إنني مُعجبٌ به»، «وما الشيء الذي «يُعجبك» كثيراً فيه؟». عُدْ إلى منزلك يا كيبيش. إنَّكَ تنتمي إلى تلك الشقّة الخالية؛ بين هذا النقاش المُتوقَّع وتلك الشقّة المُتهالكة، ولا شك في المكان الذي ستكون فيه أحسن حالاً. أجبتُ «بل ما الشيء الذي «**لا يُعجبني**» كثيراً؟». سألتْ ديبورا «من أين أبدأ؟ من احتقاره للنساء، على سبيل المثال. إنّه قاتل، زير نساء معدوم الضمير. إنّه يكره النساء»، «يبدو لي أنّه يُحبهن»، «ديفيد، تبدو لي متناقضاً وماكراً، وعِدائيّاً قليلاً، ولستُ واثقة من السبب. إنَّ بومْغارتن شخص شنيع وكذلك الأمر شِعره. ولم أقرأ في حياتي شيئاً مُجرَّداً أكثر منه من الإنسانيّة. اقرأ أول كتابٍ أصدره وانظر بنفسك كم يُحب الفتيات»، «في الواقع، أنا لم أقرأ له أيّ شيء حتى الآن» -

هذا كذب – «لكننا اشتركنا في مناسبات عِدَّة في تناول وجبة غداء. إنّه لا يستحق الاستهجان كثيراً، من وجهة نظري. من الممكن، يا ديبورا، أنَّ شِعر الرجل لا يُمثّله كثيراً»، «أه، بل **يشبهه**: إنّه خسيس ومُعتدّ بنفسه ومتغطرس وفي الواقع هو غبي بكل معنى الكلمة. وماذا **عن** «الرجل الإنسان»؟ عن سلوكه، عن *انزلاقه*، عن ملابس الجيش تلك؛ وذلك الوجه – في الواقع ليس لديه وجه، أليس كذلك؟ إنّه مجرّد رجل خسيس، بعينين خامدتيّ البريق وتلك الابتسامة الواثقة. واللغز هو كيف يمكن لأي فتاة أنْ تقترب منه»، «في الواقع، لابد أنَّه يتَّصِف بميزة ما»، «أو ***أنّهن*** يفتقرنَ إلى شيء ما. إنكَ تتمتع حقّاً بأناقة فِطريّة أما هو فصقر نهّاش حتى أطراف مخالبه، فلِمَ ترغب حتى في أنْ يرتبط اسمك باسمه...»، قلت، وأنا أهزّ كتفيّ، «إنَّ صِلتي به طيّبة»، *ثم* تركتُ كأس المشروب استعداداً للذهاب إلى المنزل.

سرعان ما وصلني نبأ حول ما اكتشفَته ديبي باستخدام قُدراتها في الملاحظة من خلال مُحادثتنا. كان ينبغي أنْ أتوقّع ما اكتشفتْ، حتماً، وربما ما أستحقّ. والمفاجأة الوحيدة، في الواقع كان اندهاشي – وأيضاً، هشاشتي.

يبدو أنَّه على مائدة حفل عشاء أُقيم في منزل آل شونبرون أعلنت المضيفة أمام الحضور جميعاً أنَّ بومْغارتن أصبح «توأم روح» ديفيد كيبيش الذي «كان ينسج أوهاماً عِدائيّة ضد النساء»، نتيجة زواجه والنهاية «المُعذِّبة» التي آلَ إليها. والنهاية المُعذِّبة التي وقعتْ في هونغ كونغ – الكوكايين، والشرطة، والأعمال – بالإضافة إلى شذرات مُعذِّبة من البداية والوسط، كان قد أمدَّني بها وبتفاصيلها، من أجل تثقيف الجميع، رجلٌ شديد الكياسة، هو أحد ضيوف آل شونْبرون، ولا صِلة له بهذه القصَّة، ورأى أنّه بذلك إنما يُقدِّم لي معروفاً.

تلتْ ذلك مُراسلات، بدأتُها أنا، للأسف، واستمررتُ فيها أيضاً:

عزيزتي ديبي:

لقد وصلني نبأ مفاده أنكِ في حفل عشاء أُقيمَ في الأسبوع الفائتْ تحدثتِ بقدرٍ من الحريّة عن شؤوني الخاصّة – أي، عن زواجي، وعن «عذابي»،

وعمّا قيل إنكِ وصفته بـ «أوهامي العِدائيّة ضد النساء». هل لي أنْ أسألك من أين لكِ أنْ تعرفي أوهامي؟ ولِمَ يجب أنْ نكون أنا وهيلين الموضوع الذي يدور حوله الحديث على مائدة العشاء بين أُناسٍ لا أعرف أيّاً منهم؟ إكراماً لصداقتي مع آرثر التي بدأ عهدها منذ مدة طويلة، وأُتيحتْ لنا الآن فرصة تجديدها، آمل أنْ تمتنعي في المُستقبل عن مناقشة أوهامي العِدائيّة وتاريخ عذابي مع أشخاص غرباء. وإلّا فسوف يصعب علي أنْ أتصرَّف على سجيتي مع آرثر، ومعكِ، طبعاً.

المُخلِص/ ديفيد

عزيزي ديفيد:

أعتذر عن ثرثرتي مع أناسٍ لا يعرفونك، ولن أفعل ذلك بعد الآن. على الرغم من أنني مُستعدة لتنفيذ أيّ شيء تطلبه مني إذا أخبرتني باسم ابن الحرام، رجلاً كان أم امرأة، الذي أو التي أبلغتكَ. لكي أمنعه من النهش في لحمي من جديد!

وتخفيفاً لآلامك، أريد أنْ أُضيف، أولاً، أنَّ اسمك لم يُذكَر إلّا بصورة عابرة - للأسف، لم تكن أنتَ موضوع حديث الأمسية كلها - وثانياً، أعتقد أنَّ لديك الحق كلّه في التعبير عن امتعاضك من هيلين كما فعلتَ، وثالثاً، ليس أمراً غريباً حقاً أو مُخزياً أنْ يتّخذ غضبك من هيلين في الوقت الحالي شكل ارتباطك بشابٍ يُعاقب النساء على طريقة الصقر. ولكن إذا نظرتَ إلى صداقتكَ معه من زاوية معيَّنة، ونظرتُ أنا إليها من زاوية أخرى، فلا اعتراض لديّ حتماً - كما أنّه لا اعتراض لديك.

ختاماً، إنْ كنتُ قد تكلَّمتُ باستخفاف عن هيلين إلى ضيوف عشائي، فذلك ربما لأنها في ستانفورد كانت، كما تعلمُ جيداً، تتفاخر بنفسها، وبالتالي كانت تشكّل المحور الأساسيّ لأحاديث تدور بين عدد من الناس، بمَنْ فيهم أصدقاؤك. وأنت نفسك لم تكن كارهاً للتحدث عنها معنا، كلما أتيتَ إلى المنزل مع آرثر.

ولكن، عزيزي ديفيد، يكفي كلاماً عن هذا. هل ستأتي لتشاركنا وجبة

العشاء - ما رأيك في ليلة يوم الجمعة القادم؟ تعال، وحدك أو مع شخصٍ آخر (ولكن ليس أحد أفراد القبائل القوطيّة) إذا شئت. إذا جلبتَ فتاة أعِدكَ بألّا أنطق أيّة كلمة عن كرهك للنساء طوال فترة وجودك هنا.

مع حبي / ديبي

ملاحظة: أنا مُستعدة لوهب أي شيء مقابل أنْ أعرف اسم الحقير الذي خانني.

عزيزتي ديبي:

لا أستطيع أنْ أقول إنَّني وجدتُ جوابك مُرضياً. يبدو أنكِ لا تُدركين كم كنتِ طائشة في تناول ما تعرفين، وما اعتقدتِ أنكِ تعرفينني. طبعاً أنا أتقاسَم بعض الأسرار مع آرثر، وهو بدوره يتقاسمها معك، ولا يمكن تقديمها إليّ بوصفها عاملاً مُهدِّئاً. أتفهمين السبب؟ ولا أنا أفهم كيف تفشلين في إدراك أنَّ زواجي ما زال مؤلِماً بالنسبة إليّ، ولم يخفّ الألم عندما علِمتُ أنَّ نِقاشاً دار حوله كأنّه مُسلسل تلفزيوني بين أُناسٍ كنتُ ذات يوم قد أفضيتُ إليهم ببعض همومي.

يبدو أنَّ الروح التي كتبتِ بها رسالتك زادت الوضع سوءاً بالنسبة إليّ، ولا أرى أي دافع يحثّني على قبول دعوتكِ.

ديفيد

عزيزي ديفيد:

أشعرُ بالأسف لأنكَ وجدتَ رسالتي غير مُرضية. في الحقيقة، لقد قصدتُ أنْ أجعل نبرتها سطحيّة - رأيتُ أنَّ ذلك يُناسِبُ ما اعتبرته جريمتي.

أحقّاً تراني عازمة بعناد على تلويث سُمعتك الناصعة أو على اقتحام خصوصيتكَ بالتعريض المؤذي، الشرير؟ من الواضح أنَّ هذا ما ترى، وهو طبعاً أمرٌ شنيع، ولكن لأنكَ ببساطة تعتقد أنّه كذلك، هو ليس كذلك.

لقد اعتذرتُ لأنني تكلَّمتُ عنك بتهوُّر مع الغرباء، لأنني أعلم أنني

أفعل هذا أحياناً. وزعمتُ أنَّ ما يعود إليك هو هذا فقط - أحمق وطائش. أعلمُ أنني لم أقُلْ أي شيء يُعادله في البشاعة بحيث يُسسبِّب لك بأي ألم. وتذكَّرتُ حكمك الخاص على نفسك في تعاملك مع السيدات - حكايات عن أيام دراستك، أتذكر؟ أنا لم أحلم قط بأنكَ تعتبر نفسك فوق التأنيب. وسوف أعترفُ بأنني لم أعتبركَ قط ملاكاً مثالياً في صِلتكَ بالنساء، ولكنني أيضاً لم أعتقد أنَّ ذلك يُلخِّصكَ كإنسان. لقد استمتعتُ بصحبتي معك واهتممتُ بك كصديق.

يجب أنْ أعترف بأنني سوف أكون غاية في الأسف إذا سمعتُ أنكَ خذلتَ أيّاً من أولئك الآخرين الذين كانوا أصدقاءً لك في كاليفورنيا لمُجرَّد أنهم كانوا «متهورين» وأتوا على ذِكرك في أحد الأحاديث، ليس بدافع حاقد، أو شرير أو خبيث، بل فقط لأنه تصادفَ أنهم يعرفون كل ما مررتَ به.

أخشى أنَّ رسالتكَ تُخبرني عنك أكثر مما أرغب في معرفته.

ديبي

عزيزي ديفيد:

إنَّ ديبي تقوم بالإجابة عن رسالتك الأخيرة، أمّا الآن فأشعر بأنني مُلزم بأنْ أساهم في هذا.

يبدو لي أنَّ ديبي بذلتْ جهداً، بالتوقّف عن إذلال نفسها أمامك، للاعتذار عمّا اعتبرته شكوى عادلة. وفي الوقت نفسه حاولتْ أنْ تُشير بنبرة مُزاح إلى أنَّ ما ارتكبتْ لم يكن شيئاً خطيراً كما بدا أنكَ شعرت. وأنا أتّفقُ معها في ذلك استناداً إلى ما أعرفُ عن الوضع، ويُفاجئني أنَّ رسالتك الأخيرة، بنبرتها العِدائيّة، والساخطة والمُعتدِّة بنفسها، مؤلِمة جديّاً أكثر من أي ذنب يمكن أنْ تكون ديبورا قد ارتكبته. وبالمناسبة، ليست لديّ أدنى فكرة عمّا تعتقد أنَّ ديبورا يمكن أنْ تكون قد قالته عنك (يمكن لبعض التوثيق أنْ يُساعد هنا)، ولكنْ أستطيع أنْ أؤكِّد لك أنّه كان مجرد حديث عابر يدور حول مائدة عشاء لم يدُم أكثر من دقيقتين ولم يفتر عليك بأي حال. وأعتقد أنكَ ربما قلتَ أشياء أسوأ بكثير في حقّها في حديثٍ عابر (وإنْ لم يجرِ أمام أشخاصٍ

غرباء). ويبدو لي أنَّ على الأصدقاء أنْ يكونوا أشدّ رغبة في غفران زلّات بعضهم نحو بعض.

المُخلِص/ آرثر

عزيزي آرثر:

لا يمكنكَ أنْ تتبنّى الموقفَين: أي أنَّ ديبي تكلَّمتْ «بنبرة مُزاح» أو، حسب تعبيرها، «بنبرة... سطحيّة مُتعمَّدة» لأنَّ هذا هو أفضل تعبير عن موقفها مما كان يُزعجني، وأنّها في الوقت نفسه «بذلت مجهوداً خالياً من الإذلال المُهين» أمامي. لقد كان تصرّف ديبي الطائش قابلاً للغفران، وقد أشرتُ إلى هذا في رسالتي الأولى. لكنَّ استمرارها ليس في تكتّمها الشديد فقط، بل في تصرُّفها بشكل اعتيادي في هذا الشأن كلّه، يقودني إلى اعتبار زلّتها بعيدة عن كونها مِثالاً على «الزلّة العابرة» التي ارتكبَتْها صديقة.

ديفيد

عزيزي ديفيد:

لقد تردَّدتُ بشأن الإجابة على رسالتك الأخيرة لأنها تكاد لا تترك لي مجالاً لقول أي شيءٍ يُذكَر. أكاد لا أُصدِّق أنكَ حتى تتخيَّل ديبورا تقصد أنْ تُسبِّب لك أيّ أذى. وما لا يُصدَّق أيضاً هو فشلك في أنْ تُدرك أنَّ بإفسادك هذا الوضع كما فعلتَ فإنكَ تبرع في إثبات حقيقة ملاحظة ديبورا بشأن الطبيعة العِدائيّة لموقفك من نساء هذه الأيام. فبدل أنْ تُمعِن في الهجوم، لِمَ لا تتوقف برهة وتفكِّر لماذا رفضتَ قبول الاعتذار الذي قدَّمتْه على سلوكها الفظ في البداية – لِمَ فضَّلتَ على ذلك تعريض صداقتنا للخطر لكي تُنزِل الهزيمة بها بسوء سلوكها المزعوم؟

باستثناء تطليق ديبي وطردها إلى الشارع بأسمالها، لا أعرفُ ماذا في وسعي أنْ أفعل ليكون كافياً لاستعادة الصِلات الوديّة بينكما. سوف أشعر بالامتنان لسماع أي اقتراح.

المُخلِص/ آرثر

باح كلينغر والحمد لله بتركيبة الصيغة السحريّة التي تضعُ حدّاً لهذا كلّه. أخبرته بما أنوي أنْ أقول في رسالتي التالية إلى آرثر - كنتُ أعمل على ضرب مسوّدتها الثانية على الآلة الكاتبة - عن الأنشوطة الفرويديّة التي سوف يرغب الآن في شدّها حول عنقي، وما زلتُ غاضباً قليلاً من طلبه، الذي ورد قبل رسالتين (وكُتب بين مزدوجين « ») من أجل «القليل من التوثيق». ماذا يظننا، طالباً وأستاذاً، ما زلنا مُرشّحَين لنيل شهادة الدكتوراه ومُستشار أطروحة؟ إنَّ تلك الرسائل لم تُرسَل إليه من أجل نيل علامة مدرسيّة! لا يهمّني إلى أي مدى ينبغي أنْ أكون مديناً بالفضل - لا أريد منهم أنْ يقولوا إنني لستُ على حقيقتي! لن أقبل أنْ يذمّني ويُحقِّرني افتراؤها العُصابيّ الطائش! ولن أسمح أيضاً بتعرُّض هيلين للافتراء! «إنّها أوهام عِدائيّة»! هذا كلّه يعني أنني ***لا أطيقها***! وتقول ***ولِمَ لا*** يطردها إلى الشارع وهي بأسمالها؟ فكرة رائعة! سوف يحظى ***باحترامي*** إنْ فعل ذلك! المجتمع كلّه سوف يحترمه!

عندما اتّخذتْ خطبتي المُطوّلة مسارها الطبيعي، قال كلينغر، «إذن ثرثرتْ حولك - مَنْ يهتمّ؟»

كلمات قليلة، ولكنني في الحال شعرتُ بالخزي، نعم، وشعرتُ بأنني أحمق عُصابيّ. أصبحتُ نكداً جداً! ما زلتُ بلا هدف! بلا تركيز، بلا معنى - ليس لديّ صديق واحد! ولا أجذب إليّ إلّا الأعداء! إنَّ رسائلي الغاضبة الموجَّهة إلى الاثنين المُخلصين تؤلِّف كامل كتاباتي النقديّة منذ عودتي إلى الشرق، وكل ما استطعتُ أنْ أحشد من تركيزٍ كافٍ، وطاقة تحمّل، وحِكمة لأدوّنها على الورق. بل كنتُ أقضي أمسيات بأكملها أُعيد كتابتها بغية الإيجاز وضبط النبرة العامة... بينما لم أوقِف عملي على كتابي عن تشيخوف. تصوَّر - مسودة إثر مُسوّدة، وحولَ ماذا؟ لا شيء! أوه، بدا لي أنَّ ثمة مساراً في الأشياء ليس صائباً، يا دكتور. ردّ أذى والي، ومُحاربة ديبي، والتمسّك بأذيالك من أجل الحياة العزيزة - أوه، أين هو أسلوب الحياة الذي سيجعل كل ذلك العدم عَدَماً *حقاً*، بدل أنْ يكون كل ما أملك وكل ما أعمل عليه؟

الغريب في الأمر هو أنَّ شجاري مع آل شونبرون يعمل على إحياء صداقتي مع بومْغارتن التي لم ترتقِ من قبل إلى مثل هذا المستوى - أو، هو

ليس غريباً البتّة، بالنظر إلى المصالح القديمة الراسخة المتنافسة على قول كلمتها في حياتي الجديدة التي لم أعشها. وتنفيذاً لما يُسمّى بأوامر الطبيب، تخلّيتُ عن مُراسلاتي مع آل شونبرون - على الرغم من أنَّ ردوداً ساخطة، ردوداً *حاسِمة*، ظلَّتْ رفيقة حيويّة لي وأنا أقود السيارة على طول طريق إكسبريس المؤدي إلى المدرسة في صباح كل يوم - ومن ثم توقّفتُ في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهيرة أحد الأيام، بدافع مما افترضتُ في ذلك الوقت أنّه حافز غير مؤذٍ. ثم توقفتُ في مكتب بومْغارتن وطلبتُ منه أنْ يُرافقني لكي نشرب القهوة. وفي أمسية يوم الأحد التالية، ولدى عودتي من زيارةٍ قمتُ بها لوالدي واكتشافي أنني هناك في شقّتي، بمقياس الشعور بالوحدة، الذي يقترب من رقم المئة - وأنا مع والدي - خفَّفتُ النار تحت وعاء الحساء الذي كنتُ أُسخّنه بمقلاة العانس، واتّصلتُ هاتفيّاً ببومْغارتن لكي أدعوه للمجيء ومشاركتي تناول محتوى آخر وعاء من الطعام أعدَّته أمي وجمَّدته.

سرعان ما أصبحنا نتقابل مرةً في الأسبوع لكي نتناول وجبة العشاء في مطعمٍ هنغاريّ صغير يقع في آخر شارع برودواي، ليس بعيداً عن مسكن كلٍ منا. وفيما عدا والي، ليس هناك مَنْ شخص آخر غير بومْغارتن كنتُ أهتفُ له وأنا أمام مرآة الحمّام خلال الأشهر الأولى من الحِداد في نيويورك (الحِداد الذي سبقَ الحِداد على الشخص الوحيد الذي مات حقاً بيننا). ولكن تلك المرأة المُفتَقَدة قد لا تظهر أبداً - لأنها كانت قد ظهرتْ فعلاً: إنها هنا، ملكي، ضائعة، مُدمَّرة بسبب آليّة رهيبة دفعتني نحو التحدّي والمزيد من التحدّي - وختاماً نحو تحدّي الموت - وهو ما اعتقدتُ ذات يوم أنني رغبتُ فيه أكثر من رغبتي في أي شيء. نعم، إنني أشتاق إلى هيلين! فجأة رغبتُ في هيلين! كم تبدو كل تلك المشاحنات بلا معنى وسخيفة الآن! يا لها من مخلوقٍ انفعاليّ، حيويّ ورائع! مُشرق، وفكه وغامض - ورحلتْ! أوه، لِمَ بحقّ الله فعلتُ ما فعلت؟ كان ينبغي أنْ يكون الوضع مختلفاً تماماً! ومتى ستتوفّر فرصة أخرى، هذا إنْ توفّرتْ؟

هكذا - بعد أنْ خلّفتُ ورائي أكثر من عقدٍ من الزمن من الحياة الراشدة، تولّدَ لديّ إحساسٌ بأنَّ الفُرص كلّها قد استنفذت؛ في الحقيقة، حين أتأمّل في ماضي حياتي وأنا واقف فوق تلك المقلاة الصغيرة المطليّة

بالمينا والبائسة، أشعر طوال الوقت كأنني لم أمرّ بتجربة زواج فاشلة بل في الحقيقة بكامل جنس النساء، وبأنني خُلقتُ لكي أعيش بانسجام وحدي من دون شخص آخر.

فوق سلطة الخيار ومحشي الملفوف (لا بأس به، ولكن لا مجال للمقارنة، كما أُخبر بومْغارتن – وأبدو أقرب شَبَهاً بوالدي – مع ما كان يُقدّمه مُنتجع هنغاريان رويال في أيام عزّه)، أعرضُ عليه صورة فوتوغرافيّة لهيلين، صورة جواز سفر جذّابة وفاتنة كما تظهر وهي تجتاز محطات الجمارك. كنتُ قد انتزعتها من شهادة القيادة العالميّة الخاصّة بها، التي لم تظهر إلّا مؤخّراً – فلكل شخص تناقضاته واختلافاته الخاصّة – في علبة من الكرتون تضم أطروحات جامعة ستانفورد، بين ملاحظات مُحاضراتي حول فرانسوا مورياك. أحضرتُ صورة هيلين معي إلى مائدة العشاء، وتساءلتُ طوال قسم طويل من فترة تناول الوجبة هل أُخرِجها من محفظة نقودي أم، بالأحرى، أتساءل لماذا يجب أنْ أفعل هذا. وقبل ذلك بعشرة أيام كنتُ قد جلبتُ الصورة إلى غرفة العيادة لكي أعرضها على كلينغر، وفي نيّتي أنْ أُثبت له أنني لم أكن أعمى حيال كل شيء، على الرغم من أنني ربما كنتُ أعمى أمام بعض العواقب الخطرة.

قال بومْغارتن «جميلة حقاً»، وذلك عندما قرَّبتُ الصورة عبر الطاولة، بقدرٍ من قلقِ طالبٍ يُقدّم أُطروحة مُنتحَلة. ومن ثم تشبّثتُ بكل كلمة نطقَ بها! قال «أشبه بملكة النحل، حقاً»، «نعم، سيدي، وتتبعها عالياً طائرات بلا طيّار». أمضى وقتاً طويلاً في الاستمتاع بتأمّلها. طويلاً جداً. وأخبرني، وليس من باب التهذيب، «أشعر بالغيرة». كان يُعبِّر عن ردَّة فعل حقيقيّة.

حسن، قلتُ في نفسي، على الأقلّ هو لن يحطّ من شأنها، أو من شأني... ومع ذلك تردّدتُ في المُتابعة ومحاولة حلّ أي أمر شخصيّ حقاً في حضور بومْغارتن، كأنَّ أي تحدٍ يعرضه على منظور كلينغر – والرغبة التي أحاول بها الآن أنْ أخضع له – قد يُصيبني بالدوار، وربما يُعيدني إلى الموقع حيثُ كنتُ أبدأ يومي بالركوع على رُكبتيّ. ولم يُسعدني البتّة، طبعاً، أنْ أشعر بأني لا أزال سريع التأثُّر بهذا النوع من الفوضى، أو بأني لستُ محمياً ضد العناصر بأسلوب علاجي، أو أنْ أكتشف أنني أبدو، في اللحظة الراهنة، كأنني أشارك

إحساس ديبي شونبرون بأنَّ بومْغارتن هو مصدر التلوّث. والحقيقة هي أنَّني كنتُ أصبو حقّاً إلى قضاء أمسية معاً في الخارج، وأنني مُهتمّ بالإصغاء إلى القصص التي يرويها، حكايات، كما يحدث مع هيلين، عن شخصٍ تربطه أفضل الصداقات مع مصادر إثارته، ويُعارض بكل ثقة - ويتسلّى، في الحقيقة - كل ما يُعارضه. والحقيقة أيضاً هي أنَّ صِلتي ببومغارتن كانت تنطبع باطّراد بطابع الشك، وأحياناً بما يكاد يصل إلى نوبات من الشك، كلما قويَتْ صداقتنا.

إنَّ قصّة عائلة بومغارتن قصّة ملؤها الألم ولا أكثر. كان الوالد، الذي عمل خبّازاً، مات أخيراً، مُعدَماً ووحيداً في أحد أجنحة مستشفى إدارة المُحاربين القدماء - وكان قد تخلّى عن عائلته في وقتٍ ما من فترة مُراهقة بومغارتن («آجلاً وليس عاجلاً»)، وبعد سنين من اليأس المريع حوّلتْ حياة العائلة إلى سهر مُطوَّل على راحة المريض ملؤه الدموع. وكانت والدة بومغارتن قد عملتْ طوال ثلاثين عاماً في حبك القفازات في عليّة بالقرب من محطّة بن، يملأها الرعب من رئيسها في العمل، ومن مُشرف المحل، ومن رصيف المحطّة ومن سكة الحديد الثالثة، وفي المنزل كانت تخاف دَرَج القبو، وفرن الغاز، وعلبة فصل التيار الكهربائيّ، وحتى من المطرقة والمسمار. كانت قد أُصيبت بسكتة دماغية مُعيقة في أثناء دراسة رالف في الجامعة، ومنذ ذلك الحين وهي تُحدِّق إلى الجدار في دار للمُسنين والعجزة خاصة باليهود في وودْسايد. وفي صباح كل يوم أحد عندما يقوم أصغر أولادها بزيارتها - وهو يرسم على وجهه تكشير الغرور ذاك، متأبّطاً صحيفة *صنداي نيوز*، ويحمل بيده كيساً صغيراً من الورق من محل بيع المُعلَّبات وفي داخله خبز بيغل خصيصاً لأجلها - تحثّه المُمرّضة على ولوج الغرفة مع مقدّمة متغطرسة القصدُ منها تنشيط المرأة العجوز الضئيلة الواهنة الجالسة بارتخاء في كرسيها، بعد أنْ سلمتْ أخيراً من كل أسلحة العالم: «خمِّني مَنْ جاء إلى هنا حاملاً الطيّبات، يا ميلدريد. إنّه ابنك البروفسور!»

بغضّ النظر عن تكاليف العناية بالأم التي لا تتكفّل الحكومة بها وكان بومغارتن يُسدّدها من راتبه من الجامعة، أوكِلَتْ إليه مسؤوليات والده نحو أخته الأكبر سناً، التي تُقيم في نيو جيرزي مع ثلاثة أطفال وزوج يُدير من دون

تحقيق أي نجاح محلاً لتنظيف الملابس على الناشف هناك. ثلاثة أطفال وَصَفَهم بومغارتن بأنهم «بلهاء»؛ ووصف الأخت بأنها «تائهة»، تغذَّتْ منذ طفولتها على رعب أمها وكآبة والدها، والآن، وهي في مثل سنّي، لا تعيش إلّا وسط فوضى من الخرافات وَصَلَتها مباشرة، حسب قول بومغارتن، من بلدتها الصغيرة. وبسبب مظهرها، وملابسها الغريبة والأشياء الغريبة التي تُخبرها لزملاء أطفالها في المدرسة، كانت معروفة باسم «السيدة الغجريّة» في مشروع باراموس للإيواء حيث تُقيم عائلتها.

إنَّ ما يُدهشني لدى سماعي حكايات عن هذه الزمرة المنقرضة من الشخص الوحيد الناجي إلى الأبد منها، حسب معلوماتي، هو أنَّ بومغارتن لم يكتب جُملة واحدة عمّا يجعل عائلته التعيسة تختلف عن أيّة عائلة أخرى، أو عن عدم استطاعته أنْ يُدير ظهره للحطام، على الرغم من الاشمئزاز الذي تُثيره فيه ذكريات نشأته في منزل الموتى هذا. كلا، لم أقرأ كلمة واحدة عن هذا الموضوع في ديوانيّ الشِعر اللذين ألّفهما، الأول وضَعَ له بكل وقاحة، وهو في سن الرابعة والعشرين، عنوان «*تشريح بومغارتن*»، والكتاب الأحدث عهداً أخذ عنوانه من بيت شِعر من قصيدة إباحيّة للشاعر دَنْ، «*من الخلف، من الأمام، من فوق، من بين، ومن تحت*». ويجب أنْ أعترف لنفسي -إذا لم أعترف لشونبرون- أنّه بعد مرور أسبوع على قراءة بومغارتن قبل النوم، بدا أنَّ اهتمامي بالتفاصيل التي كنتُ أعرفها عن الجنس الآخر منذ وقتٍ طويل قد أُشبِعَ. ومع ذلك، على الرغم من أنني وجدتُ موضوعه ضيِّقاً - أو، بالأحرى وسائله في الاستكشاف - فإنني وجدتُ في مزيج الهوس الجنسيّ الجريء، والممارسة الجنسيّة المنحرفة الدقيقة، والغطرسة المُذهلة، سِمة في العمل لا يمكن لإحساسه الثابت بحاجاته المُلحّة إلّا أنْ يُثير فضولي. ولكن أولاً حتى مُشاهدته وهو يتناول وجبة العشاء تُثير فضولي - أحياناً يصعبُ عليّ أنْ أراقب بقدر ما أجد صعوبة في الإشاحة ببصري. أحقّاً أنَّ الحيوان الشرس داخله هو الذي يجعل هذا اللاحِم يُمزّق اللحم بين أسنانه بقوة عضليّة مُذهلة، أم أنّه لا يمضغ طعامه بأناقة ببساطة لأنَّ بقيّتنا وافقتْ على أنْ يفعل ذلك بتلك الطريقة؟ متى بدأ *حقاً* يأكل اللحم، في حي كوينز أم في كهف؟ ذات ليلة دفعني مشهد قواطع بومغارتن وهي تمزّق

اللحم عن عظمة لحم عجل مُغلَّفة بقطعة من الخبز إلى العودة إلى المنزل في وقتٍ لاحق واللجوء إلى رفوف الكتب لكي أنتقي كتاباً يضم مجموعة من قصص كافكا وإعادة قراءة الفقرة الأخيرة من قصّة «فنّان الجوع»، التي تصِف نمراً يافعاً وُضِعَ في قفص الاستعراض الثانوي في سيرك لكي يحلّ محل النمر المتقشِّف المُحترِف بعد أنْ نفقَ جوعاً. «جلب الخدمُ له الطعامَ الذي يُحبّه من دون تردُّد، ولم يبد أنّه يشتاق إلى نيل حرّيته؛ بدا جسمه النبيل، المُثقل حتى الانفجار بكل ما يحتاج، وبدا أنّه يحمل معه أيضاً الحريّة أينما ذهب؛ وأنّه في مكان ما داخل فكّيه يكمُن... »

نعم، وما هو «الشيء» الكامن بين ذينك الفكّين القويّين؟ أهي الحريّة أيضاً؟ أم شيء أقرب شَبَهاً بجشع شخص كاد ذات مرَّة أنْ يُدفَن حيّاً؟ هل فكّاه هما فكّا نمر نبيل أم جرذ جائع؟

سألته «كيف حدثَ ولم تكتب عن عائلتك، يا رالف؟»، قال، وهو يرميني بنظرته المُتسامحة، «عنها؟». قلت «عنها، وعنكَ»، «لِمَ؟ ألكي أقرأه على مسامع كل مَنْ في مقرّ الشبيبة المسيحيّة؟ أوه، يا كيبيش» – على الرغم من أنّه أصغر مني سنّاً بخمسة أعوام، فإنّه مع ذلك كان يستمتع بالتحدث إليّ كأنني الأصغر سنّاً، وأيضاً كأنني أشبه بمُربّع لا حلَّ له – «أعفني من موضوع العائلة اليهوديّة وما تعاني من عذاب. هل تستطيع عمليّاً أنْ تنهمك في شؤون ابن آخر وابنة أخرى وأمّ أخرى وأب آخر يُثير كلٌّ منهم جنون الآخر؟ مع كل ذلك الحب؛ وكل تلك الكراهيّة؛ وكل تلك الوجبات. ولا تنس الـ*menschlichkeit* (الإنسانيّة). والسعي المُرتبك وراء الكرامة. أوه، ***والطيبة***. لا يمكنك أنْ تكتب تلك المادة وتستثني الطيبة. أنا أتفهَّم أنْ يؤلِّف شخصٌ ما كتاباً كاملاً عن مفهومنا اليهودي عن الطيبة. وأتوقَّع أنْ تقرأ ذات يوم عن ناقد أيرلنديّ نشر كتاباً عن المرح الصاخب عند جويس، وييتس، وسينغ. أو مقالةً بقلم فتى طيّب من فاندربيلت حول حُسن الضيافة في الرواية الجنوبيّة، تحت عنوان: «تصرَّفْ على سجيّتك: فكرة حُسن الضيافة في قصّة فوكنر «وردة من أجل إميلي»»

«لقد تساءلتُ تواً إنْ كان ذلك قد يُثير فيك مشاعر أخرى»

ابتسمَ. «هلّا تركنا أمر المشاعر الأخرى للآخرين؟ إنهم متعوّدون عليها. بل *يُحبّونها*. لكنَّ موضوع الفضيلة ليس موضوعي المُفضّل. إنه مُضـ - جر».
هذه الكلمة مُفضّلة، يُرددها بومغارتن مع إضافة فاصل من مقطع ثالث بين المقطعَين اللفظيين. قال «اسمع، إنني لا أتحمّل حتى الكثير من تشيخوف، ذلك الأشدّ قداسة بين المُقدَّسين. لِمَ لا يتورّط قط في مثل هذا الهراء؟ أنتَ مرجِع في هذا المجال. لِمَ لا يكون أنطون هو الحيوان وليس شخصاً أبله؟»

«كما تعلم، هذا أسلوب غريب يلجأ تشيخوف إليه، فهو يتناسب مع سيلين. أو مع جينيه. أو معك أنت. ولكن مع ذلك لعلّ الحيوان ليس دائماً بومغارتن. لا يبدو الأمر كذلك عندما تُخبرني عن تلك الزيارات التي يقوم بها إلى باراموس، أو إلى دار المُسنّين. في الحقيقة يبدو هذا جديراً بتشيخوف. أقصد أنْ يكون عبد العائلة»

«لا تكن واثقاً كثيراً. ثم، ثم، ما الداعي إلى تدوين ذلك النوع من الأشياء؟ ألم يحدث هذا من قبلِ - كثيراً؟ هل يحتاجون إليّ أيضاً لكي أنقش اسمي على حائط المبكى؟ إنَّ الكتب بالنسبة إليّ لها أهميّة - بما فيها كتبي - لأنَّ فيها يُجرِّم الكاتب *نفسه*. وإلّا، لِمَ أُزعج نفسي؟ ألكي أُجرِّم شخصاً آخر؟ الأفضل أنْ أترك هذه المهمَّة لمَن هم أفضل منّا، ألا تعتقد ذلك، وإلى تلك المنصّة البارعة التي تستخدم اللغة البيديّة وعملوا على تطويرها، واسمها النقد الأدبيّ. أه، يا لأبناء اليهود النبلاء أولئك الذين بلغوا منتصف العمر ويمارسون طقوس التمرُّد والتكفير! ألم تقرأ ما يكتبون على الصفحات الأولى من أعداد يوم الأحد من صحيفة *تايمز*؟ ما كَتَبَه كل متصيّدي نساء الغرف السريّة أولئك الوافدين على غرار العجوز تولستوي عن كل ذلك التعاطُف مع المُستضعفين في الأرض، وكل تلك الحماية للَّهب المُقدّس، الذي، بالمناسبة، لا يُكلّفهم قرشاً واحداً. اسمع، إنَّ كل حاملي راية الثقافة اليهوديّة الذين عانوا بعمق *يحتاجون* إلى حمارٍ يهوديّ آثم لكي يُكفِّروا عبره عن آثامهم علانية - فلِمَ لا أُكفِّر عن آثامي؟ إنّه يُبقي زوجاتهم في الظلام، ويمنح صديقاتهم شخصاً حسّاساً حيال المُعاناة لكي يُرضينه جنسيّاً، ويقطع شوطاً طويلاً جداً في «كليّة برانديز للمعرفة الموسيقيّة». وفي كل عام أقرأ في الصحف عن مراكز القِوى هناك التي تمنحهم أوسمة تقدير يعقدونها حول

العنق بدل المناديل. الفضيلة، الفضيلة، مَن الذي يتَّصِف بالفضيلة؟ إنها أكبر تجارة يهوديّة منذ ماير لانسكي[1] في أيام عزّه»

نعم، إنّه غاضب الآن، وبغضّ النظر عن ارتفاع نبرة صوته أو حركة ذراعيه الدائريّة - وانزعاجه المنحرف الذي لا يخلو من استمتاع - استمرَّ في الحديث عن فسق «البروفسور المُحترم» (المشهور به في حيّ مانهاتن كلّه، حسب ادّعاء بومغارتن) الذي دمَّرَ ديوانه الشِعريّ الثاني بمراجعة شاملة وردت في صحيفة *تايمز*. «لا» ثقافة «ولا» قلب، «والأسوأ من ذلك، لا «منظور تاريخيّ». كأنَّ للبروفسور المُحترم منظوراً تاريخيّاً عندما يُورِّط مُساعِداً خريجاً في الأمر! كلا، لا يُعجبهم كثيراً أنْ تغوص وتحفر عميقاً إكراماً للتعبير الغريب الغامض المرتسم على وجهك. كلا، كلا، إنْ كنتَ كاتباً حقيقيّاً في التراث الإنسانيّ فينبغي أنْ تحمل منظوراً تاريخيّاً وأنت تعمل»

لم ينته (في تلك الليلة) من بحثه في مظاهر الرياء، والتقوى، وفي العموم في الملل الذي يُشيعه عالم الأدب والتراث الإنسانيّ (كما يتمثّل بدرجة كبيرة في المُراجعين لكتبه وفي أعضاء قِسمِه) إلّا بعد أنْ شربنا الشاي وأكلنا المُعجّنات، وبدأ يتكلَّم، بنوعٍ مُختلف من الاستمتاع، عن مجال مؤكَّد آخر اختاره. وكالعديد من قِصصه ذات المُفاجآت السارّة التي تظهر في الصيد، فإنَّ ما رواه وهو يتناول ما تبقّى من حلوى بعد الطعام كان يتعلّق ببعض الذكريات القديمة ولكن الحيّة الخاصة به. في الحقيقة، أحياناً، وأنا أُصغي إليه وهو يتحدث بلا خجل عن السلسلة الطويلة من الأشياء التي تُرضيه، كنتُ أشعر بأنني في حضرة نسخة مُضخَّمة تُثير السخرية من ذاته. في حضرة مُحاكاة ساخرة - احتمال. ربما هكذا يشعر بومغارتن نحوي. وهذا ***بالذات*** يُفسِّر الفضول لدى كِلا الطرَفين. أنا نسخة من بومغارتن محبوسة في منزل كبير، في مؤسسة للعناية بالكلاب، أنا نسخة بومغارتن مُستسلمة لكلينغر وشونبرون - في حين أنّه كيبيش، أوه، ويا له من كيبيش! فمه يُزبِد ولسانه يتدلّى، سقط لجامه وانطلقَ يركض جامحاً.

1- ماير لانسكي: أحد زعماء الجريمة المُنظّمة في أميركا (1902-1980) وُلِدَ فيما يُعرَف الآن ببيلاروسيا لعائلة بولنديّة يهوديّة.،

لِمَ أنا هنا معه؟ لكي أُبدِّد الوقت، طبعاً، طبعاً - وفي تلك الأثناء، ما الذي يخرج مني ويدخل إليّ؟ في حضرة بومغارتن الشرِه، هل أبدو أنني عُرضة باعتدال للضغط الشديد، وبالتالي أُصبح منيعاً إلى الأبد؟ أم يحدوني شبه أمل في أنْ أصاب بالعدوى من جديد؟ هل تولّيتُ بنفسي أخيراً أمر علاج نفسي، أم إنَّ فترة النقاهة قد انتهتْ، وأوشِك أنْ أبدأ التآمُر *ضد* الطبيب وضد نصائحه المُضجِرة؟

قال، وهو يرمق المؤخّرة المُستديرة للنادلة الهنغاريّة الضخمة التي تهرع بخفّ السجّاد عائدة إلى المطبخ لكي تعدّ لنا بعض الشاي، «ذات ليلة في الشتاء الفائت، كنتُ أستعرض المحال في شارع ماربورو-». وتراءى لي في الحال وهو يقوم باستعراض الأشياء؛ لقد شاهدته ***فعلاً***، مراتٍ عِدَّة على الأقلّ. قال **بومغارتن**: في رواية هاردي؟ **الفتاة**: نعم -هو. **بومغارتن**: رواية «*تس سليلة دابرفيل*»، أهذا ما تقرئين؟ الفتاة (***تنظر إلى الغلاف الخارجي للكتاب***): هذا صحيح- «-وبدأتُ بالتحدث مع تلك الفتاة الظريفة ذات الوجنتين المتورّدتين التي أخبرتني أنها عادت تواً على متن قطار من زيارةٍ قامت بها لعائلتها في ويستشستر، وأنَّ أمامها بمقدار مقعدين كان هناك رجلٌ يرتدي بذلة ويضع ربطة عنق مع معطف ظلَّ يلتفت خلفه إليها ويئنّ ويستمني من تحت المعطف. وسألتها كيف تعاملتْ مع ذلك. قالتْ «ماذا تظن أنني فعلت؟ نظرتُ إليه مباشرة، وعندما وصلنا إلى غراند سنترال، اقتربتُ منه، وقلت «هيه، أعتقد أننا يجب أنْ نجتمع معاً، أحبّ أنْ أجتمع معك»، وإذا به ينطلقُ مُسرعاً إلى خارج المحطة، لكنَّ الفتاة لحقتْ به، مُحاولة أنْ تشرح له أنها *جادَّة* - لقد أعجبتها الطريقة التي نظر بها إليها، وأعجبتها شجاعته، وافتُتِنَت بما فعل، لكنَّ الرجل اختفى داخل سيارة أجرة قبل أنْ تُقنِعه بأنه سوف يقضي وقتاً ممتعاً. على أيّة حال، يمكن القول إننا اتّفقنا وعُدنا إلى شقّتها الكائنة في منطقة إيست ريفر، في إحدى القُرى الراقية. وعندما وصلنا إلى هناك عرَضَتْ عليّ المشهد المُطلّ على النهر، والمطبخ بكل ما يضم من كتب الطبخ، ثم طلبَتْ مني أنْ أنزع عنها ملابسها وأشدّ وثاقها إلى السرير. في الواقع، لم أكنْ قد لعبتُ بالحبل منذ أيام الكتيبة 35، لكنني نجحتُ في ذلك. فعلتُه بخيط تنظيف الأسنان الشمعيّ، يا كيبيش، طوله اثنتا عشرة ياردة

- جعلتُها تمتد كالنسر، بذراعيها وساقيها، تماماً كما أرادتْ. واستغرقَ مني الأمر خمساً وأربعين دقيقة. كان ينبغي أنْ تسمع الأصوات التي أصدرتها تلك الفتاة، وأنْ ترى كيف أصبحَ شكلها، وهي في ذروة الإثارة. كانت لوحة مُثيرة، تجعلك تتعرَّف أكثر على الأشخاص البغيضين. على أيّة حال، طلبتْ مني أنْ أذهب وأُحضِر بعض المواد المُخدِّرة من صندوق الأدوية. لم أعثر على أيٍ منها، اختفَتْ كلّها، يبدو أنَّ أحد أصدقائها سرقها. قلتُ لها إنَّ لديّ بعض الكوكايين في منزلي، وأني مستعد لإحضاره إذا شاءت. قالت «اذهب وأحضره». وذهبت. ولكن عندما هبطتُ من منزلي وركبتُ سيارة أجرة لكي أعود إليها، تذكّرتُ أنني لا أعرف اسمها - وأنني لا أتذكَّر في أي من تلك الأبنية اللعينة تُقيم. ثم قال «لقد وقعتُ في ورطة، يا كيبيش»، ومدَّ يده عبر المائدة شاهراً إبهامه وسبّابته لكي يتناول ما تبقى من المُعجّنات عن طبقي، ونجحَ في الإطاحة بكأس الماء وإسقاطه على حِجري بطرف كُمّ ذراع معطفه. ولسببٍ ما كان بومغارتن دائماً يأكل بمعطفه. ربما كان جيس جيمس أيضاً يفعل ذلك. صرخ، عندما رأى الكأس تسقط، «آخ»، لكنَّ تلك لم تكن المرَّة الأولى؛ في الحقيقة، كانت كلمة «آخ» هي الكلمة التي غالباً ما تخرج من بين شفتيّ بومغارتن، حتماً بينما يُحوِّل المائدة إلى منطقته الخاصّة. قال «آسف، أأنتَ بخير؟»، قلتُ «سوف يجفّ. دائماً يجفّ. تابع. ماذا فعلتَ؟»، «وماذا كان في *وسعي* أنْ أفعل؟ لا شيء. بدأتُ أتنقّل من مبنى إلى آخر، أنظر إلى الأسماء المُدوّنة على لوحة الدليل. كان اسمها الأول جين، أو هذا ما قالت، وهكذا كنتُ حيثما أرى حرف «ج» أقوم كأبله برن جرس الباب. ولم أتمكّن، طبعاً، من العثور عليها، على الرغم من أنني أجريت بضعة أحاديث مُفيدة. على أيّة حال، اقترب أحد الحرّاس وسألني عمّا أبحث. فأخبرته بأنني يبدو أخطأتُ المبنى، ولكن عندما خرجتُ لحقَ بي إلى منطقة المدخل هناك، ورحتُ أبحث في الجوار قليلاً، ورفعتُ نظري وتأمّلتُ القمر بإعجاب. ثم رجعتُ إلى منزلي. وبعد ذلك اشتريت صحيفة *الديلي نيوز* وأنا في طريقي اليوميّ إلى المدرسة. وواظبتُ على النظر فيها طوال أسابيع لأرى إنْ كانت الشرطة قد عثرت على هيكلٍ عظميّ موثق إلى السرير بخيط شمعيّ لتنظيف الأسنان في منطقة إيست سايد المُنحلّة. وأخيراً تخلّيتُ عن الأمر. ثم في

صيف هذا العام كنتُ خارجاً من دار سينما في الشارع الثامن، فرأيتُ الفتاة نفسها واقفة في الطابور لكي تحصل على بطاقة لمشاهدة العرض التالي. إنها جين بكل وضوح. هل تعلم ماذا قالت؟ لقد رأتني، وانتشرت ابتسامة عبر وجهها، وقالتْ «يا للمفاجأة، يا رجل»

قلت، مرتاباً، ولكن وأنا أضحك، «كل شيء ممكن، أليس كذلك؟»

«ديـف، يكفي أنْ تمشي في الشوارع وتُحيي الناس، ***وكل شيء*** يمكن أنْ يحدث»

ثم، بعد أنْ سألَ بومغارتن الفتاة - الجديدة على مطعمنا، التي قرَّر أنّه يجب أنْ يتعرَّف على فيضها القرويّ، الناضج - إنْ كان في وسعها أنْ ترشِّح له شخصاً يُعطيه دروساً في اللغة الهنغاريّة؛ وبعد أنْ أخذ اسمها ورقم هاتفها - «أتُقيمين وحدك هناك، يا إيفا؟» - استأذن وانتقل إلى خلفيّة المطعم، حيث جهاز هاتف للاتصال المدفوع. ولكي يُدوِّن رقم هاتف إيفا، أفرغَ جيب معطفه من حفنة من الأوراق والمُغلّفات، رأيتُ أنّه كان قد سجّل عليها أسماء وأماكن أخريات من بنات جنسها ممَّن اعترضنَ طريقه في أثناء النهار. ورقم الشخص الذي يطلبه الآن كان قد حمله معه إلى جهاز الهاتف، تاركاً الفوضى القليلة من الأوراق الشخصيّة في عهدتي لكي أتأمّل فيها في وقت فراغي، الأوراق مع الحياة التي ترافقها.

استطعتُ بظفر إصبعي أنْ أُحدِّد الفِقرة الأخيرة من رسالةٍ ضُرِبَتْ بالآلة الكاتبة بأناقة على قرطاسيّة ثقيلة بلون الكريم.

..... أحضرتُ لك طالبتك الغضّة ذات الخمسة عشر ربيعاً في السنة الثانية (في الحقيقة هي في الثامنة عشرة، ولكن أُقسِمُ على أنك لن تعرف الفرق من الشكل الخارجي، وعلى أيّة حال، إنَّ سن الخامسة عشرة تعني *السجن*) - وهي ليست فقط غضّة بل إلى جانب ذلك ذات جمال أخّاذ، هي فتاة عذبة وواقعيّة معاً، وفي العموم لا أفهم كيف يمكن أنْ تتعامل معها. لقد فتّشتُ عنها بنفسي من أجلك، واسمها رونا وسوف نتناول طعام الغداء في الأسبوع القادم، فإذا شئت (على فرض أنكَ تتذكّر أنكَ عبّرتَ عن هذه

الرغبة)، سوف أُجري مفاوضات حول هذا الأمر. وأشعر بثقة تامة بالنجاح. أرجو أنْ تُحدِّد نواياك في المرة التالية التي تكون فيها في المكتب، رفّة عين واحدة تعني نعم، ورفّتان تعنيان كلا، إذا كان ينبغي أنْ أستمر في مساعيَّ. هذه هي حصتي من الصفقة - أنْ أُحضِر لكَ الفتيات، حسب رغبتك وأنا في شدّة الحماس - والآن صِلني *أرجوك* بالمُعربدين. إنَّ الأسباب الوجيهة للرفض التي تخطر إلى ذهني هي أولاً: أنكَ أنتَ نفسك متورّط هناك - وفي هذه الحالة سوف أقوم ببساطة بالابتعاد عن تلك الأمسيات، إنْ كنتَ تُفضِّل هذا - أو، ثانياً: أنتَ خائف من أنْ يقوم شخصٌ ما في قلب الكرملين بتشويه سمعتك - عندئذٍ أعطني فقط الاسم وسوف أقول إنني سمعته من مكان آخر وليس منك. وإلّا، فلِمَ لا تُنشِّط قليلاً استعدادك الطبيعي (الضامر قليلاً) للتعاطُف الإنساني (لقد قرأتُ في موقع ما أنّه كان يُعتَقَد ذات يوم أنه من صِفات الشاعر الأساسيّة) مادام أنّه لن يُكلِّفك شيئاً، وسوف يُدخِل شُعاعاً من نور الشمس إلى الحياة المُعتِمة لعانس تخبو (بسرعة).

صديقتك الحميمة،

ت.

تساءلتُ، مَنْ هي «ت»، في «الكرملين»؟ أهي مُساعدة رئيس كنيسة أم مديرة صحّة الطلاب؟ وأيضاً - على قطعة صغيرة أخرى من الورق - من هي «ل»؟ كانت كلماتها تُطمَس ومن ثم تُكتَب من جديد في كل سطر؛ وقلمها ذو رأس اللبّاد يكاد ينفد من الحبر - ماذا تريد هي من شاعرٍ صاحب قلب ضامر قليلاً؟ هل «ل» هي الصوت الدامي الذي يُصغي بومغارتن إليه بصبرٍ داخل كشك الهاتف؟ أم هي «م»، أو «ن» أم «و» أم «ب» - ؟

«رالف، إنني أرفض أنْ أشعر بالأسف حول ما حدث في الليلة الفائتة إلّا إذا كان في استطاعتك أنْ تُبيِّن بطريقة *قابلة للتصديق* وجود شيء مُحرَّف أو خسيس في رغبتي في رؤيتك. قلتُ في نفسي ليت في استطاعتي فقط أنْ أجلس في غرفة واحدة مع رجلٍ لم يُحاول أنْ يضغط عليّ أو يُقنعني أو يُزعجني، رجل أثار إعجابي واحترامي، فقد أقتربُ من شيء داخلي ذي

أهميّة وحقيقيّ. إنَّ لديّ انطباعاً أنكَ لم تعِش في عالم من الأحلام، وأحياناً كنتُ أتساءلُ منذ إنجاب الطفل إنْ عشتُ فيه. لم أرغب في ممارسة الجنس. أحياناً تتصرَّف كأنكَ خبير في إفراغ أدراج سيدة فقط. إنني حتماً لم أقُم بالمزيد من الزيارات العفويّة بعد الساعة العاشرة مساءً. وبسبب رغبتي وحاجتي إلى التحدّث مع شخصٍ *لستُ* متورّطة معه بعلاقة، اخترتك أنت، وأعترف بأنني عندما أردتُ بصورةٍ ما أنْ أتورّط في علاقة، فإنَّ جزءاً مني أراد أنْ يرتمي بين ذراعيك، في حين أنَّ جزءاً آخر أصرَّ على أنَّ ما أردتُ حقاً هو صداقتك، ونصيحتك - *وأيضاً* مسافة. أعتقد أنني لا أريد حقاً أنْ أعترف بأنّك تُحرِّك مشاعري. لكنَّ هذا لا يعني أنني لا أعتقد أنَّ فيك قبساً من الجنون -

داخل كشك الهاتف، أعاد بومغارتن السماعة إلى مُستقرّها وهكذا توقّفتُ عن قراءة رسائل المُعجبات به. سدّدنا الفاتورة لإيفا وجمع بومغارتن ممتلكاته، ثم انطلقنا معاً - وأبلغني بأنَّ من الأفضل ترك «صديقته المُقرَّبة» المتحدثة عبر الهاتف وشأنها في هذه الليلة - إلى أقرب المكتبات الكبرى، حيث، كالمعتاد، سوف يدفع أحدنا ورقة نقديّة بخمسة دولارات مقابل خمسة كتب لم تلقَ رواجاً وفي الغالب لن يُتاح له الوقت لقراءتها. وبينما شريكي السرّي يُعلن في موقعٍ ما من نفسه في الخلف، أو الأمام، أو فوق، أو بين، أو تحت.

استغرقَ مني أسبوعين كاملين، وست جلسات كاملة، لأخبر الطبيب النفسيّ الذي من المُفترَض بي أنْ أخبره كل شيء أنّه في وقت لاحق قليلاً من تلك الأمسية قابلنا طالبة في المرحلة الثانوية تشتري كتاباً ذا غلاف ورقيّ من أجل حصّة اللغة الإنكليزيّة. (قال **بومغارتن**: كتاب إميلي أم شارلوت؟ قالتْ **الفتاة**: شارلوت. قال **بومغارتن**: رواية «***فيليت***» أم «***جين أير***»؟ قالت **الفتاة**: لم أسمع بالرواية الأولى. أريد «***جين أير***»). ورافقتنا في طريق عودتنا إلى غرفة بومغارتن الواحدة، بمرح، وانطلاق وبقليل من الخوف، وهناك،

على السجادة المكسيكيّة، وسط العديد من أكوام نسخ ديوانيّ الشِعر الخاصّين به، أجرت تجربة أداء من أجل العمل كموديل لمصلحة المجلّة الإباحيّة المُصوّرة الجديدة التي بدأ أصحابها، آل شونبرون، بإصدارها على الساحل الغربيّ. مجلّة سوف يكون اسمها «كسّ». وشرح قائلاً «لقد ملّ الزوجان شونبرون القتال»

كانت فتاةٌ شقراء طويلة القامة وهزيلة حمراء الشَعر ترتدي سترة جلديّة ذات أهداب وبنطلون جينز قد أخبرتنا من دون مقدّمات، في أثناء استجوابها في محل بيع الكتب، أنها لن تشعر بأي خجل من خلع ملابسها من أجل التقاط صور لها - وهكذا، أعطاها إحدى المجلات الدانماركيّة لكي تتصفّحها، وتستلهم منها.

سألها بجديّة، وهي جالسة على الأريكة العريضة تتصفّح المجلات بإحدى يديها، وتحمل بالأخرى كوز مُثلّجات باسكن روبنز الذي لم يستطع بومغارتن (كاتب السيناريو الذي لا يُشقّ له غبار) أنْ يُقاوم إغراء شرائه من أجلها في طريق العودة إلى المنزل. («ما هي النكهة التي تُفضّلين، يا ويندي؟ هيا، أرجوك، اطلبي المزيد، اطلبي سكاكر، اطلبي ما تشائين. وأنت، يا ديف؟ ألا ترغب في الشوكولاتة، أيضاً؟») تنحنحت، وأغلقتِ المجلّة التي على حِجرها، وعضَّتْ على ما تبقّى من الكوز، وقالت بنبرةٍ جَعَلَتها عاديّة قدر استطاعتها، «هذا شيء مُبالَغ فيه بالنسبة إليّ»، سألها «أليس كل شيء هكذا؟ أخبريني أليس كل شيء هكذا»، قالت «إنّه أقرب إلى ما يرِد في مجلة **بلاي بوي**»

وعملنا معاً، كأنّنا أفراد في فريق كرة قدم يُدحرجون الكرة في منتصف أرض الملعب في وجه خط دفاع منيع، أو كأننا عاملان نظاميان باليوميّة يُثبّتان سارية في الأرض بتسديد ضربات متناوبة من مطرقتيهما الخشبيَّتين - كأننا أنا وبيرغيتا عدنا إلى قارة أوروبا في عصر الاكتشاف - ونجحنا، بعد أنْ أنجزنا معها سلسلة من الوضعيات المُثيرة خلال مراحل متوالية من التجرّد من الملابس، لدفعها إلى الاستلقاء على ظهرها وهي برداء البكيني وبجزمتها ذات الرقبة العالية. وهذا - حسب قول الطالبة المتقدِّمة ذات السبعة عشر ربيعاً من مدرسة واشنطن إرفينغ الثانويّة - وهي ترتعش قليلاً

بينما تُحدِّق عالياً إلى عيوننا الأربع التي تنظر إلى أسفل- أقصى مدى ستذهب إليه.

ماذا بعد؟ لقد تفهّمنا بومغارتن وأنا من دون أنْ نتشاور أنَّ الحدود التي وضعتها هي الحدود التي سنتّبعها. وأوضَحتُ ذلك لكلينغر - وبيّنتُ أيضاً أنه لم تُذرف أيّة دموع، ولا استُخدِمت القوة، ولم يلمس أي طرف إصبع جسمها.

سألني كلينغر «ومتى حدث هذا؟»

قلت «قبل أسبوعَين»، ونهضتُ عن أريكة التمدُّد لكي أرتدي معطفي.

وغادرتُ. لقد امتنعتُ عن الاعتراف طوال أسبوعَين كاملين، وحتى الآن، حتى نهاية ساعة الجلسة. وبالتالي، استطعتُ أنْ أخرج من الباب، ولم أُضطر إلى أنْ أُضيفَ قائلاً - ولن أفعل أبداً - إنه ليس إحساس المجرم الميئوس منه بالعار هو الذي منعني من سرد الحادث قبل ذلك، بل بالأحرى هي صورة فوتوغرافيّة صغيرة بالألوان تبيِّنُ ابنةَ كلينغر المُراهقة، ترتدي ثوباً من القطن مع قميص رياضيّ خاص بالمدرسة، التُقِطَتْ في مكانٍ ما على الشاطئ موضوعة داخل إطار ثلاثيّ الأجزاء على طاولة مكتبه بين صور فوتوغرافيّة لولديه.

ومن ثم في الصيف الذي تلا عودتنا إلى الشرق قابلتُ امرأة شابة لا تُشبه في شيء هذه العُصبة الصغيرة من المُعزّين، والمُستشارين، والغاوين والمُحرّضين - «أصحاب النفوذ» حسب تعبير والدي - الذين ابتعدت جثّتي الخدرة والمجرّدة من الإحساس الجنسيّ عنهم منذ أنْ أصبحتُ رجلاً مُنفرداً بلا امرأة، وبلا متعة، وبلا شغف.

دعاني اثنان من هيئة التدريس من معارفي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في كيب كود، وهناك تعرَّفتُ إلى كلير أوفينغتون جارتهما الشابة، التي تستأجر كوخ بنغالو مُركَّباً صغيراً وسط بقعة من الأرض مزروعة بالورد البرّي بالقرب من شاطئ أورلينز لكي تُقيم فيه مع كلبها الذهبيّ. وبعد مرور عشرة أيام على صباح اليوم الذي أمضيناه في تبادل أطراف الحديث معاً على الشاطئ - بعد أنْ أرسلتُ إليها رسالة فاتنة بصورة مؤلمة من نيويورك، وتبادلتُ الاستشارة مع كلينغر على مدى عدّة ساعات طريّة - انتهزتُ الفرصة ورجعتُ إلى أورلينز، وهناك انتقلتُ إلى نُزُلٍ محليّ. في أول الأمر جذبني المظهر الشهواني الرقيق الذي كان ذا تأثير قويّ (على الرغم من كل التحفظات المعقولة ظاهريّاً) إلى درجة جذبي إلى هيلين، وكان له بالغ الأثر، للمرَّة الأولى منذ أكثر من عام، كموجة عفويّة من الشعور الدافئ. وبعد قيامي بزيارتي الوجيزة إلى نيويورك، لم أُفكّر إلّا فيها. هل أشعر بتجديد الشهوة، والثقة بالنفس، وبالطاقة؟ لم يحدث حتى الآن. وخلال مدة إقامتي في النُزُل التي دامت أسبوعاً، لم أتمكّن من التوقف عن التصرّف كطفل مفرط الحماس في درس الرقص، لا يستطيع أنْ يخرج من أي باب أو أنْ يرفع شوكة أكل من دون أنْ يفعل ذلك بأقصى مظاهر حسن سلوك. وبعد استعراض الذات الذي

ورد في الرسالة، واستعراض الذكاء والثقة بالنفس! لِمَ أصغيتُ إلى كلينغر؟ «طبعاً، اذهب – ماذا يمكن أنْ تخسر؟». ولكن ماذا سيخسر **هو** إذا فشلتُ أنا؟ أين هي نظرته المأساويّة إلى العالم، اللعنة؟ إنَّ العُنّة ليست مزحة – إنها مُصيبة! بعض الناس ينتحرون بسببها! وأنا وحيد على سريري في النُزُل، بعد قضاء ليلة أخرى بعيداً عن كلير، بتّ أفهم السبب. وفي الصباح، قُبيل سفري إلى نيويورك من جديد، وصلتُ إلى كوخ البنغالو لكي أتناول إفطاراً باكراً، وفي أثناء تناول فطائر العنبيّة الطازجة حاولتُ أنْ أنال القليل من الخلاص باعترافي بخزيي. لا أعرفُ سبيلاً آخر للخروج من هذا على الأقل ببعض احترام الذات الراسخ، على الرغم من أنني لا أتصور لِمَ أهتمّ باحترام الذات من جديد. «يبدو أنني قطعت كل المسافة إلى هنا – بعد أنْ كتبت لكِ رسالة كهذه، ومن ثم وصلتُ بلا سابق إنذار – في الواقع، بعد كل ذلك الضجيج، يبدو أنني وصلتُ إلى المكان ومن ثم... اختفيت». وها أنا الآن أشعر بشيٍ أقرب شَبَهاً إلى الخزي – ينتشر حتى جذور شَعري – تخيّلتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أتفاداه **بحركة** الاختفاء. «لابد أنكِ ترينني غريب الأطوار. عند هذه النقطة أبدو غريب الأطوار حتى لنفسي. لقد لاحظتُ غرابة أطواري منذ بعض الوقت. إنني فقط أحاول أنْ أقول إنَّ ما دفعني إلى التصرّف ببرودة لا يعود أبداً إلى شيء فعلتِه أو قلتِه. قالت، قبل أنْ أباشر جولة أخرى من الاعتذار بلسان هذا «الكيان الغريب» الذي هو أنا، «ولكن، كان شيئاً ممتعاً جداً. كان بصورة ما أعذب شيء»، قلت، ينتابني الخوف من أنْ أوشك أنْ أُذلّ بطريقة غير متوقّعة، «أكان كذلك حقاً؟»، «ماذا *تقصد*؟»، «أقصد مقابلة شخص حيّ على سبيل التغيير. أمر جميل أنْ تعرفي أنّه ما زال موجوداً في «عصر فقدان الأمل التامّ «هذا»»

يا الله، ما أرقّها من الداخل بقدر ما هي كذلك في الخارج! يا للّباقة! والهدوء! *والحِكمة*! تغويني جسديّاً كما فعلت هيلين – لكن أوجه الشبه تتوقف عند هذا الحد. الاتّزان والثقة بالنفس والتصميم، ولكن، في كلير، كل هذا يُعتبَر أكثر من مغامرة مُترفة. وفي سن الرابعة والعشرين نالت شهادة من جامعة كورنويل في عِلم النفس التجريبيّ، وشهادة ماجستير من جامعة كولومبيا في التعليم، وهي حالياً تلتحق بهيئة التدريس في مدرسة خاصّة في

مانهاتن، حيث تُدرِّس لطلاب في سن الحادية عشرة والثانية عشرة وسوف تكون، ابتداءً من الفصل الثاني الدراسيّ، مسؤولة عن لجنة مراجعة المُقرَّر الدراسي. ومع ذلك، كما علِمت، بالنسبة إلى شخص يبثّ من خلال قيامه بدوره الحرفيّ هالة ساطعة من التحفّظ، والهدوء، وصفاء الذهن، والحضور الراسخ، كانت تتصف ببراءة مُدهِشة وسذاجة في الجانب الشخصيّ من حياتها، أما بخصوص أصدقائها، ونباتاتها، وحديقة الأعشاب، وكلبها، وطبخها، وأختها أوليفيا، التي تقضي فصل الصيف في جزيرة مارثاز فاينْيارد، وأولاد أوليفيا الثلاثة، فإنَّها تتَّصِف بتحفّظَ فتاةٍ صحيحة الجسم في العاشرة من العمر. وفي العموم، فإنَّ هذا المزيج الشفاف من الهيبة الاجتماعيّة الرصينة والحماسة المُكرّسة والحساسيّة الشابة، لا يُقاوَم. ما أعني هو أنّه ***لا ضرورة للمقاومة***. إنها غاوية من النوع الذي أستطيع أنْ أستسلم له.

هنا شعرتُ كأنَّ ناقوساً يقرع داخل بطني عندما تذكّرتُ - وهذا ما يحصل معي يومياً - أنني كتبتُ لكلير رسالتي الغراميّة، البارعة، ومن ثم اقتربتُ كثيراً من الشعور بالرضا بتركها على حالها. بل إنني أخبرت كلينغر بأنَّ مُراسَلة امرأة شابة شهوانيّة بلا أي سبب كنتُ قد تحدثتُ معها مُصادفة على أحد الشواطئ على امتداد ساعتين كانت معياراً لمدى اليأس الذي وصلتْ إليه آمالي المعقودة. بل كدتُ أقرِّر ألّا أظهر على مائدة الإفطار في صباح ذلك اليوم الأخير في الكيب، لأنني كنت من شدّة الخوف مما قد تُخبّئه شهوتي التي تمرّ بفترة نقاهة إذا ما حاولتُ، وأنا أحمل حقيبة سفر بيد وأُمسك بطاقة السفر بالطائرة بالأخرى، أنْ أُخضِعها لاختبارٍ مجنون في الدقيقة الأخيرة. كيف *حدث* ونجحتُ في جعلها تعرف سرّي المُخزي؟ هل أُدينُ بذلك إلى الحظ المحض، إلى كلينغر المتفائل، المتحمّس، أم أُدينُ بكل ما أملك الآن إلى ثدييها وهي بثوب الاستحمام؟ أوه، إنْ كان الأمر كذلك، فليتبارك كل ثديٍ ألف مرّة! أما الآن، الآن فأنا مُبتهج، متحمّس، ومُندهش بكل معنى الكلمة - ممتنّ إلى كل ما يتعلّق بها، إلى الفعاليّة التنفيذيّة التي نظّمت بها حياتها أما بالنسبة إلى الصبر الذي جلبته إلى ممارستنا للحب، وحكمتها تلك التي تبدو أنها تحسّ بالضبط كم يتطلّب الأمر من الشهوة الجسديّة وكم يتطلّب من الدّقة الرقيقة لتهدئة قلقي العنيد وتجديد إيماني

بالجماع وبكل ما يمكن أنْ ينتج عنه. إنَّ كل الخِبرة التعليميّة التي وُهِبَتْ لطلاب الصف السادس أولئك وُهِبَتْ الآن لي أنا بعد الدوام المدرسي - كانت مُدرّستي الرقيقة، اللبقة، تأتي إلى شقّتي في كل يوم، ولكن دائماً ترافقها تلك المرأة الجائعة! وتانك الثديان، تانك الثديان - الكبيران والناعمان والهشّان، أشعر بكل واحد منهما ثقيلاً كضرع على وجهي، دافئاً وثقيلاً في يدي كحيوان صغير بدين مُستغرق في النوم. آه، يا لتلك الفتاة الضخمة وهي فوقي وما تزال شبه عارية! وهي أيضاً، بالمناسبة، حافظة سجلات مجتهدة! نعم، تاريخ كل يوم يمضي مُثبَّت في سجلات مُنظّمة ويمرّ بالكليّة، تاريخ حياتها في الصور الفوتوغرافيّة التي كانت تلتقطها منذ أنْ كانت طفلة، أولاً بآلة تصوير براوني، والآن بأحدث ما أنتجته اليابان من آلات تصوير. ويا لتلك اللوائح! تلك اللوائح المُنظّمة، الرائعة! أنا أيضاً أدوِّن على أوراق صفراء ما أُخطِّط لإنجازه في كل يوم، ولكن مع حلول موعد النوم لا أجد أبداً علامة تفقّد صغيرة تُطمئن بجوار كل مادة، تؤكّد أنّ الرسالة قد أُرسِلتْ، وأنَّ النقود سُحِبَتْ، والمقالة صُوِّرَتْ، وكل شيء قد تمّ. وعلى الرغم من ولوعي الشديد بالتنظيم، الذي انتقلَ إليّ من خلال مورّثات أمي، ما زالت تمرّ عليّ أوقات في الصباح لا أستطيع في أثنائها حتى أنْ أُحدِّد مكان اللائحة التي وضعتُها في الليلة السابقة، وفي المعتاد ما لا أشعر برغبة في القيام به في أحد الأيام، أستطيع أنْ أُرجئه إلى اليوم التالي من دون أي وخز من الضمير. الأمر لا يسير هكذا مع الخليلة أوفينغتون - فمع كل مهمّة تتطلّب الإنجاز، بغضّ النظر عن صعوبتها أو كآبتها، فإنها توليها كامل اهتمامها، وتعالجها كلاً على حِدة وتتابعها بثبات إلى أنْ تحصل على نتيجة. ولحسن حظّي، من الواضح أنَّ إعادة تشكيل حياتي هو مجرّد مهمّة. وكأنّها كتبت اسمي على أعلى إحدى أوراقها الصفراء ومن ثم، تحته، دوَّنت بخط يدها الدائريّ، إرشادات لنفسها، كما يلي: «امنحي د. ك - أولاً: رقّة مُحبّة. ثانياً: عِناقاً حارّاً. ثالثاً: أجواءً معقولة». لأنّه في غضون عام سوف تكون المهمّة قد أُنجزت، مع علامة كبيرة تدل على ذلك بجوار كل مادّة مُنقِذة للحياة. وتخلّيت عن تعاطي مُضادات الاكتئاب، وقمتُ من دون أنْ تُحطمني كثيراً ذكريات السجّاد الجميل، والطاولات، وأطباق الطعام

والكراسي التي كانت بأكملها مُلكاً لهيلين ولي والآن أصبحت مُلكاً لها وحدها، بفرشِ مكانٍ جديد خاصّ بي. بل إنني قبِلتُ دعوةً لحضور حفلِ عشاء في منزل آل شونبرون، وفي ختام الأمسية قبّلتُ بكل أدب وَجْنة ديبي ومنَحَ آرثر وجْنة كلير قُبلة أبويّة. هكذا بسهولة. هكذا بلا معنى. وعند الباب، بينما آرثر وكلير يختمان الحديث الذي دار بينهما على مائدة العشاء - حول المنهج الدراسي الذي تضعه كلير الآن للصفوف العليا - توفرت لديبي ولي الفرصة لإجراء حديث خاصّ. ولسببٍ ما - ربما مقدار الكحول الذي شربه كلٌّ منا - أمسك كلٌّ منا بيديّ الآخر! قالت ديبي، «فتاة أخرى من فتياتك الشقراوات ممشوقات القامة، ولكن هذه تبدو أكثر تعاطفاً بقليل. ونحن الاثنين وجدناها غاية في الظرف، والذكاء. أين تقابلتما؟»، «في ماخور في مراكش. اسمعي، يا ديبي، ألم يحُن الوقت لتدعيني وشأني؟ ماذا تعنين بـ «شقراواتي ذوات القوام الممشوق؟»، «أليست هذه هي الحقيقة؟»، «كلا ليست حتى الحقيقة. لقد كان شَعر هيلين أصهب. ولكن لنفرض أنّه كان مقصوصاً على غرار شعر كلير - فإنَّ الحقيقة هي أنَّ صِفة «شقراوات»، في هذا السياق، وتلك النبرة هي، كما ربما تعلمين، تعبير ازدرائيّ يستخدمه المُثقفون وأناس جديّون آخرون ليستخفّوا بالنساء الجميلات. وأعتقد أيضاً أنها مشحونة بالتضمين البغيض عند مُخاطبة رجال من منشأي ولديهم لون بشرتي. وأذكر كم كنتِ مولعة وأنت في ستانفورد بلفت انتباه الناس إلى شذوذ شخص مُثقف مثلي قادم من «مُنتجع اليهود». وكنتُ أُفاجأ بأنّ هذا التعبير مُخفَّف»، «أوه، إنّك تتعامل مع نفسك بجديّة صارمة. لِمَ لا تعترف بأنَّ لديك ولعاً بأولئك الشقراوات الضخمات وتترك الأمر عند هذا الحدّ؟ ليس هناك ما يستدعي الشعور بالخجل. إنهنَّ جميلات وهن يتزلّجن على الماء وشعورهن تنساب كما الأمواج. وأراهن على أنّهنَ يبدون جميلات في كل مكان»، «ديبي، سوف أعقد اتّفاقاً معك. سوف أعترف بأنني لا أعرف أيّ شيءٍ عنك، إذا اعترفتِ أنتِ أنكِ لا تعرفين شيئاً عني. أنا على يقين من أنك صاحبة كيانٍ كامل رائع وحياة داخليّة لا أعرف عنهما أي شيء»، قالت «كلا، هذا غير صحيح. بل هذا كل شيء. اقْبله أو دعْه». وطفقنا كلانا نضحك. قلت «أخبريني، ماذا يرى آرثر فيك؟ إنَّ هذا حقاً أحد ألغاز الحياة. ماذا لديك

ولا أراه؟»، أجابت «كل شيء». قلتُ في السيارة، وأنا أسرد على كلير نسخة مُختَصَرة من الحديث، «إنَّ المرأة ملتوية»، قالت كلير «أوه، كلا، إنها فقط سخيفة، لا أكثر»، «إنها تخدعكِ، يا كلاريسا. إنَّ السخف هو فقط المظهر الخارجي – أما الاغتيال فهو جوهر اللعبة»، قالت كلير «أه، يا عزيزي، إنَّ الذي خدعَتْه هو *أنتَ!*»

كفاني إعادة تأهيلي للعودة إلى المجتمع. أما بالنسبة إلى والدي وإحساسه الهائل بالوحدة فقد أصبح الآن يستقلّ القطار من سيدارهيرست لكي يتناول وجبة العشاء في مانهاتن مرَّة في الشهر؛ ولم أستطع أنْ أتملّقه ليفعل ذلك أكثر من مرّة، ولكن في الحقيقة، قبل أنْ تُوجد الشقّة الجديدة، وقبل أنْ توجد كلير لكي تشترك في الحديث وتساعد في الطبخ، لم أكنْ ألحّ في تملّقه كثيراً، كلا، لم أفعل لكي يجلس كلٌ منا ويرمق الشخص الثالث بحزن وهو يأكل قطعته من اللحم، كيتيمين في تشايناتاون... ليس لكي انتظر سماعه يسأل وهو يأكل الجوز، «وذلك الرجل، لا أظنّه عاد لكي يُضايقك، أليس كذلك؟»

في الواقع، لقد خفّفتُ الضغط قليلاً لإسكات ذلك الثرثار العظيم المُسمّى بومغارتن. وواظبنا على تناول وجبة الغداء معاً بين حينٍ وآخر، أما الولائم الفخمة فتركتها له لكي يُشارك فيها وحده. ولم أُعرِّفه إلى كلير.

يا إلهي، ما أمتع الحياة عندما تكون سهلة، وما أصعبها عندما تكون شاقّة!

ذات ليلة، بعد أنْ تناولت وجبة العشاء في شقّتي، بينما كانت كلير تعدّ دروس اليوم التالي على طاولة العشاء بعد إزالة الأطباق عنها، استجمعتُ شجاعتي أخيراً، أو لم أعد في حاجة إلى «الشجاعة»، لأُعيد قراءة ما كتبتُهُ في كتابي عن تشيخوف، وكنتُ قد وضعته على الرف منذ أكثر من عامين. ووسط الكفاءة المُجدّة والمُهلِكة لتلك الفصول المُبعثرة المقصود منها التركيز على خيبة الأمل الرومانسيّة، عثرتُ على خمس صفحات صالحة بصورة ما للقراءة – تأملات تنبثق من قصة تشيخوف الهزليّة الصغيرة «المتقوقِع»، وتدور حول نهوض استبدادي وانهيار شهير – يقول الراوي ذو القلب الطيب بعد انتهاء مراسم جنازة الدكتاتور، «أعترفُ بأنَّ دفن أُناس

كبيليكور شيء ممتع جداً» - نهوض وانهيار موظف رسمي في مدرسة ثانويّة ريفيّة نجح حُبّه لإصدار أوامر التحريم وكراهيّته لكل زيغ عن القواعد في السيطرة بإحكام على كل «العقلاء، والمحترمين» في البلدة كلها طوال خمسة عشر عاماً. وأعدتُ من جديد قراءة القصّة، ثم إعادة قراءة قصّة «عنب الثعلب» و«عن الحب» المُتمِّمة لها وتشكّلان سلسلة من التأملات على نسقٍ روائيّ حول آلام متنوعة يولّدها السجن الروحيّ - الاستبداد الوضيع، والرضا الإنساني العادي، وختاماً، حتى العوائق التي تنشأ من الشعور بضرورة دعم الحسّ المُهذَّب للرجل الموسوس. وعلى امتداد الشهر التالي، كنتُ أعود إلى أدب تشيخوف كل ليلة، ودفتر الملاحظات على حجري، وبعض الملاحظات المؤقّتة في ذهني، مُصغياً إلى بكاء الألم من مخلوقٍ مُحاصَر وغير اجتماعي، وإلى زوجات كريمات الأصل يتساءلن في أثناء تناول وجبة العشاء مع الضيوف، «لِمَ أبتسم وأكذب؟»، وإلى أزواج مُستقرين ظاهريّاً وآمنين، و«ممتلئين بحقيقة تقليدية وبخداع تقليديّ». وفي الوقت نفسه أراقبُ كيف يكشف تشيخوف النقاب، ببساطة وبوضوح، ولكن بأسلوبٍ ليس معدوم الرحمة كأسلوب فلوبير، عن حالات مُهينة وفاشلة - والأسوأ من ذلك كلّه، عن القوة المُدمِّرة - للذين يسعون لإيجاد سبيل *للخروج* من قوقعة القيود والأعراف، من الضجر المُفسِد ومن اليأس الخانق، من الأوضاع الزوجيّة المؤلمة والزيف الاجتماعي المُستشري، لينتقلوا إلى ما يعتبرونه حياةً ممتعة تضج بالنشاط. هناك الزوجة الشابة الغاضبة في قصّة «سوء حظ» التي تبحث عن «القليل من الإثارة» تواجه بها طبيعة وضعها المُحترم المُهان؛ وهناك مالك الأطيان الذي أضناه الحب في قصّة «أريادن» الذي يعترف بعجز هيرتزوقيّ[1] بعلاقة حب فاشلة رومانسيّة مع امرأة شرسة سوقيّة عاهرة حوّلته تدريجيّاً إلى كاره للنساء لا شِفاء له، لكنّه مع ذلك ينتظرها على أحرّ من الجمر؛ وهناك الممثّلة الشابة في قصّة «قصّة مملّة» التي يتحول حماسها المُشرِق، المُفعَم بالأمل لحياة المسرح، وحياتها مع الرجال، إلى مرارة مع تجاربها الأولى على خشبة المسرح ومع

1- هيرتزوقيّ: في الغالب نسبة إلى المخرج الألماني فرنر هيرتزوق (ولد عام 1942) وإشارة إلى طبيعة أفلامه. - المترجم

الرجال، بالإضافة إلى افتقارها إلى الموهبة - «كما ترى، أنا لستُ موهوبة، أنا لستُ موهوبة و... وأتّصِفُ بالكثير من الأشياء التافهة». وهناك رواية «المبارزة». وفي كل ليلة على مدى أسبوع (وكلير تتنقّل قريباً مني) كنتُ أُعيد قراءة تُحف تشيخوف عن ليفسكي الغاوي، ذي العقليّة الأدبيّة، الذكيّ، القذر، والمراوغ، المنغمس في أكاذيبه وفي رثائه لنفسه، وخصم ليفسكي، الضمير المؤنِّب الذي لا يعرف الرحمة، الذي يكاد يقتله، فون كارين العالِم المهذار. أو هكذا وجدتُ القصّة: فون كورين النائب العام العقلانيّ بشراسة ولا يعرف الرحمة يحشد قِواه لكي يتحدّى حس الخزي والإثم الذي يمثّل ليفسكي، ولم يعد، للأسف، يستطيع الفرار. هذا الانغماس في رواية «المبارزة» هو الذي دفعني أخيراً إلى الكتابة، وخلال أربعة أشهر تحوّلت الصفحات الخمس المأخوذة من النسخة القديمة غير المُكتملة وأُعيدت صياغتها لأطروحتي حول الوهم الرومانسي إلى ما يُقارب أربعين ألف كلمة تحت عنوان «المتقوقع»، وهي مقالة حول السماح والمنع في عالم تشيخوف - أمنيات تحققت، ومسرّات مُنِعَتْ، وألم مُصاحب لها: دراسة، في العمق، لِما يؤدي إلى تشاؤم تشيخوف المُضلل فيما يتعلّق بالأساليب - الشكّاكة، والبغيضة، والنبيلة، والمرتابة - التي يُحاول رجال ونساء عصره عبثاً أنْ يُحققوا بها «ذلك الحسّ بالحريّة الشخصيّة» الذي يُكرِّس تشيخوف نفسه له. إنّه كتابي الأول! مع صفحة عليها إهداء يقول «إلى سي. و»

أقول لكلينغر (ولكيبيش - الذي لا ينبغي أنْ ينسى أبداً، أبداً، أبداً)، «إنها بالنسبة إلى الثبات، كما كانت هيلين بالنسبة إلى التهوُّر. كان موقفها من الحسّ السليم كموقف بيرغيتا من الطيش. لم أُصادف قط مثل ذلك التفاني للعمل العادي في الحياة اليوميّة. شيء رائع حقاً الطريقة التي تتعامل بها مع كل يوم يحل على حِدة، والانتباه الدقيق الذي توليه. لا وجود للحلم هنا - بل فقط عيشٌ ثابت، ومُكرَّس. أنا أثقُ بها، هذا ما أريد الوصول إليه»، ثم أُعلنُ بلهجة انتصار، «وهذا ما يُنهي الأمر، أي الثقة».

أخيراً يُجيب كلينغر على هذا كلّه بـ «إلى اللقاء وحظاً وافراً». وعند باب غرفة مكتبه بعد ظهيرة يوم ربيعيّ عندما نفترق، أُضطر إلى التساؤل أيُعقل أنني أستطيع حقاً أنْ أستغني عن الابتهاج والثبات والإصغاء، والتحذير،

والتشجيع، والقبول، والعزاء، والتهليل، والمعارضة - باختصار، عن جرعات حِرفيّة من لعب دور الأم والأب والصداقة البسيطة ثلاث مرّات في الأسبوع ولمدة ساعة. أيُعقل أنني نجحت؟ هكذا ببساطة؟ فقط من أجل كلير؟ ماذا لو أنني أستيقظ في صباح الغد مرة أخرى رجلاً يحمل فوهة بركان بدل القلب، ومرة أخرى من دون مقدرة الرجل وشهوته وقوتّه وحكمه، من دون أقلّ قدر من السيطرة على جسدي أو عقلي أو مشاعري.

قال كلينغر وهو يُصافحني، «ابقَ على اتّصال». وكما حدث أنْ عجزتُ عن النظر إلى وجهه مباشرة في اليوم الذي تجاهلتُ ذِكر تأثير صورة ابنته الفوتوغرافيّة على ضميري - كأنّني بكبتِ تلك الحقيقة قد أوفِّر على نفسي سماع حكمه غير المنطوق، أو حكمي الخاص - كذلك لم أتمكّن من ترك عينيّ تُقابلان عينيه عند الوداع. أما الآن فالسبب يعود إلى أنني أُفضِّل ألّا أُنفِّس عن مشاعر ابتهاجي وامتناني بعاصفة من البكاء. وتنشّقتُ انفعالاتي كلّها داخل أنفي - كبتُّ شكوكي كلّها بحزم، برهة - ثم قلت، «فلنأمل ألّا أُضطر إلى ذلك»، ولكن حالما أصبحتُ وحدي في الشارع، كرّرت الكلمات التي لا تُصدَّق بصوت مرتفع، ولكن هذه المرّة مصحوبة بالانفعالات اللائقة: «لقد اجتزت الامتحان!»

***

في شهر حزيران الذي تلا، بعد انتهاء العام الدراسي بالنسبة إلينا كلينا، طرنا أنا وكلير إلى شمال إيطاليا، وكانت المرّة الأولى التي أعود فيها إلى أوروبا منذ أنْ ذهبتُ إلى هناك في جولة مع بيرغيتا قبل ذلك بعقدٍ من الزمان. في مدينة البندقيّة أمضينا خمسة أيام في نُزُل هادئ يقع بالقرب من الأكاديمية. وفي صباح كل يوم كنا نتناول وجبة الإفطار في حديقة النُزُل العطِرة ومن ثم نتنقّل، بأحذية المشي، جيئة وذهاباً عبر الجسور والأزقّة التي تؤدي إلى المعالم الشهيرة التي علَّمتْ كلير عليها على الخارطة لكي نقوم بزيارتها في ذلك اليوم. وأينما التقطتْ صوراً لتلك القصور والساحات والكنائس والنوافير، كنتُ أبتعد عن المسارات، لكنني كنتُ دائماً أنظر خلفي لكي ألتقط صوراً لها ولجمالها الخالي من التبرّج.

وفي كل أمسية بعد تناول وجبة العشاء تحت الشجرة في الحديقة، كنا نركب الغندول ونقوم بجولة قصيرة. وأتساءل، وكلير إلى جواري على الأريكة التي تصِفها أمي بأنها «أشد المقاعد وثارةً، وفخامة، وراحة في العالم»، أتساءلُ من جديد إنْ كان للصفاء وجود حقاً، وإنْ كان هذا الرضا، هذا الانسجام الرائع حقيقيّاً. هل انتهى *الأسوأ*؟ ألم تعُد هناك أخطاء أرتكبها؟ أو تكفير عن تلك التي خلّفتها ورائي؟ هل كان ذلك كلّه مجرد مرحلة استعداد، مرحلة شباب طويلة وتائهة تجاوزتها الآن؟ قلت «أواثقة أنتِ من أننا لم نمُتْ ونصعد إلى السماء؟»، أجابتْ «لا أعلم، يجب أنْ تسأل صاحب الغندول»

في يومنا الأخير تناولنا وجبة الغداء في قصر غريتّي. وعلى المسطبة نفحتُ رئيس النُدُل إكراميّة وأشرتُ إلى المائدة التي تخيّلتُ نفسي جالساً عليها مع الطالبة الجميلة التي كانت تتناول السكاكر كوجبة غداء في غرفة الدرس؛ طلبتُ ما كنتُ قد أكلت في ذلك اليوم في بابلو ألتو عندما كنا ندرس قصص تشيخوف التي تتناول موضوع الحب وشعرتُ بأنّني على حافة انهيار عصبيّ – الفرق هو أنني في هذه المرة لا أتخيّل الوجبة اللذيذة مع رفيقتي النضرة، النقيّة، في هذه المرَّة كلا الأمرين حقيقيان وأنا على ما يرام. وأسترخي في جلستي –أنا أحمل كأساً من النبيذ البارد؛ وكلير الممتنعة عن شرب الخمر وابنة أبوين مُدمنين على الشرب، تحمل كأس الـ*acqua minerale* (المياه المعدنيّة)– أمدّ بصري عبر المياه المتلألئة لهذه البلدة الدُمية ذات الجمال الفريد وأقول لها، «أتعتقدين أنَّ البندقيّة تغرقُ حقّاً؟ إنَّ المكان يبدو بصورة غامضة أنّه ما زال في المكان الذي كان عليه في آخر مرّة زرته»

«مع مَنْ كنتَ حينئذٍ؟ مع زوجتك؟»

«كلا. حدثَ ذلك في عام منحة فولبرايت. كنت مع إحدى الفتيات»

«ومَنْ كانت؟»

إلى أي مدى يمكن أنْ تشعر بأنها مُعرَّضة للخطر أو للاضطراب، وما الذي أجازف بإيقاظه، إنْ حدث أي شيء، إذا أقدمتُ على إخبارها بكل شيء؟ أوه، كم يبدو هذا التعبير دراميّاً! ممَّ يتألّف تعبير «كل شيء» – أكثر

مما سيجده بحارٌ شابٌ خرج في أول رحلة له إلى مرفأ أجنبيّ؟ أي حب البحّار للقليل من الإثارة، ولكن، كما اتّضحَ، لا بطن البحّار ولا قوّته... ومع ذلك، بالنسبة إلى شخص موزون ومُنظَّم، إلى امرأة سخّرتْ كل طاقتها الهائلة لجعل الطبيعيّ والعاديّ ما كان بالنسبة إليها غير مُنتَظَم بصورة موجِعة في منزل طفولتها، فإنَّ أفضل جواب وجدته هو، «أوه، ليست معروفة، حقاً» وأغلقتُ الحديث عند هذا الحد.

على الأثر لم أعُد أفكّر إلا في تلك الفتاة غير المعروفة التي لم تلعب أي دور في حياتي لأكثر من عشرة أعوام. وفي أثناء درس تشيخوف ذاك تذكَّرَ ذلك الزوج غير المُناسِب أياماً أكثر إشراقاً على مسطبة قصر غريتي، عندما كنتُ ذلك الشاب العفيّ، المتهوّر كيبيش، الذي لا يزال يجوب أوروبا بلا آلام؛ وهو الآن على مسطبة قصر غريتي، حيث أتيت لأحتفل بانتصار وضع حجر الأساس لحياة جديدة ممتعة ومستقرّة، لأحتفل بالتجديد المُذهل للصحّة والسعادة. أتذكّر الساعة المُبكّرة، والمُسكِرة من تحوّلي إلى ساحر نساء، في تلك الليلة في الغرفة التحتيّة في لندن عندما حان دوري لأسأل بيرغيتا عن أشدّ ما ترغب فيه هي. إنَّ أشدّ ما رغبتُ فيه مَنَحَتْه الفتاتان لي؛ وأشدّ ما رغبت إليزابيث فيه سوف نتركه إلى الآخر – إنها لا تعلم... لأنّها في قرارة قلبها، كما سنكتشف عندما ستضربها الشاحنة، لم تكن ترغب في أي شيء. ولكنْ لدى بيرغيتا رغبات لم تكن تخشى التحدث عنها، واستمررنا في إشباعها. نعم، في أثناء جلوسي قبالة كلير، التي قالتْ إنَّ نُطَفي التي تملأ فمها تجعلها تشعر بأنها تغرق، وأنَّ هذا شيء لا يهمّها أنْ تقوم به، أتذكّر مشهد بيرغيتا وهي راكعة أمامي، ووجهها مُتّجه إلى أعلى لكي تتلقّى دفق النُطف التي تسقط على شعرها، وجبينها، وأنفها. وتصرخ «*Har !!har*»، بينما إليزابيث بردائها الصوفي الورديّ، متّكئة على السرير، تنظر بذهولٍ جامد إلى المُستمني العاري وإلى المتضرعة أمامه شبه العارية.

وكأنَّ هذا الشيء يهمّ! كأنَّ كلير تكبح أي شيء *ذا أهميّة*! وبلومي نفسي على فقدان الذاكرة، والحماقة، والعقوق، وقِلّة الخبرة، وعلى الخسارة الجنونيّة وذات النزعة الانتحاريّة لكل منظور، لم يكن دفق الشبق النهِم الذي شعرتُ به موجّهاً نحو هذه المرأة الشابّة الفاتنة التي لم أخرج معها إلّا حديثاً

إلى حياةٍ تعِدُ بأعمق إنجاز، بل نحو الرفيقة الضئيلة ذات الأسنان البارزة التي رأيتها آخر مرّة تغادر غرفتي في منتصف الليل على بُعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من مدينة روين قبل أكثر من عشرة أعوام، نحو اشتهاء توأم روحي الفاسقة، التائهة، التي، قبل أنْ يبدأ إحساسي بالسماح انهياره الداخليّ، رحّبتْ بحميّة وبشجاعة كما فعلتُ أنا بالسلوك غير العادي وبالتفكير المُختلِف. آه، يا بيرغيتا، ارحلي! ولكن هذه المرَّة نحن في غرفتي هنا في البندقيّة، في فندق يقعُ في زقاقٍ ضيِّق قبالة سوق تزاتيره، بالقرب من الجسر الصغير حيث التقطَتْ كلير لي صورة في وقتٍ مُبكِّر من النهار. عصبتُ عينيها بمنديل، وعقدتُه بعناية من الخلف، ثم وقفتُ فوق الفتاة المعصوبة العينين وشرعتُ أُسدِّد ضربات -خفيفة في أول الأمر- بين ساقيها المنفرجتين. وراقبتها وهي تتوتّر باتجاه الأعلى بوركيها لكي تتلقّى لسعة كل ضربة من حزامي على تغضّن منطقة العانة. راقبتُ هذا كما لم أراقب أيّ شيء من قبل في حياتي. همستْ بيرغيتا «بُحْ بكل شيء»، وفعلتُ، بزمجرةٍ مكبوتة، منخفضة، كما لم أفعل من قبل في مُخاطبة أي شخص أو أي شيء.

إذن بالنسبة إلى بيرغيتا - بالنسبة إلى ما أُفضّل الآن أنْ أرفضه بوصفه «فترة شباب طويلة وتتّسم بالضياع» - كان إحساساً طاغياً بالقرابة الداعرة... وبالنسبة إلى كلير، بالنسبة إلى مُنقذتي المُحبّة والشغوفة حقاً تلك؟ كان غضباً؛ خيبة أمل؛ اشمئزازاً - امتعاضاً من كل ما فعلتْ بصورة رائعة، استياءً من ذلك الشيء الصغير الذي لن تتنازل لتقوم به. رأيتُ كم كان شيئاً سهلاً جداً ألّا أكون ذا فائدة بالنسبة إليها. الصور الفوتوغرافيّة. اللوائح. الفم الذي لن يجرع نُطفي. لجنة مُراجعة المنهج الدراسيّ. كل شيء.

كبحتُ دافع النهوض فجأة عن المائدة والاتصال هاتفيّاً بالدكتور كلينغر. لن أكون أحد أولئك المرضى المُهسترين على الطرف المُقابل من خط ما وراء البحار. كلا، لن أكون كذلك. أكلتُ الوجبة حال تقديمها ومع حلول وقت طلب فاكهة بعد الطعام، بدأ اشتياقي إلى بيرغيتا التي تتوسل إليّ وبيرغيتا القابعة تحتي وبيرغيتا التي أسفلي، ذلك الاشتياق كلّه بدأ يخبو، فعندما تتُرَك تلك الأشواق وشأنها سوف تخبو. والغضب أيضاً سوف يختفي، ويحلّ محلّه حزنٌ ملؤه الإحساس بالخزي. وإذا شعرت كلير

بارتفاع مدّ كل ذلك البؤس وانحساره - وكيف لا تشعر؟ كيف بغير هذا أفهم كآبتي الباردة، الصامتة؟ - فسوف تُقرِّر ادّعاء الجهل، والاستمرار في الكلام عن مُخططاتها التي ستقدّمها للجنةِ مراجعةِ المنهج الدراسي إلى أنْ يزول ببساطة ما فرَّقَ بيننا.

انطلقنا من البندقيّة بسيارة مُستأجرة إلى بادوا لكي نتفرّج على لوحات جيوتو. والتقطت كلير المزيد من الصور. كانت ستُظهِرها حالما نعود إلى أرض الوطن ومن ثم -نجلس على الأرض ونتربّع- وهي وضعيّة السكينة، والتركيز، وضعيّة الفتاة الطيّعة جداً حقاً - ونُلصِقها، حسب تسلسلها المناسب، في ألبوم ذلك العام. الآن سوف يُصبح شمال إيطاليا في خزانة الكتب عند آخر السرير حيث تحتفظ بألبومات صورها، الآن سوف يُصبح شمال إيطاليا *مُلكها* إلى الأبد، بالإضافة إلى مدينة شينيكتادي، مسقط رأسها ومربى نشأتها، ومدينة إيثاكا، حيث التحقتْ بالجامعة، ومدينة نيويورك، حيث أقامت وعملت ومؤخراً وقعتْ في شِباك الحب. وسوف أكون عند آخر السرير، مع أماكنها، وعائلتها وأصدقائها.

على الرغم من أنَّ العديد من سنوات عمرها الخمسة والعشرين ابتُليَتْ بمُشاجرات والديها المتخاصمين دائماً -بنزاعات غالباً ما يُحرّضُ عليها العديد من البهلوانات الإسكتلنديين- واعتبرتْ أنَّ الماضي يستحق التسجيل والبقاء في الذاكرة، ولو فقط لأنها صمدتْ في وجه الألم والفوضى وأسّستْ حياة لائقة خاصّة بها. وكما تحبّ أنْ تقول، ليس لديها إلّا هذا الماضي لتتذكّره، على الرغم من صعوبته عندما كانت القنابل تنفجر من حولها وكانت تبذل أقصى جهدها لتنشأ من دون أنْ يُصيبها أذى. ومن ثم، طبعاً، لأنَّ السيد والسيدة أوفينغتون بذلا المزيد من الجهد ليكونا خصمين وليس مواسيين لأولادهما لا يعني أنَّ ابنتهما تحب أنْ تحرم *نفسها* من المُتع العاديّة التي تعتبرها العائلات العاديّة (إنْ كان لها وجود) بديهيّة. وكانت كلير وأختها الأكبر سنّاً تُكرسان نفسيهما بحماس لكل أسباب الراحة الممتعة في الحياة العائلية -كتبادُل الصور الفوتوغرافيّة، ومنح الهدايا، والاحتفال بالعُطل الرسميّة، والتواصُل المستمر عبر الهاتف- وكأنها وأوليفيا هما الأبوان الحكيمان وكأنَّ الأبوين هما الذريّة القليلة الخِبرة.

من فندقٍ في بلدة جبليّة صغيرة عثرنا فيه على غرفة مزوّدة بمسطبة وسرير وتطلّ على مشهد ريفيّ، قمنا بجولات يوميّة إلى فيرونا وإلى فيتشينزا، وبالتقاط صور، صور، صور. ما هو عكس دقّ مسمار في نعش؟ في الواقع، هذا ما سمعتُ بينما كانت آلة تصوير كلير تلتقط الصور. ومن جديد شعرتُ كأنني حبيس شيءٍ رائع. وذات يوم اكتفينا بالتنزّه حاملين معنا غداء نزهة على دروب الأبقار وخلال الحقول المُزهِرة، بين أكمام ضخمة من أزهار الهصطونيّة الدقيقة وأزهار الحوذان الصغيرة الصقيلة والخشخاش الخياليّة. كان في استطاعتي أنْ أمشي بصمتٍ مع كلير على امتداد ساعات طوال. كان يكفيني أنْ أستلقي على الأرض مُعتمداً على مِرفقي وأراقبها تقطف أزهاراً بريّة لكي تأخذها معها إلى غرفتنا وتنسّقها داخل كأس من الماء تضعها بجوار وسادتها. لم أكنْ أشعر بأنني في حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك. كلمة «أكثر» لا معنى لها. وبدا أنَّ بيرغيتا أيضاً لم يعُد لها معنى، وكأنَّ كلمتي «بيرغيتا» و«أكثر» هما فقط طريقتان مختلفتان لقول الشيء نفسه. بعد استعراض نفسها في قصر غريتي، فشلتْ في أنْ تظهر بمظهر فاتن من جديد. وعلى مدى بضع ليال واظبَتْ على زيارتي كلّما تضاجعنا أنا وكلير – كانت تركع، دائماً تركع، وتتوسل للحصول على أشدّ ما يُثيرها – لكنها بعد ذلك رحلتْ، وأنا أعتلي الجسد الذي أعتليه، وبهذا وحده شاركتُ بكل ما أردتُ الحصول عليه من «الأكثر»، أو أردتُ أنْ أريد. نعم، أنا فقط تشبّثتُ بكلير وأخيراً رحلت الزائرة غير المدعوّة، وتركتني لأستمتع من جديد بالحقيقة الهائلة لحُسن حظي العظيم.

في آخر يومٍ لنا، حملنا غداءنا إلى قمّة حقل تطلّ عبر تلال نضرة مرتفعة على القِمم البيضاء المُذهلة لجبال دولومايت. وتمدَّدتْ كلير على ظهرها بجوار مكان جلوسي، وشكلها الضخم ينتفخ برقّة ثم يهبط مع كل نَفَس تتنفّسه. قلت لنفسي، وأنا أنظر بثبات إلى هذه الفتاة الضخمة ذات العينين الخضراوين بملابسها الصيفيّة الرقيقة، إلى وجهها الصافي، البيضاويّ، الصغير والشاحب، وإلى جمالها الأثيريّ والنظيف – الجمال الجدير، كما

أدركتُ، بامرأة من جماعات الآميش[1] أو الهزّازين[2] – قلت، «تكفيني كلير. نعم، «كلير» و«تكفي» – هاتان الكلمتان هما أيضاً كلمة واحدة»

من البندقيّة طرنا عبر فيينا – ومنزل سيغموند فرويد – إلى براغ. وخلال ذلك العام الأخير كنتُ أُعطي دورة في دراسة كافكا في الجامعة – كانت الأطروحة التي من المُفترَض أنْ أقرأها بعد ذلك بأيام في مدينة بروج تتناول موضوع انهماك كافكا بالجوع الروحيّ – لكنّني لم أكنْ قد شاهدتُ بعد مدينته، إلّا في ألبومات الصور. وقُبيل مُغادرتنا وضعتُ الدرجات للامتحانات النهائيّة التي أدّاها خمسة عشر من طلابي في الحلقة الدراسيّة، الذين قرأوا أدبه كلّه، وسيرته التي وضعها ماكس برود، ويوميات كافكا ورسائله إلى ميلينا وإلى والده. وأحد الأسئلة التي طرحتها في الامتحان كان ما يلي _

«في «رسائله إلى والده» كتب كافكا يقول: «إنَّ كتاباتي كلها تدور حولك؛ وكل ما فعلتُه هناك، أصلاً، كان أنْ أنوح على كل ما لم أتمكن من النوح عليه على صدرك. كان ذلك بمنزلة رحيل عنك مقصود واستغرقَ وقتاً طويلاً، ولكنْ، على الرغم من أنّك أجبرتني عليه، إلّا أنّه اتّخذَ مساره في اتّجاه حدَّدتُه أنا...» ماذا قصد كافكا عندما قال لوالده «إنَّ كتاباتي كلها تدور حولك»، ثم أضاف، «لكنّها اتّخذتْ مساراً في اتّجاهٍ حدّدتُه أنا»؟ إذا شئت، تخيّل أنكَ أنتَ ماكس برود وتكتب رسالة باسمك إلى والد كافكا، تشرح فيها ما يدور في خَلَد صديقك...»

لقد سعدتُ بعدد الطلاب الذين أخذوا باقتراحي وقرّروا أنْ يتظاهروا بأنهم من أصدقاء الكاتب وكتّاب سيرته – وبوصفهم الانفعالات الداخليّة لأشدّ الأبناء غرابة نحو أشدّ الآباء تقليديّة، عَرَضوا الحساسيّة الناضجة لعزلة كافكا الأخلاقيّة، وللسِمات الخاصة لوجهة نظره ومزاجه، ولتلك العمليات الخياليّة البارعة التي يُحوّلها شخص واسع الخيال ككافكا مُنخرط في الحياة

1- الآميش: جماعة منعزلة في كندا تحمل اسم مؤسّسها، جيكوب أمّان، تعيش حياة بدائيّة بعيدة عن كل مظاهر المدنيّة الحديثة، على نمط الحياة التي كانت سائدة في عصور سالفة. – المترجم

2- الهزّازين: طائفة دينيّة أميركيّة اشتراكيّة. – المترجم

اليوميّة إلى حكاية خرافيّة عن كفاحه اليوميّ. يكاد لا يوجد أديب كبير واحد جاهل يضلّ طريقه داخل تأويل ميتافيزيقي بارع! آه، ما أسعدني بالحلقة الدراسيّة حول كافكا وبنفسي لِما أنجزته هناك. ولكن تلك الأشهر الأولى التي أمضيتها مع كلير، لِمَ لم تكن مصدر سعادة لي؟

قبل أنْ أغادر الوطن أخذتُ اسم ورقم هاتف شخص أميركيّ يقضي العام في التدريس في براغ، ولحُسن الحظ، وكما اتّضحَ (أليس هذا ما يحدث في هذه الأيام؟) كان مع أحد أصدقائه التشيك، وهو أستاذ آخر يُدرِّس الأدب، حُرَّين بعد الظهيرة وفي استطاعتهما أنْ يُرافقانا في جولة في براغ القديمة. ومن مكان جلوسنا على أحد المقاعد في ساحة المدينة القديمة رأينا المبنى الفخم حيث التحقَ فرانتز كافكا بمدرسة ثانويّة. إلى يمين المدخل ذي الأعمدة كان موقع عمل هيرمان كافكا في الطابق الأرضيّ. قلت «لم يستطع أنْ يتخلّص منه حتى وهو في المدرسة»، أجاب الأستاذ التشيكي، «من سوء حظّه، ومن حُسن حظ الأدب». وفي مبنى الكنيسة المهيب القريب ذي الطراز القوطي، وفوق أحد جدران صحن الكنيسة، نافذة صغيرة مُربّعة، تواجه شقّة مُجاورة حيث، كما علِمتُ، كانت عائلة كافكا تسكن ذات يوم. قلت، إذن ربما جلس كافكا هناك واختلسَ النظر إلى الآثمين وهم يعترفون وإلى المؤمنين وهم يُصلّون... وداخل هذه الكنيسة، ألم يُعدّ ربما، إذا لم يكن بشكل تام، ليكون الكاتدرائيّة التي ظهرت في رواية «*القلعة*»، أو على الأقلّ لكي يكون لها جوّها العامّ؟ وتلك الشوارع ذات الزوايا الحادّة على الطرف المُقابل من النهر المؤديّة بشكل غير مُباشر إلى القلعة الممتدة والمبنيّة على طراز قلاع عائلة هابسبرغ، لابد أنّها كانت مصدر إلهام له... قال الأستاذ الجامعي التشيكيّ، ربما الأمر كذلك، ولكن يُعتَقَد أنَّ قلعة صغيرة في قرية تقع شمالي بوهيميا كان كافكا يعرفها من زياراته إلى جدّه هي النموذج الأساسيّ للموقع الجغرافي لرواية «*القلعة*». ثم هناك القرية الريفيّة الصغيرة التي كانت أخته قد أمضتْ فيها عاماً لإدارة إحدى المزارع وكان كافكا قد ذهب إليها لكي يمكث معها خلال فترة مرضه. وقال الأستاذ التشيكي، ولو توفَّرَ لدينا وقت كافٍ، لاستغللناه كلير وأنا

في القيام بزيارة سريعة إلى الريف. «قُمْ بزيارة إحدى تلك البلدات التي تخشى الأجانب، بحانتها التي تعبق بالدخان والنادلة الناهد، وسوف تكتشف كم كان هذا الكافكا واقعياً بكل معنى الكلمة»

للمرَّة الأولى شعرتُ بشيءٍ خلاف الكياسة في هذا الأكاديميّ الضئيل الحجم، ذي النظارات، والملابس الأنيقة - شعرتُ بكل ما كانت تلك الكياسة تعمل على كبحه.

بالقرب من جدار القلعة، في شارع الخيميائيّ المبلَّط بالحجارة الكبيرة - ويُشبه مسكناً مذكوراً في حكاية تُروى لطفل قبل النوم، مكاناً يصلح لإقامة قزم خرافي أو جنّي - يقعُ المنزل الصغير الذي كانت أخت كافكا الأصغر سناً قد استأجرته في أحد فصول الشتاء لكي يعيش كافكا فيه، وكان ذلك أحد جهودها التي بذلتها لكي تُبعِد الابن العازب عن الأب والعائلة. وقد تحوّل المكان الصغير الآن إلى محل لبيع التذكارات. أصبحت البطاقات البريديّة المُصوّرة وتذكارات من براغ تُباع في المكان الذي كان كافكا يخطّ بدقّة الفِقرة نفسها عشر مرّات بنُسخ مختلفة في دفتر يومياته، وحيث رسم نفسه بأشكالٍ نحيلة ساخرة، أخفى «رموزه الخاصّة» بالإضافة إلى كل شيء آخر حرفيّاً، في أحد الأدراج. والتقطتْ كلير صورة لأساتذة الجامعة الثلاثة أمام غرفة تعذيب الكاتب الساعي إلى الكمال. وقريباً سوف تحتل تلك الصورة مكانها في أحد ألبومات الصور القابعة عند آخر سريرها.

بعد انطلاق كلير مع الأستاذ الأميركيّ، وفي حوزتها آلة التصوير، ليقوما بجولة حول القلعة، جلستُ لأشرب الشاي مع الأستاذ سوسكا، دليلنا التشيكي. عندما غزا الروس تشيكوسلوفاكيا وقضوا على حركة ربيع براغ الإصلاحيّة، أُقيلَ سوسكا من منصِبه في الجامعة وأُحيل، وهو في سن التاسعة والثلاثين، إلى «التقاعد» مع معاش ضئيل جداً. وزوجته أيضاً، العاملة في البحث العِلميّ، أُقيلت من منصبها لأسبابٍ سياسيّة، ولكي يُعيل عائلة تتألّف من أربعة أشخاص عملَ مدّة عام كضارب على الآلة الكاتبة في مصنع لتعليب اللحوم. وتساءلتُ، كيف استطاع الأستاذ الجامعي المتقاعد أنْ يُحافِظ على معنوياته. كانت بزّته المؤلّفة من ثلاث قِطع شديدة الأناقة، ومشيته سريعة، وحديثه رشيقاً ودقيقاً - فكيف كان يفعل ذلك؟ ما الذي

يدفعه إلى الاستيقاظ في الصباح وإلى النوم ليلاً؟ ما الذي يحثّه على المُضيّ قُدُماً في كل يوم؟

قال، وهو يُريني من جديد تلك الابتسامة، «إنّ السبب هو كافكا، طبعاً. نعم، هذا صحيح؛ إنَّ العديد منّا يحيا فقط على قراءة كافكا. بمن فيهم أناس الشارع الذين لم يقرؤوا كلمة واحدة له. إنهم يتبادلون النظرات عندما يحدث أمر، ويقولون، «إنّ السبب هو كافكا»، ويقصدون، «هكذا تجري الأمور هنا الآن»، ويقصدون «ماذا تتوقع غير هذا؟»

«والغضب؟ هل يخمد عندما تهزّ كتفيك وتقول، «إنّ السبب هو كافكا؟»»

«على امتداد الأشهر الستّة الأولى بعد أنْ جاء الروس ليحلّوا بيننا كنتُ أنا نفسي في حالة متواصلة من الغضب. كنتُ أذهبُ في كل ليلة لحضور اجتماعات سرّيّة مع أصدقائي، وأقوم مرّة كل يومين بتوزيع عريضة غير قانونيّة. وفيما تبقّى من وقت كنتُ أكتب، بأسلوبي النثريّ الشديد الدقّة والصفاء، وبجُملي الفائقة الأناقة والعمق، تحليلاً موسوعيّاً للوضع السائد كان يُوزَّع حينئذٍ *بوسائل سرّيّة* بين زملائي. وذات يوم أُصِبتُ بالإغماء وأُرسِلتُ إلى المستشفى لإصابتي بنزيف القرحة. في أول الأمر قلت في نفسي، لا بأس، سوف أتمدَّد هنا على ظهري مدة شهر، وأتلقّى الأدوية وآكل وأسترخي، ومن ثم – ثم *ماذا*؟ ماذا سأفعل بعد أنْ يتوقف النزيف. هل سأعود لأقوم بدور كاه[1] في **قلعتهم** وفي **محكمتهم**[2]؟ يمكن لهذا أنْ يستمر على فترات مُتقطّعة، كما يعلم كافكا وقرّاؤه جيداً. أولئك القرّاء أشباه بطل قصّته كاه، المُكافحون، المُفعمون بالأمل، والمُثيرون للشفقة، يركضون كالمجانين صعوداً وهبوطاً على كل ذلك الدَرَج بحثاً عن حلّ، يجتازون المدينة بحركة محمومة ويُفكّرون في التطور الجديد الذي سيُفضي، من دون الأشياء كلّها، إلى نجاحهم. يعتقدون أنَّ في استطاعتهم أنْ يجعلوا الأحداث كلها تُفضي إليه – البدايات، والأواسط وأيضاً، وهو الشيء الأشد روعة، النهايات»

1- كاه: بطل رواية «**القلعة**» لفرانتز كافكا.

2- إشارة إلى روايتيّ «**القلعة**» و«**المُحاكمة**» لكافكا.

«ولكن، إذا استثنينا كافكا وقرّاءه، هل ستتغير الأوضاع إذا لم تواجه مُقاومة؟»

الابتسامة، الله وحده المُستتر يعلم أي نوع من تعبيرات الوجه *يُحبّ* أنْ يُظهِر للعالم. «سيدي، لقد أصبحتُ ذا مركز مرموق. البلد بأكمله أصبح بارزاً. وأسلوب حياتنا الآن ليس هو ما كنا نحلم به. من ناحيتي، لا أستطيع أنْ أحرق ما تبقّى من جهازي الهضميّ بالاستمرار في توضيح هذا الأمر للسلطات في كل يوم»

«فماذا فعلتَ بدل ذلك؟»

«ترجمتُ رواية «*موبي ديك*» إلى التشيكيّة. طبعاً تبيَّنَ أنَّ هناك ترجمة أخرى لها، وجيّدة جداً أيضاً، ولا حاجة على الإطلاق لإنجاز ترجمة أخرى. لكنني لطالما فكّرتُ في القيام بذلك، والآن بما أنّه لم يعُد لديّ عمل آخر مُلحّ أقوم به، فلمَ لا؟»

سألته «ولِمَ تلك الرواية بالذات؟ لِمَ ميلفيل؟»

«في حقبة الخمسينيات أمضيتُ عاماً في برنامجٍ تبادليّ، في أثناء إقامتي في مدينة نيويورك. حين كنتُ أجوب الشوارع، يُخيّل إليّ كأنَّ المكان يعجّ بأفراد طاقم سفينة أهاب. وعلى رأس كل شيء، كبيراً كان أم صغيراً، كنتُ أرى نسخة أخرى من أهاب المُزمجر. الرغبة العارمة في وضع الأمور «في نِصابها، في الوقوف على القمّة، لكي يُنادى به «بطلاً». ليس بالطاقة وبالإرادة فقط، بل بحنقٍ هائل أيضاً. وذاك الشيء، *الحنق*، هو ما أودّ أنْ أترجمه إلى التشيكيّة... هذا «-مُبتسماً-» إذا كان *في الإمكان* ترجمته إلى التشيكيّة.

«والآن، إذا كان في استطاعتك أنْ تتخيَّل، فإنَّ هذا المشروع الطموح، عندما يكتمل، سوف يكون عقيماً لسببين. الأول، ليس هناك من داعٍ لإنجاز ترجمة أخرى، خاصّة ترجمة سوف تكون في الغالب أقلّ قيمة من الترجمة المتميِّزة التي بين أيدينا أصلاً؛ وثانياً، لا يمكن نشر ترجمة من إنجازي في هذا البلد. وبهذه الطريقة، كما ترى، أستطيع أنْ أنجز ما لن أجرؤ على القيام به في حالة أخرى، من دون اضطراري إلى أنْ أزعج نفسي بعد الآن بالقلق حول ما إذا كان ذلك تصرّفاً معقولاً أم لا. في الحقيقة، عندما أعمل حتى وقتٍ

متأخر في بعض الليالي، أشعر بأنَّ عقم ما أفعل هو أعمق مصادر رضاي. قد يبدو هذا لك ليس أكثر من شكل مُدّعٍ من أشكال الاستسلام، من السُخرية من الذات. بل حتى قد يبدو الأمر على هذا الشكل بالنسبة إليّ أحياناً. ومع ذلك، فإنّه يبقى الأمر الأشدّ جديّة الذي يمكن أنْ يخطر في بالي وأنا في وضع التقاعُد»، ثم سألني، بكياسة شديدة، «وأنت، ما الذي جذبك إلى كافكا؟»

«إنها أيضاً قصّة طويلة»

«بمَ لها صِلة؟»

«ليس بالعجز السياسيّ»

«لا أعتقد ذلك»

قلت، «بالأحرى، وبدرجة كبيرة، لها صِلة باليأس الجنسيّ، بنذر العفّة الذي يبدو أنني أتخذته بصورة ما سرّاً، وتعايشتُ معه رُغماً عن إرادتي. إمّا أنني انقلبتُ ضد جسدي، أو انقلبتُ ضد نفسي - ما زلتُ لا أعرف كيف أعبِّر عن هذا»

«اعتماداً على ما تبدو عليه الأشياء، لا يبدو أنكَ كبتَّ حاجاته المُلحّة بشكلٍ كامل. إنَّ التي تسافر معها امرأة شابة شديدة الجاذبيّة»

«حسن، لقد انتهى الجانب الأسوأ. أو *ربما* انتهى. على الأقلّ انتهى *في الوقت الراهن*. ولكن ما دام موجوداً، ما دمتُ لم أستطع أنْ أكون ما افترضتُ دائماً أنني عليه، فهو لم يشبه بالضبط أي شيء عرفته من قبل. طبعاً أنتَ الذي على صِلة حميمة بالدكتاتوريّة - ولكن إذا سمحتَ لي، لا يسعني إلّا أنْ أُشبّه تصميم الجسد الكامل، ولا مبالاته الباردة واحتقاره المُطلَق لازدهار الروح، بنظام حُكم فاشيّ، ضمنيّ. في استطاعتك أنْ تتوسل إليه قدر ما تشاء، أنْ تقدِّم له أشدّ أنواع الالتماس المنطقي، والوقور، والمُخلِص - ولا تحصل منه على أي جواب. وإذا حصلتَ منه على أي شيء، فإنكَ تحصل على ما يُشبه الضحك. إنني أُرسلُ توسلاتي عبر طبيب نفسي؛ أتردّد على عيادته مرّة كل يومين مدة ساعة كي أعرضَ قضيّتي من أجل استعادة الطاقة الجنسيّة القويّة. وأؤكّد لك، أنّ ذلك يتمّ عبر نقاشات وخُطبٍ مُنمّقة لا تقلّ التفافاً ورتابة ومكراً وإبهاماً عن الشيء الذي تجده في رواية «*القلعة*». أنتَ

تعتقد أنَّ المسكين كاه ماهر - كان يجب أنْ تسمعني وأنا أحاول أنْ أتفوق في الدهاء على العجز الجنسيّ»

«أستطيع أنْ أتخيّل هذا. ليست مهمّة ممتعة»

«طبعاً، إذ ما قورنت بما أنت-»

«أرجوك، لستَ في حاجة إلى أنْ تقول أشياء كهذه. إنها *ليست* مهمّة ممتعة، وحق التصويت لا يُزوّد، في هذا الأمر، إلّا بالقليل من التعويض.»

«هذا صحيح. لقد أدليتُ بصوتي في هذه الفترة، ولم يجعلني ذلك أكثر سعادة. وما بدأتُ أقوله عن كافكا، عن قراءة كافكا، هو أنَّ القصص التي يرويها كاه الذي سُدَّت السُبُل في وجهه، والمُحبَط، والتي تضرب رؤوسها على جدران غير مرئيّة، أصبحَ لها فجأة بالنسبة إليّ رنين جديد مُزعج. فجأة أصبحتْ كلّها أقرب إلى كافكا الذي كنتُ قد قرأته وأنا في الجامعة. توصّلت، بطريقتي الخاصّة، إلى التعرّف إلى إحساس بأنّه تمَّ استدعائي - أو بتخيّل أنّه تم استدعائي - تلبية لنداء تبيَّنَ أنّه بعيد عني، ومع ذلك كنتُ عاجزاً، في مواجهة كلِ عاقبة هزليّة، مُريبة، عن معرفة الهدف والتخلّي عنه. في الواقع، لقد حصل ذات مرّة أنْ بدأتُ أعيش وكأنَّ الجنس هو أرض مُقدّسة»

قال، بتعاطُف، «إذن أنْ يكون المرء «عفيفاً»... أمرٌ مزعج جداً»

«أحياناً أتساءل إنْ كانت لرواية «*القلعة*» في الواقع صِلة بإعاقة كافكا الجنسيّة - كتاب يتناول بكل مستوياته الفشل في بلوغ ذروة»

ضحك على فكرتي، ولكن كما في السابق، برفق وبذلك الحبّ الذي لا يلين. نعم، إنَّ الاستاذ الجامعيّ المتقاعد وسطيّ بعمق، مضغوط، كأنما بين أسطوانتيّ العصر، بين الضمير ونظام الحكم - بين الضمير وألم البطن الحارق. قال، وهو يضع يداً على ذراعي بطريقة أبويّة، «حسن، إنَّ لكل مواطن فضوليّ نسخته الخاصّة من كافكا»

أجبتُ «ولكلّ رجل غاضب نسخته الخاصّة من ملفيل. ولكن ما صِلة المُدمنين على قراءة الكتب بكل النثر العظيم الذي يقرؤون-»

«- لكنّهم يغرزون أسنانهم فيها. بالضبط. في الكتب، وليس في اليدّ التي خنقتها»

في وقتٍ متأخِّر بعد ظهيرة ذلك اليوم، استقللنا حافلة دوَّنَ الأستاذ الجامعي سوسكا رقمها بقلم رصاص على خلفيّة علبة من البطاقات البريديّة قُدِّمتْ بفخامة لكلير عند باب الفندق الذي ننزل فيه. والبطاقات البريديّة تحمل صوراً فوتوغرافيّة لكافكا، ولعائلته، ولمعالم براغ مُرفقة بمعلومات عن حياته وعن أعماله. وشرح لنا سوسكا قائلاً إنَّ المجموعة الأنيقة لم تعُد توزَّع الآن بعد أنْ احتل الروس تشيكوسلوفاكيا وأصبح كافكا كاتباً خارجاً عن القانون، الكاتب /الأبرز الخارج عن القانون. قالت كلير «آمل أنْ تكون بحوزتك مجموعة أخرى، لأجلي-؟» قال، مع انحناء ينمّ عن احترام جمّ، «مس أوفينغتون. في حوزتي براغ. اسمحي لي أن أُقدّمها لكِ، أرجوكِ. أنا متأكّد من أنَّ كل مَنْ اجتمع بك رغبَ في منحكِ هديّة». وهنا اقترح القيام بزيارة قبر كافكا، على الرغم من أنّه لم يكن يُنصَح بمُرافقتنا... وأشار بيده، لافتاً الانتباه إلى رجلٍ واقف مُعطياً ظهره لسيارة أجرة متوقفة على مسافة خمسين قدماً في الجادة من باب الفندق: أبلغنا بأنَّ الرجل ذا الملابس المتواضعة كان يتبعه والسيدة سوسكا أينما ذهبا خلال الأشهر التي تلت الغزو الروسيّ، عندما كان الأستاذ الجامعيّ يُساعد في تنظيم المُعارضَة السرّية لنظام الحكم الجديد الألعوبة في أيدي الروس وكان معيه الاثنا عشري لا يزال سليماً. سألته «أنت متأكّد من أنَّ هذا هو الرجل؟»، فقال سوسكا «كلَّ التأكّد»، ومال بحركة سريعة ليُقبِّل يد كلير، ثم مشى بخُطى واسعة، سريعة بشكل هزليّ، كأنّه يشترك في سباق للمشي، متوجّهاً نحو الحشد الذي يهبط الدَرَج العريض إلى الممرّ المؤدي إلى تحت الأرض. قالت كلير «يا إلهي، شيء مُريع. كل ذلك الابتسام القبيح. وذلك الهروب!»

كلانا ذُهِلنا قليلاً، على الأقلّ، بالنسبة إليّ، لشعوري بأمانٍ ومناعة شديدين، ولوجود جواز السفر في جيب سترتي والمرأة الشابة إلى جواري.

نقلتنا الحافلة من مركز براغ إلى الضاحية القصيّة حيثُ دُفِنَ كافكا. كانت تحدّ المقبرة اليهوديّة المُغلقة من أحد جوانبها مقبرة مسيحيّة ممتدّة – كان في استطاعتنا أنْ نرى هناك من خلال السياج زائرين يجتمعون حول القبور، يركعون ويُزيلون الأعشاب كبستانيّ صبور – ويحدّها على الجانب المقابل طريق عام واسع وكئيب مُخصَّص لحركة مرور الشاحنات من المدينة

وإليها. كانت البوابة المؤدية إلى المقبرة اليهوديّة مغلقة بسلاسل. صلصلتُ السلسلة وهتفتُ نحو ما بدا أنّه كشك حارس. بعد قليل ظهرت امرأة مع صبي صغير من مكان ما في الداخل. فقلت بالألمانيّة إننا قطعنا الطريق بالطائرة من نيويورك لكي نزور قبر فرانتز كافكا. فبدا أنّها تفهّمت الوضع، لكنّها قالت كلا، ليس اليوم. تعالا في يوم الثلاثاء. شرحتُ لها قائلاً، إنني أستاذ مادة الأدب في الجامعة وإنني يهوديّ، ومددتُ يدي نحوها بمبلغ من المال من خلال القضبان. فظهر المفتاح، وفُتِحَت البوابة، وعُيِّنَ الصبي الصغير في الداخل ليصحبنا ونحن نتبع اللافتة التي تُشير إلى الطريق. كانت اللافتة مكتوبة بخمس لغات مختلفة - العديد من الناس فُتِنوا بهذه الابتكارات المُخيفة لهذا الزاهد المُعذَّب، ملايين عديدة من الخائفين: Zum Grabe / à la tombe FRANZE KAFKY / إلى مقبرة / Khrobu /K могиле / .

كانت صخرة ضخمة وطويلة يميل لونها إلى البياض، شاهد القبر الشبيه بالقضيب، من دون الأشياء كلها، يتّجه طرفها المُستدقّ الشبيه بحشفة القضيب نحو الأعلى، لتُشير إلى رُفات كافكا. تلك كانت المُفاجأة الأولى. والثانية كانت أنَّ الابن الممسوس بعائلته دُفِنَ إلى الأبد -وما زال!- بين الأم والأب اللذين استمرا في الحياة من بعده. انتقيتُ حصاة من ممشى الحصى ووضعتُها على إحدى أكوام الحصى التي كوّنها الزوار الذين جاؤوا قبلي. لم أكنْ قد فعلتُ هذا قبل ذلك من أجل جدّيّ، المدفونين مع آلاف غيرهم على طول الطريق السريعة على مسافة عشرين دقيقة من شقتي في نيويورك، ولا قمتُ بمثل هذه الزيارة إلى قبر أمي الذي تُظلّله شجرة في موقع كاتْسكيل منذ أنْ رافقتُ والدي كي يزيح حجرها. كانت رقع الحجارة المُستطيلة القاتمة اللون بعد قبر كافكا تحمل أسماءً يهوديّة مألوفة، كأنني أستعرض صفحات دفتر العناوين الخاصّ بي، أو أجلس على المقعد الأماميّ أنظر من خلف ظهر أمي إلى جدول بأسماء الضيوف المُسجلين في مُنتجع هنغاريان رويال: ليفي، غولدْشميتْ، شنايدر، هيرش... وتتوالى القبور وتتوالى، ولكنْ وحده قبر كافكا بدا أنّه يتلقّى العناية اللائقة. أما الموتى الآخرون فلم يُخلّفوا أحداً من الأحياء لكي يُزيلوا الأعشاب النامية ويزيحوا نبات اللبلاب الذي التفَّ حول أغصان الأشجار وشكّلَ غطاءً ثقيلاً ربط بين مجموع

اليهود المتوفين جنباً إلى جنب. وحده العازب الذي ليس له أطفال بدا أنّ لديه ذرّية من الأحياء. في أي مكان أفضل من قبر Franze Kafky يمكن للسخرية أنْ تسود؟

على الجدار المواجه لقبر كافكا ثُبِّتَ حجرٌ حفِرَ عليه اسم صديقه الأقرب إليه برود. هنا أيضاً وضعتُ حصاة صغيرة أخرى. ثم لاحظتُ للمرة الأولى الرُقع المُثبّتة على طول جدار المقبرة، في ذكرى المواطنين اليهود في براغ الذين أُعدِموا في تيريزين، وأوشفيتز، بيلسن وداشاو. ولم يكن من الحصى ما يكفي عددهم.

عُدنا أنا وكلير أدراجنا سائرين خلف الصبي الصموت إلى البوابة. وحالما وصلنا إلى هناك التقطتْ كلير صورة للصبي الصغير الخجول، وطلبتْ منه، باستخدام لغة الإشارة، أنْ يُدوِّن اسمه وعنوانه على قطعة من الورق. وتمكّنتْ باستخدام الحركات الإيمائيّة العريضة وتعبيرات الوجه المُتكلّفة التي جعلتني أتعجّب فجأة كم أنَّ هذه المرأة الشابة صبيانيّة – وكم أصبحتُ أشبه بطفل وفقيراً – تمكّنتْ من إبلاغ الصبي الصغير بأنّه حالما تُصبح الصورة جاهزة فسوف تُرسِل إليه نسخة منها. وفي غضون أسبوعين أو ثلاثة سوف يتلقّى البروفسور سوسكا أيضاً نسخة من الصورة من كلير، وهذه الصورة التُقِطَتْ في وقتٍ سابق من النهار خارج محل لبيع التذكارات كان كافكا قد أمضى فيه أحد فصول الشتاء.

والآن لِمَ أرغب في أنْ أُسمّي ما جذبني إليها صبيانيّاً؟ لِمَ أرغب في أنْ أُطلِق على هذه السعادة أسماءً؟ فليحدث ما يحدث! فليكن ما يكون! أوقِف التحدِّي حتى قبل أنْ يبدأ! إنكَ في حاجة إلى ما أنت في حاجةٍ إليه! تصالح معه!

كانت المرأة قد خرجت من المنزل لكي تفتح البوابة. ومن جديد تبادلنا بعض الملاحظات بالألمانيّة.

سألتها «هل يأتي الكثير من الزوّار إلى قبر كافكا؟»

«ليس كثيراً. لكنّهم دائماً من المشهورين، بروفسورات، مثلك. أو طلاب صغار جادّون. لقد كان رجلاً عظيماً جداً. كان لدينا العديد من الكتّاب اليهود

العظام في براغ. فرنتز فرفل، وماكس برود، وأوسكار بوم، وفرانتز كافكا»، ثم قالتْ، وهي ترمي أول نظرة، غير مباشرة، ومُقتضبة إلى ذلك القبر، نحو مُرافقتي، «أما الآن، فقد رحلوا جميعاً»

«قد ينمو طفلك الصغير ويُصبح كاتباً يهوديّاً عظيماً»

كررتْ كلماتي بالتشيكيّة. ومن ثم ترجمت الجواب الذي أدلى به الصبي وهو ينظر إلى حذائه، «يُريد أنْ يُصبح طيّاراً »

«أخبريه بأنَّ الناس لا يأتون دائماً من كل أنحاء العالم لكي يقوموا بزيارة قبر طيّار»

من جديد حدث تبادل الكلمات مع الصبي، ثم رسمت ابتسامة جميلة لي - نعم، إنّها لا تُخاطب إلّا بروفسوراً يهوديّاً وتبتسم له ابتسامة جميلة - وقالت، «إنّه لا يهتم كثيراً لهذا الأمر. ثم، يا سيدي، ما اسم الجامعة التي تُدرِس فيها؟»

أخبرتها.

«إذا رغبتَ، سوف أرافقك إلى قبر الرجل الذي كان حلّاق الدكتور كافكا. هو أيضاً مدفون هنا»

«شكراً لكِ، هذا لطفٌ غامر منكِ»

«وكان أيضاً حلّاق والد الدكتور كافكا»

شرحتُ لكلير ما عَرَضَته المرأة عليّ. فقالت كلير «إذا شئت، اذهب»

قلت «أُفضّل ألّا أذهب. إذا بدأنا بحلّاق كافكا، فمع حلول منتصف الليل قد ينتهي بنا الأمر إلى زيارة صانع الشموع الخاصّ به»

قلت لحارسة المقبرة، «أخشى أنَّ هذا غير ممكن في الوقت الراهن»

أبلغتني بلهجة رسميّة، «طبعاً في استطاعة زوجتك أيضاً أنْ ترافقنا»

«شكراً لك. ولكن يجب أنْ نعود إلى الفندق الذي ننزل فيه»

هنا نظرتْ إليّ بارتياب صريح، كأن من الممكن ألّا أكون على الإطلاق قادماً من جامعة أميركيّة متميِّزة. لقد خرجت عن سلوكها المعهود بفتح البوابة في غير اليوم المُخصَّص للسياح، ثم اتّضَحَ أنني أقلّ جديّة، وربما

لستُ أكثر من باحث فضوليّ، ربما يهوديّ، ولكن بمرافقة امرأة من الجليّ أنّها من العِرق الآريّ.

أتوقّف عند الحافلة وأقول لكلير، «أتعلمين ماذا قال كافكا للرجل الذي كان يتقاسم معه غرفة المكتب في شركة الضمان؟ فقد شاهد ذلك الشخص يأكل السجق على الغداء وكان من المُفترَض أنَّ كافكا شعر بالقشعريرة وقال «إنَّ الطعام الذي يليق بالرجل هو نصف ليمونة»

تنهّدتْ، وقالتْ، بحزن، «يا للأبله المسكين»، لأنها وجدتْ في نصيحة الكاتب العظيم بشأن الحِمية اشمئزازاً سخيفاً بكل وضوح من شهيّات بريئة بالنسبة إلى فتاةٍ قادمة من شينيكتادي، نيويورك، وتتمتع بصحة تامة»

كان هذا كل شيء – حتى ذلك الحين، عندما استقللنا الحافلة وجلسنا جنباً إلى جنب، أمسكتُ بيدها وشعرتُ فجأة أنني تحرّرت من شبحٍ آخر، بعد أنْ خلّصتني رحلتي إلى المقبرة من تأثير كافكا كما قد أبدو أنني تخلّصتُ من تأثير بيرغيتا إلى الأبد بعد تلك الزيارات إلى مطعم المسطبة في مدينة البندقيّة. لقد انتهت أيام الإعاقة – ومعها انتهت أيام اللاإعاقة: لم يعد هناك «المزيد»، ولم يعُد هناك لا شيء، أيضاً!

قلت، جاذباً يدها إلى شفتيّ، «أوه، كلاريسّا، أشعر كأنّه لم يعُد في استطاعة الماضي أنْ يؤذيني. لم يعُد لديّ ما أندم عليه. ومخاوفي أيضاً زالت. وذلك كلّه نتيجة عثوري عليك. لقد ظننتُ أنَّ إله النساء، الذي وزّعهن عليك، نظر إليّ بازدراء وقال «من المستحيل إرضاؤه – فليذهب إلى الجحيم» ثم أرسل إليّ كلير»

في أمسية ذلك اليوم، وبعد تناول العشاء في الفندق، ارتقينا إلى الغرفة استعداداً لمغادرتنا باكراً في اليوم التالي. وبينما كنتُ أرتّبُ ملابسي في حقيبة السفر مع الكتب التي كنتُ أقرأها في الطائرات ثم في السرير ليلاً، استغرقتْ كلير في النوم وسط الملابس التي مدّدتها على اللحاف. إلى جانب مُذكّرات كافكا وسيرة حياة برود – وهما دليلاي المكمّلان إلى مدينة براغ القديمة – كان بحوزتي نسخ ذات غلاف ورقي من روايات ميشيما، وغومبروفيتش وجينيه، روايات من أجل مناقشتها في مُقرَّر مادة الأدب المُقارن في العام

التالي. وكنتُ قد قرّرتُ أنْ أُنظِّم قراءة الفصل الأول الدراسيّ حول موضوع الشهوة الجنسيّة، بدءاً بتلك الروايات المُعاصِرة المُقلِقة التي تتناول موضوع الشهوة الجنسيّة (تُقلِقُ الطلاب لأنها من نوع الكتب الذي أشدّ ما يُثير إعجاب قارئ على غرار بومْغارتن، روايات يتورّط المؤلِّف نفسه فيها بشكلٍ واضح فيما هو مُرعب أخلاقيّاً) وينتهي عمل الفصل الدراسيّ بثلاث روايات كبيرة تتناول علاقات الحب المُحرَّم والجامح، ارتكِبَتْ بوسائل أخرى: ***مدام بوفاري***، ***وآنا كرنينا***، و«موت في مدينة البندقيّة».

رفعتُ ملابس كلير، من دون أنْ أوقظها، عن السرير ونسّقتها داخل حقيبة سفرها. شعرتُ وأنا أتعامل مع أغراضها بحبٍ غامر. ثم تركتُ لها ملاحظة أقول فيها إنني خرجتُ لأتمشّى وإنني وسوف أعود في غضون ساعة من الزمن. ولدى اجتيازي البهو لاحظتُ حينئذٍ وجود ما يُقارب خمس عشرة أو عشرين عاهرة جميلات شابات جالسات بشكلٍ منفرد، ومزدوج، خلف الباب الزجاجي للمقهى الرحب في الفندق. وفي وقت مُبكِّر من النهار لم تكن هناك إلّا ثلاث منهن، جالسات على طاولة واحدة، ويتسامرنَ معاً بمرح. وعندما سألتُ البروفسور سوسكا كيف نُظِّمَ هذا كلّه في ظل النظام الاشتراكيّ، شرحَ لي قائلاً إنَّ مُعظم عاهرات براغ كنَّ سكرتيرات وعاملات في محال تجاريّة ويقمن بعملين بموافقة الحكومة غير المُعلنة؛ وعيَّنتْ وزارة الداخليّة بعض المُستخدمين بدوام كامل لكي يحصلوا على أكبر قدر من المعلومات من مندوبين متنوعين من الشرق والغرب يمرّون من الفنادق الكبيرة. وسرب الفتيات بتنانيرهن الشديدة القِصَر اللواتي رأيتهن جالسات في المقهى ربما كنَّ هناك لكي يُرحّبن بأعضاء وفد تجاري بلغاريّ كانوا يشغلون مُعظم الطابق الذي تحتنا. وإحداهن، كانت تُداعب بطن جرو ألمانيّ تحضنه بين ذراعيها، ابتسمت لي. فابتسمت لها بالمقابل (لم يُكلّفني ذلك شيئاً) ومن ثم انطلقتُ إلى ساحة المدينة القديمة، حيث كان كافكا وبرود يتمشّيان في المساء. وعندما وصلتُ إلى هناك كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة وكانت الساحة الفسيحة الكئيبة خالية من كل شيء ما عدا ظلال الواجهات العتيقة التي تُحيط بها. وفي المواقع حيث كانت حافلات السيّاح تتوقف في وقتٍ مُبكِّر من النهار لم يعُد يوجد عندئذٍ إلّا مساحة مرصوفة

بالحجارة، متهرّئة وملساء. المكان خالٍ - من كل شيء، أقصد، ما عدا من الغموض والإبهام. جلستُ وحيداً على مقعد تحت مصباح في الشارع، ومن خلال غلالة الضباب الرقيقة، نظرتُ إلى ما بعد شكل يان هوس[1] البعيد إلى الكنيسة التي كان في استطاعة المؤلِّف اليهودي أنْ يُلاحظ أشدّ ما يجري داخلها انعزالاً بالتحديق من خلال ثقبٍ سرّي أحدثه.

هنا بدأتُ أؤلِّف داخل رأسي ما فاجأني في أول الأمر بأنّه ليس أكثر من نزوة صغيرة؛ الأسطر الأولى من مُحاضرة تمهيديّة على طلاب درسي في الأدب المُقارَن ألهمتني بها قصّة «تقرير إلى الأكاديميّة» وفيها يُلقي قردٌ خطاباً في جمعٍ من العلماء. إنها مجرد قصّة قصيرة من بضعة آلاف من الكلمات لكنني أحببتُها، خاصّة بدايتها، التي اعتبرتها إحدى أشدّ ما قرأتُ سِحراً وإذهالاً في الأدب. «أعضاء الأكاديميّة الأجلّاء! لقد أسبغتم عليّ شرف دعوتي لأُلقي على أعضاء أكاديميتكم سرداً للحياة التي كنتُ قد عشتها في السابق وأنا قرد»

باشرت بالقول «أعضاء قسم الأدب رقم 341 الأجلّاء».... ولكن حالما رجعتُ إلى الفندق وجلستُ، وأمسكتُ بالقلم، وأنا جالس على طاولة خالية في إحدى زوايا المقهى، اخترقتُ مظهر أستاذ الجامعة الساخر الخادع الذي باشرتُ به، وبدأتُ أكتب على قرطاسيّة الفندق بأسلوبٍ عاديّ مُحاضرة تمهيديّة رسميّة (لا تخلو من تأثير أسلوب نثر القرد الحِرفيّ المثاليّ) أرغب من كل قلبي في أنْ أُلقيها - وألقيها في هذه اللحظة بالذات وليس في شهر أيلول!

على مسافة طاولتين مني جلست العاهرة ذات الكلب الألمانيّ الصغير، ومعها صديقة بدا أنَّ رفيقها المُفضَّل هو شَعرها. كانت تمسّده طوال الوقت كأنّه شَعر شخص آخر. رفعتُ بصري عن عملي وطلبتُ من النادل أنْ يُحضر كأساً من الكونياك لكلٍ من تينك العاملتين الصغيرتين الجميلتين، اللتين لا تبلغ أيٌ منهما عمر كلير، وطلبتُ كأساً من الكونياك لنفسي.

1- يان هوس؛ اللفظ التشيكيّ لاسم جون هَسّ (1372؟ - 1415): مُصلِح ديني بوهيميّ. توقّع حدوث الإصلاح باستنكاره أداء الكنيسة وممارساتها السيئة. عجّلَ موته على الخازوق بنشوب الحروب بين بوهيميا ومورافيا. - المترجم

قالت العاهرة التي تُدلّل كلبها «في صحتك!»، وبعد أنْ تبادلنا نحن الثلاثة الابتسامات خلال برهة قصيرة ومُغرية، عدتُ إلى كتابةِ ما بدا لي في ذلك المكان وتلك اللحظة بصورةٍ ما جُملاً ذات أهميّة هائلة من أجل حياتي الجديدة السعيدة.

«بدل أنْ أقضي يومي الأول في قاعة الدرس في التحدث عن لائحة القراءة وعن الفكرة العامة خلف هذه الدورة الدراسيّة، أودّ أنْ أخبركم شيئاً عن نفسي لم يحدث من قبل أنْ أفشيتُ به لأي من طلابي. ليس لديّ أي دافع لفعل هذا، وحتى قبل أنْ أدخل هذه الغرفة وأجلس لم أكنْ متيقّناً من أنني سوف أمضي به. وقد أُغيِّر رأيي. إذ كيف أُبرِّر إفشائي إليكم أشد حقائق حياتي الخاصّة حميميّة؟ صحيح أننا سوف نجتمع لكي نناقش الكتب على امتداد ثلاث ساعات في الأسبوع طوال فصلين دراسيين قادمين، ومن واقع خِبرتي أعلم، كما تعلمون، أنّه في ظل هذه الظروف قد تنشأ بيننا علاقة حب. ولكن، نحن نعلم أيضاً أنَّ هذا لا يمنحني الإذن بالانغماس فيما قد يكون وقاحة وقِلّة ذوق.

«وكما ربما خمّنتم - من أسلوب ارتداء ملابسي، بسهولة تُعادِل سهولة تخمين أسلوب ملاحظاتي الافتتاحيّة - أنَّ الأعراف التي تتحكَّم تقليديّاً بالعلاقة بين الطلاب والأستاذ هي بصورة أو بأخرى التي عملتُ دائماً على أساسها، حتى في أثناء الاضطراب الذي ساد في الأعوام الأخيرة. وقد قيل لي إنني أحد أساتذة الجامعة المُتبقّين القلائل الذين يُخاطبون طلابهم داخل غرفة الدرس بـ «سيد» و«آنسة»، وليس بأسمائهم الخاصّة. ومهما كانت الملابس التي تختارون ارتداءها - سواء أكان زيّ عامل في مرأب، أو شحّاذ، أو غجريّ في قاعة شرب الشاي، أو سارق ماشية - فإنني ما زلتُ أُفضّل أنْ أظهر أمامكم وأقوم بالتدريس وأنا أرتدي سترة وربطة عنق... على الرغم من أن السترة، كما سيسجّل المُراقب، سوف تكون هي نفسها وربطة العنق هي نفسها أيضاً. وعندما تأتي الآنسات من الطلاب إلى غرفة مكتبي للتشاور، سوف يرين إذا ما حدث ونظرنَ، أنني خلال الاجتماع سوف أُبقي الباب المؤدي إلى الرواق مفتوحاً كما يقتضي الواجب ونجلس جنباً إلى جنب. وقد يجد بعضكم أنَّ من الغريب أنْ أنزع ساعة يدي عن رسغي، كما فعلت قبل قليل، وأضعها بجوار

أوراق ملاحظاتي في بداية كل درس. والآن لم أعُد أتذكَّر مَنْ مِن الأساتذة الذين علّموني كان يفعل الشيء نفسه خلال ساعة إلقاء الدرس، وإلّا كان ذلك سيترك أثره عليّ، ويدلّ على حِرفيّةٍ ما زلتُ أحبّ أنْ يرتبط اسمي بها.

إنَّ هذا كلّه لا يعني أنني سوف أحاول أنْ أُخفي عنكم حقيقة أنني من لحم ودم – أو أنني أفهم أنكم أنتم كذلك. ومع نهاية العام ربما تكونون قد سئمتم قليلاً إصراري على الصِلات التي تربط الروايات التي تقرؤونها من أجل هذا الدرس، حتى أشدّها غرابة وإحباطاً، بما تعرفون حتى الآن عن الحياة. وسوف تكتشفون (وليس كلكم سوف يستحسنون) أنني لا أتّفق مع بعض زملائي الذين يُخبروننا بأنَّ الأدب، في لحظاته الأشد قيمة وسحراً، هو «أبعد ما يكون عن كونه مرجِعاً». قد أقفُ أمامكم بسترتي وربطة عنقي، وقد أُخاطبكم كرجل مجنون وكسيد محترم، لكنني لن أطالب بأقلّ من أنْ تُحجموا عن التحدّث عن «البنية» و«الشكل» و«الرموز» في حضوري. ويبدو لي أنَّ العديد منكم شعروا بالخوف بالقدر الكافي من عامهم الأول في الجامعة ويجب السماح لهم باستعادة التوازن وإعادة الاحترام لتلك الاهتمامات والمواقف الحماسيّة التي في الغالب دفعتكم إلى قراءة الأدب في المقام الأول والتي لا ينبغي أنْ تشعروا بالخجل منها الآن. بل قد ترغبون في سياق هذا العام، من باب التجربة، في مُحاولة العيش بعيداً عن مفردات غرفة الدرس، والتخلّي عن «الحبكة الروائيّة والشخصيات» بالإضافة إلى تلك الكلمات القويّة جداً التي لا تحبون في معظمكم أنْ تضفوا بها الرصانة على ملاحظاتكم، على سبيل المثال استخدام كلمات على غرار «التجلّي»، و«الشخصيّة المسرحيّة»، وطبعاً «الوجوديّ» كصِفة لكل مخلوق تحت الشمس. إنني أقترحُ هذا وآمل في أنكم إذا تحدثتم عن رواية «*مدام بوفاري*» باللغة نفسها التي تستخدمونها بصورة أو بأخرى وأنتم تتكلمون مع البقّال، أو مع الحبيب، قد تُصبحون على صِلة أكثر حميميّة، وأكثر إثارة للاهتمام، بما يمكن تسميته علاقة أكثر مرجعيّة مع فلوبير وبطلته.

في الحقيقة، إنَّ أحد أسباب كون الروايات التي تجب قراءتها خلال الفصل الدراسي الأول تتعلّق كلها، بدرجة أكبر أو أقلّ من الاستحواذ، بالشهوة الجنسيّة هو أنني اعتقدتُ أنَّ جلسات القراءة التي تُنظَّم حول

موضوع مألوف لديكم كلكم بصورة أو بأخرى قد تساعدكم بشكل أفضل على أنْ تُحدِّدوا موقع تلك الكتب في عالم الخِبرة، وزيادة على ذلك على إحباط إغراء إيداعها العالم السفلي الذي يمكن التعامل معه لأدوات السرد، والدوافع المجازيّة، والنماذج الأصليّة للأساطير. وفوق ذلك كلّه، آمل في أنكم بعد قراءة تلك الكتب سوف تتعلمون شيئاً ذا قيمة عن الحياة في أحد أشد جوانبها إبهاماً وإثارة للجنون. وآمل أنْ أتعلَّم أنا نفسي شيئاً.

حسنٌ. إنَّ هذا كلّه قيل على سبيل التوطئة، وقد آنْ الأوان لكشف النقاب عمّا لا يمكن كشف النقاب عنه - عن قصّة شهوة *البروفسور*. لكنني لا أستطيع ذلك، ليس الآن، ليس قبل أنْ أشرح لإرضاء نفسي، إذا لم يكن لإرضاء والديّ، سبب تفكيري في أنْ أجعل منكم المتلصصين عليّ وقُضاتي والمؤتمنين على أسراري، وسبب إفشاء أسراري لأناسٍ تبلغ أعمارهم نصف عمري، وكلهم تقريباً لم أعرفهم من قبل حتى كطلاب. ما حاجتي إلى جمهور، في وقتٍ يُفضِّل معظم الرجال والنساء إمّا أنْ يحتفظوا بمثل هذه المسائل بالكامل لأنفسهم أو أنْ يفشوها فقط لمُتلقي اعترافات موثوقين، مدنيين أو متدينين؟ ما الذي يجعل من الضروري ضرورة فائقة، أو من المناسِب بصورة مُطلقة، أنْ أُقدِّم نفسي إليكم أيها الشبان الغرباء ليس بصورة أستاذكم بل بوصفي أول نصّ من نصوص هذا الفصل الدراسيّ؟

اسمحوا لي أنْ أعطي إجابة تُرضي القلب.

أنا أحبّ تدريس مادة الأدب. ونادراً ما أرضى بصورة فائقة كما هو حالي وأنا هنا مع دفتر ملاحظاتي، ومع نصوصيّ المُعلَّمة، ومع أناسٍ مثلكم. بالنسبة إلى عقلي لا شيء يُضاهي غرفة الدرس في الحياة كلّها. أحياناً ونحن وسط الحديث - عندما، على سبيل المِثال، تنفذ فقرة واحدة من الكتاب الذي بين يديّ أحدكم إلى قلبه - أودّ لو أصرخ، «يا أصدقائي الأعزاء، ضموا هذه الفِقرة بحبّ إلى قلوبكم!» لماذا؟ لأنَّكم حالما تغادرون هذا المكان فإنَّ الناس نادراً ما سيتحدثون معكم، هذا إنْ حصل أصلاً، أو يُصغون إليكم كما تتحدثون فيما بينكم أو يُصغي كلٌّ منكم للآخر ولي بين جدران هذه الغرفة الصغيرة القاحلة. ومن المُستبعَد أنْ تجدوا بسهولة فُرَصاً في مكان آخر للتكلُّم بلا حَرَج عمّا يهمّ رجالاً متناغمين مع الكفاح في الحياة على غرار تولستوي،

ومان، وفلوبير. أنا أشكّ في أنكم تعرفون كم هو مؤثِّر سماعكم تتكلمون بعمق وبجديّة عن العزلة، والمرض، والتوق، والخسارة، والمعاناة، والوهم، والأمل، والشغف، والحب، والرعب، والفساد، والبؤس، والموت... أنتم مؤثّرون لأنكم في التاسعة عشرة والعشرين من العمر، ومُعظمكم ينحدرون من بيوت الطبقة المتوسطة المرتاحة، وجعبتكم تكاد تخلو من الخبرة الموهِنة - ولكن أيضاً لأنَّ هذه قد تكون آخر مناسبة، وهو أمر غريب ومُحزِن، تُتاح لكم للتفكير بأيّة طريقة ثابتة وجادّة في القِوى الصارمة التي سوف تلجؤون إليها لتتنافسوا، شئتم أم أبيتم.

هل نجحتُ في توضيح السبب في اعتباري غرفة الدرس، في الواقع، الموقع المُناسِب أكثر من أي مكان لأسرد فيه تاريخ حياتي الجنسيّة؟ وهل يجعل ما قلتُ تواً مُطالبتي التي أودّ أنْ أُعلنها بوقتكم وبصبركم وبتعليمكم شرعيّة أكثر؟ وبعبارة أشدّ وضوحاً - إنَّ ما تعنيه الكنيسة بالنسبة إلى المؤمن الحقّ، يُعادل ما تعنيه غرفة الدرس بالنسبة إليّ. إنَّ البعض يركعون في صلاة يوم الأحد، والبعض الآخر يضع تعاويذ عند فجر كل يوم... وأنا أحضر في ثلاثة أيام من كل أسبوع مرتدياً ربطة العنق وأضع ساعة يدي على طاولة مكتبي، لكي أقوم بتدريسكم الروايات العظيمة.

آه، أيها الطلاب، لقد ركبتُ ذروة انفعال قويّ في هذا العام. سوف أتطرَّق إلى هذا أيضاً. وحتى ذلك الحين، اصبروا على مزاجي الرحب، إنْ استطعتم. في الحقيقة، أنا أتمنّى فقط أنْ أُقدِّم إليكم أوراق اعتمادي من أجل تدريس دورة الأدب رقم 341. وعلى الرغم من أنَّ بعضكم سوف يُفاجأ حتماً بأنَّ أجزاء من تلك التصريحات المكشوفة طائشة، وغير حِرفيّة، وبغيضة، فإنّني مع ذلك أودّ، بعد إذنكم، أنْ أُمضي قُدُماً الآن وأعطيكم سرداً مفتوحاً للحياة التي عشتها سابقاً ككائن بشريّ. إنني مُكرَّس لأدب الرواية، وأؤكّد لكم أنني في الوقت المناسِب سوف أخبركم بكل ما أعرف عنه، ولكن في الحقيقة لا شيء يبقى حيّاً داخلي أكثر من حياتي»

عندما نهضتُ مع أدواتي من القرطاسيّة لكي أغادر المقهى كانت العاهرتان الشابتان الجميلتان لا تزالان وحدهما، ولا تزالان جالستين قِبالتي بسترتيهما البيضاوين من وبر الأرانب، وتنورتيهما الشديدتيّ القِصَر

بأشكالهما المُلوّنة، وجوارب الشبك السوداء، والأحذية المرتفعة ذات الكعب العالي - أشبه بطفلتين سطتا على محتويات خزانة الماما لكي ترتديا زيّ مُرشدتيّ الرواد إلى المقاعد في دار سينما تعرض أفلاماً إباحيّة.

قالت التي كانت تُداعب الكلب وتُحسن التكلُّم ببعض الكلمات الإنكليزيّة، «أكنتَ تكتب رسالة إلى زوجتك؟»

لم أستطع مقاومة التواء الابتسامة البطيئة التي رمتني بها. «بل إلى الأطفال»

أومأتْ برأسها لزميلتها التي تُمسّد شَعرها: نعم، إنهما تعرفان نوعي. عندما تبلغان سن الثامنة عشرة تعرفان أنواع الرجال كافّة.

قالت زميلتها شيئاً بالتشيكيّة وضحكتا من القلب.

قالت التي تعرف كل شيء، «وداعاً، أيّها السيد: تصبح على خير»، وهي ترسم لي ابتسامة متكلِّفة بريئة بقدرٍ كافٍ بالنسبة إليّ بحيث أحملها معي من ذلك اللقاء. لقد اعتُبِرتُ مخدوعاً لأنني قدَّمتُ مشروباً لعاهرتين. ربما هذا صحيح. ولا اعتراضَ لي عليه.

في غرفتي أجد أنَّ كلير قد بدّلتْ ملابسها وارتـدت قميص النوم وأصبحت نائمة عندئذٍ تحت الأغطية. ثمة ملاحظة موجَّهة إليّ موضوعة على الوسادة: «عزيزي - أحبّك حبّاً جماً في هذا اليوم. وأنا *مُصمّمة* على أنْ أجعلك سعيداً. ك»

أوه، لقد اجتزتُ الامتحان *حقاً* - والبرهان على ذلك على الوسادة!

وماذا عن الجُمل التي بين يديّ؟ لم تعُد الآن مُثقلَة بالمعاني الضمنيّة من أجل مُستقبلي كما كانت وأنا أهرع عائداً إلى الفندق من ساحة البلدة القديمة، مُشتاقاً لأمسك بقطعة من الورق وأكتب *أي* تقرير إلى أكاديميتي. طويت الصفحات إلى نصفَين، ووضعتها مع الكتب ذات الأغلفة الورقيّة في قعر حقيبة السفر، مع ملاحظة كلير التي تعِد فيها حبيبها بالسعادة. إنني أشعر بالانتصار المُطلَق: بل الشامل في الواقع.

عندما استيقظتُ في الصباح الباكر على صوت صفع باب في مكانٍ يقع تحت غرفتنا - حيث ينام البلغاريون، ولا شك في أنَّ أحدهم في صُحبة عاهرة تشيكيّة صغيرة وجرو ألمانيّ - اكتشفتُ أنني عاجز عن البدء في

إعادة بناء المتاهة المُعقّدة من الأحلام التي تحدَّتني طوال الليل وأثارت غضبي طوال الليل. وكنتُ قد توقّعتُ أنْ أنام نوماً عميقاً، لكنني استيقظتُ وأنا أتصبّب عَرَقاً وفقدتُ، خلال تلك اللحظات الأبديّة، أي حسّ بمكان وجودي أو بالشخص الذي معي. ثم، لحُسن الحظ، وجدتُ كلير، الحيوان الكبير والدافئ من نوعي، زوجتي من الجنس الآخر، وضممتُها بين ذراعيّ -وجذبتُ وجودها المحض على طول جسدي- ثم بدأتُ أتذكَّر الفِقرة الطويلة، البذيئة التي تكشّفتْ بصورة أو بأخرى على امتداد هذه الأسطر:

«قابلتُ على متن القطار دليلاً تشيكيّاً، اسمه X، وشرحَ قائلاً «على غِرار الحرف الوارد في الأحرف الأبجديّة». كنتُ متأكّداً من أنّه هيربي براتسكي، المسؤول عن المراسم عندنا، لكنني لم أفشِ شيئاً. وعندما ترجّلتُ من القطار سألني X، «وماذا شاهدتَ حتى الآن؟»

«لم أر شيئاً. لقد وصلتُ تواً»

«إذن أنا أعرف بما عليك أنْ تبدأ. ما رأيك في أنْ تقابل العاهرة التي كان كافكا يتردَّد عليها؟»

«أمثل هذا الشخص موجود؟ أما زالت حيّة؟»

«ما رأيك في أنْ تذهب إليها وتتحدث معها؟»

لم أتكلَّم إلّا بعد أنْ بدا أنني تيقّنتُ من أنَّ لا أحد يسترق السمع. «إنّ هذا غاية أملي»

سألني X ونحن نستقل حافلة المقبرة، «وكيف كانت البندقيّة من دون السويديّة؟»

«ميتة»

كانت الشقّة تقع في الطابق الرابع، في مبنى مُتداعٍ يطلّ على النهر. والمرأة التي أتينا لمقابلتها كانت في نحو الثمانين من العمر: بيدين بمفاصل ملتهبة، وفكّين مرتخيين، وشعرٍ أبيض، وعينين زرقاوين صافيتين وعذبتين. تقضي حياتها على كرسيّ هزّاز وتعيش على معاش زوجها المرحوم، الفوضويّ. وتساءلتُ «أرملة فوضويّ تتلقّى معاشاً من الحكومة؟»

سألتُ «أكان فوضويّاً طوال حياته؟»

أجاب X، «منذ أنْ كان في الثانية عشرة. بعد وفاة والده. وقد شرح لي ذات مرَّة كيف حدث ذلك. لقد شاهد جثّة والده، فقال في نفسه، «إنَّ هذا الرجل الذي يبتسم لي ويُحبني لم يعُد له وجود. لن يبتسم لي أي رجل آخر ويُحبني كما فعل هو. أينما أذهب سوف أكون غريباً وعدوّاً طوال حياتي». يبدو أنَّ هكذا يُصنَع الفوضويون. وأنا أعتبر أنكَ لست فوضوياً»

«كلا. ما زلنا أنا وأبي يحب أحدنا الآخر حتى هذا اليوم. أنا أؤمن بسيادة القانون»

من نافذة شقّتي أستطيع أنْ أشاهد القوة المنسابة لمولداو الشهيرة. «هناك، حيث فتية وفتيات عند حافة النهر» - أنا أُخاطبُ طلاب صفّي - «هناك الحوض حيث كان كافكا وبرود يسبحان معاً. أترون، كما قلتُ لكم. لقد كان كافكا حقيقيّاً، وليس برود هو الذي صنعه. وكذلك أنا حقيقيّ، ولا أحد صنعني، غير نفسي»

X والسيدة العجوز يتحدثان بالتشيكيّة. X يقول لي، «لقد أخبرتُها بأنكَ تمثّل مرجِعاً أميركيّاً متميِّزاً في أعمال كافكا العظيم. وتستطيع أنْ تطلب منها ما تشاء»

سألتُ «ماذا تعرف عنه؟ كم كان عمره عندما تعرَّفتْ عليه؟ وكم كان عمرها هي؟ ومتى بالضبط حدثَ ذلك كلّه؟»

ترجم X قائلاً «تقول، «لقد جاءني وألقيتُ عليه نظرةً عن قُرب وقلتُ في نفسي، «لِمَ هذا الفتى بائس إلى هذه الدَرَجة؟»». إنها تعتقد أنَّ السبب يعود إلى عام 1916. تقول إنها كانت في الخامسة والعشرين من العمر. وكان كافكا في ثلاثينيات عمره»

قلت «في الثالثة والثلاثين. لقد وُلِدَ، أيّها الطلاب، في عام 1883. وكما نعلم من الأعوام التي أمضيناها في المدرسة، أنّ ستة ناقصاً ثلاثة تساوي ثلاثة، وثمانية من واحد لا يصحّ، لذلك يجب أنْ نستعير من الرقم التالي؛ وتُصبح ثمانية من أحد عشر تساوي ثلاثة، وثمانية من ثمانية تساوي صِفراً، وواحد من واحد يُساوي صِفراً - ولهذا فإنَّ ثلاثة وثلاثين هو الجواب

الصحيح على سؤال: كم كان عمر كافكا عندما كان يتردَّد على هذه العاهرة؟ والسؤال التالي: وما صِلة عاهرة كافكا، إنْ وُجِدَتْ، بالقصة التي ندرسها اليوم، «فنان الجوع»؟»

قال X، «وماذا تريد أنْ تعرف أيضاً؟»

«هل كان قادراً بانتظام على الحصول على انتصاب؟ هل كان في المعتاد يصل إلى الرعشة الجنسيّة؟ إنني أجد المذكرات غير حاسمة في هذا المجال»

عندما كانت تُجيب تُصبح عيناها مُعبِّرتين، على الرغم من أنَّ اليدين المُعاقتين كانتا تستقران بعجز على حِجرها. ومن الحديث المُبهم الدائر باللغة التشيكيّة التقطتُ كلمة جعلتْ جسمي يرتعش: فرانتز!

أومأ X برأسه برصانة. «تقول لا مشكلة في ذلك. كانت تعرف كيف تتعامل مع فتى مثله»

هل أسأل؟ ولِمَ لا؟ أصلاً، أنا لم آتِ فقط من أميركا، بل من أرض النسيان، التي سوف أعود إليها بعد قليل. «كيف؟»

مع ذلك، تُخبر X، بنبرة عاديّة، بما فعلته لتُثير مؤلّف الـ-«سمّوا أعمال كافكا الكُبرى حسب ترتيب تأليفها. وسوف توضَع الدَرَجات على لائحة القِسم. من فضلكم، فليقف كل الذين يتمنّون الحصول على توصيات من أجل القيام بمزيد من الدراسات الأدبيّة في رتل واحد أمام غرفة مكتبي لكي يُضربوا بالسياط حتى يوشكوا أنْ يفقدوا حياتهم»

قال X، «تريد نقوداً. بالعملة الأميركيّة، وليس بعملة الكراون. أعطها عشرة دولارات»

أعطيتُها النقود. ما نفعها في أرض النسيان؟ «كلا، هذا لن يحدث في الختام»

انتظر X إلى أنْ أنهتْ كلامها، ثم ترجم: «لقد جعَلتْه يقذف»

ربما هذا مقابل أقلّ مما كلّفني اكتشافه. هناك شيء اسمه النسيان، وهناك شيء اسمه الخداع، وهو أيضاً ما أستنكره. طبعاً! هذه المرأة نكرة، وحصل براتاسكي على النصف.

سألتُ «وعمَّ كان كافكا يتحدَّث؟»، وتثاءبتُ لكي أُبيّن مدى الجديّة التي أصبحتُ أتناول بها الآن هذه الأحداث.

ترجمَ X إجابة العجوز حرفيّاً: «لم أعُدْ أتذكّر. وربما لم أعد أتذكر في اليوم التالي. اسمع، إنَّ أولئك الفتية اليهود أحياناً لا يقولون أيّ شيء. كالعصافير الصغيرة، لا يصدر عنهم ولا حتى صرير. ولكن سأقول لك شيئاً – لم يكونوا يضربونني قط. وكانوا نظيفين. بملابس داخليّة نظيفة. وياقات نظيفة. ولم يأتوا إلى هنا قط مع منديل قذر. طبعاً كنتُ أقوم بتنظيف كل واحد منهم بخرقة. كنتُ دائماً أتَّبع العادات الصحيّة. ولكن لم يكونوا قط في حاجة إلى ذلك. كانوا نظيفين وكانوا سادة مُهذّبين. ويشهد الله عليّ، أنهم لم يضربوني قط على مؤخّرتي. حتى في السرير كانوا مُهذّبين»

قلتُ لهيربي (رافضاً الاستمرار في ادّعاء أنّه تشيكيّ يُدعى X)، «في الواقع لا أعلم حقّاً ماذا أسأل بعد ذلك، يا هيربي. لديّ إحساس بأنها تخلط بينه وبين شخص آخر»

أجاب هيربي «إنَّ عقل النساء حادّ كالموسى»

«ومع ذلك، هي لا تُعادل برود في صِلته بهذا الموضوع»

بدا أنَّ العاهرة العجوز أحسَّتْ ربّما بأنني اكتفيت، فتكلّمتْ من جديد.

قال هيربي «تريد أنْ تعرف إنْ كنتَ تريد أنْ تتفحّص فرجها»

أجبتُ «لماذا؟»

«هل أسألها؟»

«أوه، افعل، أرجوك»

أجابت إيفا (وهو ما ادّعى هيربي أنّه اسم السيدة) بشكلٍ مُطوَّل، «إنها تُسلِّم بأنّه قد ينطوي على أهميّة أدبيّة بالنسبة إليك. والآخرون أمثالك، الذين كانوا يأتون إليها بسبب صِلتها بكافكا، أبدوا اهتماماً شديداً برؤيته، وكانت ترغب بعرضه عليهم، مُعتبرة أنَّ مؤهّلاتهم تُثبت جدّيتهم. تقول إنه لأنكَ أتيت إلى هنا بتوصية مني سوف يُسعدها أنْ تسمح لك بأنْ تُلقي عليه نظرة سريعة»

«اعتقدتُ أنّها فقط جعلته يقذف. حقاً، يا هيرب، كيف يمكن أنْ تكون لفرجها أيّ أهميّة بالنسبة إليّ؟ أنت تعلم أنني لستُ وحدي في براغ»

الترجمة: «من جديد، تعترف بصراحة بأنّها لا تعرف لماذا يهتم أي شخص بأي شيء يخصّها. وتقول إنها ممتنّة لمبلغ المال الصغير لذي تمكّنت من الحصول عليه نتيجة صداقتها مع الشاب كافكا، وممتنّة لأنَّ المُتصلين بها أنفسهم من المتميزين والمثقفين. وطبعاً، إذا أبدى السيد اهتماماً بتفحّصه-»

ولكن لِمَ لا؟ لِمَ يأتي إلى قلب أوروبا المُحطَّم إذا لم يكن من أجل تفحّص هذا؟ بل لِمَ يأتي إلى العالم أصلاً؟ «يا طلاب مادة الأدب، يجب أنْ تقهروا حساسيتكم المُفرِطة إلى الأبد! يجب أنْ تواجهوا الشيء البغيض نفسه! يجب أنْ تترجّلوا عن حصانكم المرتفع! هناك، *هناك* يكمن امتحانكم الختامي»

سوف يُكلّفني ذلك خمسة دولارات أميركيّة إضافيّة. قلت «أرى أنَّ هذا العمل مُزدهر، هذا العمل الخاصّ بكافكا»

«أولاً وقبل كل شيء، بالنظر إلى مجال اهتمامك، فإنَّ المال قابل لاقتطاع الضريبة منه. ثانياً، مقابل فقط مبلغ خمسة دولارات، فإنكِ توجّه ضربة حاسِمة للبلاشفة. إنّها آخر العاملين في هذا المجال في براغ لمصلحتها. وثالثاً، إنكَ تُساعد في المُحافظة على نصب تذكاريّ أدبيّ وطنيّ - أنت تقدِّم خِدمة لكُتّابنا المتألّمين. وأخيراً وليس آخراً، فكِّر في المال الذي قدَّمته لكلينغر. ما أهميّة خمسة دولارات إضافيّة من أجل القضيّة؟»

«عفواً. أيّة قضيّة؟»

«قضيّة سعادتك. إنَّ كل ما نريد هو أنْ تكون سعيداً، أنْ نُحقق لك ذاتك أخيراً، يا عزيزي ديفيد. لقد أنكرتَ ذاتك طويلاً جداً في الواقع»

على الرغم من العجز الذي أصابَ يديها استطاعت إيفا وحدها أنْ ترفع ثوبها إلى أنْ تجمّعَ عند حجرها. لكنَّ هيربي اضطرَّ إلى أنْ يُحيطها بذراعه، ويُحرّكها على وركيها، ثم يُنزِل سروالها الداخليّ. وساعدتُه على مضض بتثبيت الكرسي الهزّاز.

بطن بجلد سميك مُجعّد، وأعلى ساقين عاريتين متهدمتين، وأيضاً، المُدهِش، رقعة سوداء مُثلّثة، مُلصقة كما الشارب. وجدتُ نفسي أشكّ في أصالة شعر العانة.

قال هيربي «تريد أنْ تعرف إنْ كان السيد يرغب في لمسه»

«وكم سيُكلّفني ذلك؟»

كرَّر هيربي سؤالي بالتشيكيّة. ثم ترجم لي، مع انحناء احترام، «هذا على حسابها»

«كلا، شكراً»

لكنّها طمأنتِ السيد المُحترم من جديد بأنَّ ذلك لن يُكلّفه شيئاً. ومن جديد رفض السيد المُحترم العرض بدماثة.

هنا ابتسمتْ إيفا – من بين أسنانها المتباعدة، وكان لسانها لا يزال أحمر اللون. وكان لبّ الفاكهة لا يزال أحمر اللون!

«هيرب، ماذا قالت عندئذٍ؟»

«لا تتوقّع مني أنْ أُكرّرِ ما قالت، ليس لك»

«ماذا قالت، هيربي؟ أريد أنْ أعرف بشدّة!»

قال، وهو يضحك ضحكاً مكبوتاً، «شيئاً بذيئاً، عمّا كان كافكا يرغب فيه أكثر من أي شيء. ما كان يُثيره بقوة»

«*ما هو؟* »

«أوه، لا أعتقد أنَّ أباك سوف يرغب في أنْ يسمع هذا، يا ديف. أو أبا أبيك، وحتى جدود جدودك. ثم، لعلّها مجرد ملاحظة خبيثة، مُرتجلة، لا أساس لها. لعلها قالتها فقط لأنكَ أهنتها. كما تعلم، برفضك أنْ تلمس عضوها الشهير بإصبعك ألقيتَ ظلاً من الشك – ربما حتى ليس سهواً بشكلٍ كامل – على معنى جوهر حياتها. وزيادة على ذلك، هي تخشى أنْ تعود إلى أميركا الآن وتُخبر زملاءك أنها مُخادعة. ومن ثم سوف يُحجم المُثقفون الجادّون عن زيارتها وتقديم واجب الاحترام لها – وهذا، طبعاً، سوف يضع حداً لوجودها، ويمكنني القول أيضاً، يضع حداً أيضاً لوجودها في بلدنا. سوف يكون ذلك مُعادلاً للانتصار الختاميّ للبلاشفة على الأحرار»

«حسن، باستثناء روتين حياتك التشيكيّة الجديد الذي، أعترفُ، يمكن أنْ يخدع أي إنسان إلّا أنا – لم يتغيَّر البتّة، يا براتاسكي»

«شيء مؤسف أنني لا أستطيع أنْ أقول الشيء نفسه عنك»

هنا اقتربَ هيرب من العجوز، التي كانت دموع الحزن تسيل عندئذٍ على وجهها، وضمّ أصابعه معاً وكأنما لكي يتلقّى سيل الدموع، ووضع يديه بين ساقيها العاريتين.

وأخذت تُقهقه «كوو، كوو، كوو»، وأغمضتْ عينيها الزرقاوَين، وأخذت تدعك وجنتها على كتف هيربي. ورأيتُ طرف لسانها يبرز من فمها. وكان لبّ الثمرة لا يزال أحمر اللون.



إبّان عودتنا من أسفارنا بين المدن الجميلة - بعد أنْ حلُمتُ في براغ بزيارة عاهرة كافكا، انتقلنا في صباح اليوم التالي بالطائرة إلى باريس، وبعد ذلك بثلاثة أيّام انتقلنا إلى مدينة بروج، حيث قرأتُ في مؤتمر حول الأدب الأوروبي المُعاصِر الأطروحة التي تحمل عنوان «فن الجوع» - قرّرنا أنْ نتقاسم دفع إيجار منزل صغير في الريف لقضاء شهرَي تموز وآب. أيّة طريقة أفضل من تلك لقضاء فصل الصيف؟ ولكن حالما اتّخذنا ذلك القرار، أصبحَ كل ما أُفكِّر فيه هو آخر مرّة عشتُ حياة يوميّة بالقرب من امرأة، في الأشهر الشبيهة بحياة القبور قُبيل إخفاق هونغ كونغ، حين لم يتحمّل أيٌّ منا رؤية حذاء الآخر على أرضيّة الخزانة. ونتيجة لذلك، وقبل أنْ أوقِّع على عقد إيجار المنزل الصغير المثاليّ الذي عثرنا عليه، اقترحتُ أنّه ربما من الأفضل ألّا نؤجِّر من الباطن أياً من شقّتينا في المدينة على مدى الشهرين - صحيح أنّها تضحيّة ماليّة صغيرة، ولكن بتلك الطريقة سوف يتوفّر لنا دائماً مكان نلجأ إليه إذا ما وقع أمرٌ طارئ. في الحقيقة أنا قلت إذا ما ظهرت كلير «بشكل طارئ» - كلير الحكيمة، الصبور، الرقيقة - التي تفهم جيداً ما أعني عندما أُبربر في هذا المجال، والقلم بيدي، والوكيل الذي استخرج صيغة العقد يُلقي نظرات سريعة منزعجة من الطرف المُقابل من غرفة مكتبه. إنَّ المرأة الشابة التي نشأتْ عبر معارك من النوع الثقيل منذ أنْ وُلِدَتْ إلى أنْ أضحتْ قادرة على الذهاب إلى المدرسة وعيش حياتها الخاصّة، أصبحت الآن امرأة شابّة مُستقلّة منذ أنْ بلغتْ سن السابعة عشرة، وليس لديها اعتراض على أنْ يكون لديها عشّ تلجأ إليه، بالإضافة إلى العشّ الذي تتقاسمه مع شخصٍ آخر، ما دام أنَّ فكرة التقاسُم جيدة. ووافقتْ على ألّا نؤجِّر شقتينا.

وعلى الأثر، وبرصانة القائد الأعلى للقوات المُسلّحة اليابانيّة الجالس على متن بارجة مكارثر لكي يُسلِّم الإمبراطوريّة بأكملها، أضعُ توقيعي على عقد الإيجار.

كان حينئذٍ منزلاً ريفيّاً صغيراً، من ألواح الخشب الأبيض يتألَّف من طابقين، يقوم على سفح تل تنمو عليه الهندباء البريّة وأزهار الربيع بجوار طريق ريفيّة يرين عليها الصمت غير مطروقة، وإلى الشمال من قرية كاتسكيل التي نشأتُ فيها. كنتُ قد انتقيتُ مُقاطعة سليفان التي تطلّ على رأس كود، وهذا أيضاً وافقتْ عليه كلير - لم يهمّها قُربه من كرم العنب ومن فيرجينيا تماماً كما كانت قد وافقتْ في العام السابق. وبالنسبة إلي كانت التلال النضرة الرقيقة والجبال الخضراء النائية التي تواجه نوافذ غرفة النوم تعود بي بالذاكرة إلى المشهد الذي تطلّ عليه غرفة نوم طفولتي - وهو بالضبط المشهد الذي تطل عليه الغرفة التي في أعلى «المُلحق» - بالإضافة إلى الإحساس الذي انتابني معها بأنني أصبحتُ أعيش أخيراً بوئام مع توأم روحي الحقيقيّ، وبأنني، حقاً، في «بيتي».

كم كان الصيف منعشاً للروح! كانت لياقتنا الجسديّة تزداد باطراد مع السباحة المُنتظمة في الصباح والمشي الحثيث بعد الظهيرة، بينما في الداخل كنا نزداد بدانة، يوماً بعد يوم، كما يحصل لخنازير جارنا المُزارع. كم تتغذّى الروح من مجرد الاستيقاظ في الصباح الباكر! من الخروج إلى الغرفة التي غسلتها أشعة الشمس وذراعاي تضمّان شكلها الكبير، والوافر. أوه، كم أحبّ حجمها وهي في السرير! ويا *لملمسها* الرائع! ويا لثقل ذينك الثديين بين يديّ! أوه، كما يختلف هذا عن تلك الأشهر الطويلة من الاستيقاظ وليس معي ما أضمّه بين ذراعيّ غير وسادتي!

لاحقاً - ألم تبلغ الساعة بعد الحادية عشرة؟ حقاً؟ لقد أكلنا الخبز المُحمَّص مع القرفة، وسبحنا قليلاً، وتوقفنا في البلدة لكي نشتري طعاماً من أجل وجبة العشاء وفكّرنا في أخبار الصفحات الأولى في الصحف، ولم تتجاوز الساعة العاشرة والربع؟ - لاحقاً، وأنا جالس على الكرسي الهزّاز في الشرفة الأماميّة حيث أقوم بالكتابة في الفترة الصباحيّة، راقبتُها وهي تكدح في الحديقة. وإلى جواري دفتران بنابض لولبيّ. في أحدهما

كنتُ أعمل على وضع خطّة لمشروع كتاب عن كافكا، سوف أسمّيه، على غرار عنوان مُحاضرتي التي ألقيتها في بروج، «*فن الجوع*»، بينما في الدفتر الآخر، الذي باشرته بحماسٍ أعظم - وكنتُ أُحرِزُ فيه نجاحاً أكبر - فإني أنتقل إلى جوهر المحاضرة التي كنتُ قد باشرت في وضع مُقدّمتها وأنا في مقهى الفندق في براغ، وفيها أسردُ قصّة حياتي *أنا* بجوانبها المُحيِّرة والمُثيرة للجنون، وتاريخ أحداث *حياتي* الجائرة، والجامحة والمُثيرة... أو (على سبيل وضع عنوان مؤقّت)، «كيف جلسَ ديفيد كيبيش على كرسيّ هزّاز في شرفة مُزوّدة بستارة في منطقة جبال كاتْسكيل، يُراقبُ برضا زحف مُدرّسة الصف السادس البالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً ولا تُعاقر الخمر، من شينيكتادي، في نيويورك، في حديقة أزهارها مُرتدية ما بدا أنّه زيّ عمل كأنّها ورِثته من توم سوير نفسه، وشعرها مربوط في الخلف بقطعة صغيرة من رباط اقتُطِعَ من حبل كانت تدعم به نبتة البيغونيا المُزدهرة إلى وتد، ووجهها الرقيق، والبريء والملائكي، الصغير والذكي كوجه حيوان الراكوون، مُلطّخ بالقذارة كأنما استعداداً لقضاء ليلة هنديّة في مهرجان فتيات الكشّافة - وسعادته بين يديها»

هتفتْ «لِمَ لا تخرج وتُساعدني في نزع الحشائش الضارة؟ - جديرٌ بتولستوي أنْ يفعل هذا»، قلت «لقد كان روائيّاً مزدهراً، وأمثاله يقومون بمثل هذه الأعمال، من أجل اكتساب الخبرة. أنا لا أفعل هذا. أنا أكتفي بمراقبتكِ وأنتِ تزحفين على ركبتيك». قالت «حسنٌ، كما يُرضيك»

آه، يا كلاريسا، دعيني أخبركِ بما يُرضيني *حقاً*. تُرضيني البِركة التي نسبح فيها، وكرم تفّاحنا، والعواصِف الرعديّة، واللحم المشوي، وعزف الموسيقى، والتحدث في السرير، والشاي المُثلّج الذي تصنعه جدّتك، والتشاوُر حول الطريق الذي ينبغي أنْ نسلكه في الصباح والذي سنسلكه عند الغروب، ومُراقبتكِ وأنت تخفضين رأسك لكي تُقشّري ثمار الدرّاق وكيزان الـذرة... أوه، لا شيء يُرضي. ولكن ما أروعه من لا شيء! إنَّ الأمم تخوض الحرب من أجل هذا النوع من اللاشيء، وعندما يغيب هذا اللاشيء، يضعفُ الناس ويموتون.

طبعاً حينئذٍ لم يعُد الشغف بيننا كما كان في أيام أحد أخرى عندما

كان يتشبّث أحدنا بالآخر في السرير حتى الساعة الثالثة من بعد الظهيرة - «درب الجنون المُكلَّل بالزهور» كما وَصَفَت كلير تلك الجهود الوحشيّة التي اختُتِمَتْ بنهوضنا نحن الاثنين على ساقَي مُسافرين مُرهقين لكي نُغيِّر أغطية السرير، ونقف متعانقين تحت الدش، ومن ثم نخرج من المنزل لكي نستنشق بعض الهواء قبل أنْ تغرب شمس الشتاء. من جديد، كان ينبغي لممارستنا للجنس أنْ تستمر بكثافة لا تنقص على مدى عام - كان على ذينك المُدرّسين المُجتهدين، المسؤولين، والمثاليين أنْ يدعم أحدهما الآخر كمخلوقَين بحريين أحمقين، ووصلا، في لحظة من الفيض، إلى شفا تمزيق اللحم بأنياب نهّاشة - في الواقع، إنَّ هذا، بصورةٍ ما، أكثر مما كان يمكن أنْ أجرؤ على توقّعه لنفسي، بعد أنْ خدمتُ أكثر مما يتطلّبه الواجب - وبعد أنْ جمعتُ الكثير وفقدتُ الكثير - في ظل المعيار الداعر المتهرّئ لصاحب الرفعة الملكيّة، شبقي.

وهدأنا. وخمدَ السُعر الملتهب وغدا عاطفة جسديّة هادئة. بهذا قرّرتُ أنْ أصِفَ ما حدث لحبّنا العنيف خلال ذلك الصيف السعيد. هل أستطيع أنْ أفكِّر بطريقة مختلفة - هل أستطيع أنْ أؤمن - بدل أنْ أستقرّ بارتياح على السهل الدافئ للألفة العذبة العلاقة الحميمة، بأنني خفّفتُ ميلاً متهوراً وبأنّني لم أقترب بعد من الكهف البارد والموحِش الذي سوف أستقرّ فيه في نهاية المطاف؟ ولا شك في أنَّ العنصر الحيوانيّ الخفيف قد لاذ بالفرار؛ وزال خليط القسوة والرقّة، تلك الممارسات الحميمة التي تنطوي على استسلام تامّ وتتمثّل في الرضوض المزرقّة، في العربدة التي تبثّ فيك الإثارة عبر الكلمة الخشنة التي تُنطَق في ذروة المتعة. لم نعُد *نستسلم* للشهوة، ولم يعُد كلٌ منا يلمس الآخر في كل مكان، أو نلجأ إلى الخدش والتدليك والتعامُل بجنون نهِم غريب علينا وعلى طبيعتنا. صحيح أنني لم أعد أقرب قليلاً إلى الحيوان، وهي لم تعُد أقرب قليلاً إلى العاهرة، ولم أعُد المجنون النهم، أو الطفل المحروم، أو المُنتهِك الصلب، ولا الضعيف الواهن. والأسنان التي كانت حادّة وقاطِعة، كأسنان الكلاب والقط الصغيرة الموجِعة، عادت ببساطة إلى كونها مجرد أسنان، وعاد اللسانان إلى طبيعتيهما، والأطراف إلى أصلها. وهذا، كما نعلم جميعاً، ما ينبغي أنْ يكون.

وأنا من ناحيتي لن أتشاجر، أو أتجهَّم، أو أشتاق، أو أيأس. لن أجعل مما تلاشى ديناً - من اشتياقي إلى ذلك الحوض الذي دفنتُ فيه وجهي كأنما لكي أستخلصَ منه آخر قطرة من الحلاوة لم أتمكّن من لعقها بسرعة كافية... من الإثارة الخشنة لتلك القبضة الضاربة القوية، والسريعة، والثابتة، بحيث إنني إذا لم أئنّ دلالة على أنّه لم يتبقَّ شيء مني، وأُصاب بالذهول وبالخَدَر، فسوف تستمر، وهي في تلك الحالة المُثيرة من الالتهاب المُتاخِمة لقسوة القلب، إلى أنْ تمتصّ آخر قطرة من الحياة في جسمي. لنْ أصنع دِيناً من منظرها الرائع ذاك وهي شبه عارية. كلا، بل أنوي ألّا أحتفظ بأي وهم عن توفّر فرصة لحدوث إحياء عظيم للدراما التي كدنا نمثّلها حتى النهاية، تلك المسرحيّة السريّة، التي لم تُعرَض على الرقابة وتحكي عن أربعة أشخاص يعملون في الخفاء - اثنان يلهثان، واثنان يراقبان بأنفاس محبوسة - أمّا السلوك الصحّيّ، والمعتدل، والوقت من النهار أو الليل فذلك كله شيء دخيل وسخيف. أقول لك إني رجل جديد - أي أنني لم أعُد رجلاً *جديداً* - وأعلمُ متى ستحين ساعتي: الآن أكتفي بتمسيد الشَعر الناعم، الطويل، أصبحَ يكفينا أنْ نجلس جنباً إلى جنب في سريرنا في صباح كل يوم، ونستيقظ متعانقَين، متزوجين، عاشقين. نعم، أرغبُ في التركيز على هذه الشروط. يكفيني هذا. ولا أريد *المزيد*.

وأمام مَنْ أركعُ مُحاولاً أنْ أعقد مثل تلك الصفقة؟ مَن الذي يُقرِّر المسافة التي سأبتعد بها عن كلير؟ يا أعضاء قسم الأدب رقم 341 المُحترمين، سوف تعتقدون، مثلي، أنّه، ويجب أنْ يكون، ولابد أنْ يكون، أنا.

***

في وقتٍ متأخر من بعد ظهيرة أحد أجمل أيام شهر آب، مع ما يقارب خمسين من مثل ذلك اليوم أحملها في الذاكرة والرضا العميق بمعرفتي أنّه ما زال هناك بضعة أيام أُخَر آتية، بعد ظهيرة أحد الأيام عندما كان إحساسي بالسعادة بلا حدود ولا أتخيَّل أيّ شخص أسعد حالاً وأوفر حظاً مني، تلقّيتُ زيارة من زوجتي السابقة. وسوف أفكّر في تلك الزيارة على امتداد أيام عديدة بعد ذلك، وفي كل مرّة كان يرنّ الهاتف أو أسمع ضجيج سيّارة تظهر في أعلى الممشى المنحدر نحو المنزل أتخيَّل أنَّ هيلين قد عادتْ.

سوف أتوقَّع أنْ أجد رسالة منها في صباح كل يوم، أو بالأحرى رسالة بشأنها، تُبلغني أنّها رحلتْ من جديد إلى هونغ كونغ، أو أنها ماتت. وعندما أستيقظ في منتصف الليل وأفكر في كيف كنتُ أعيش ذات يوم وكيف أعيش الآن - وما زال هذا يحدث معي، بانتظامٍ صارم - أتعلَّق بشريكتي كأنها هي أكبر مني بعشرة أعوام - أو بعشرين أو بثلاثين عاماً - وليس العكس.

أنا في الخارج بجوار البستان وأتمدَّد على كرسي من الكنفا وساقاي تحت أشعة الشمس ورأسي في الظلّ، وأسمع رنين الهاتف داخل المنزل، حيث كلير تستعدّ للذهاب لكي تسبح. لم أُقرِّر بعد - وأيّامي تتألَّف من مثل هذه القرارات - إنْ كنتُ سأرافقها إلى البِركة، أو أكتفي بالجلوس والقيام بعملي بهدوء إلى أنْ يحين الوقت لريّ نبات القطيف وفتح زجاجة النبيذ. كنتُ في الخارج منذ وجبة الغداء - وحدي، مع النحل الطنّان، والفراشات، وأيضاً، بين حينٍ وآخر، مع كلب كلير العجوز، دازل - أقرأ رواية لكوليت وأدوِّن ملاحظات من أجل الدورة المعروفة في أرجاء المنزل بالشهوة 341. وأتساءل، وأنا أتصفَّح مجموعة من كتبها، إنْ كان في أميركا روائيٌّ يحمل وِجهة نظر حول منح المتعة وأخذها تشبه ولو بشكلٍ غامض وجهة نظر كوليت، روائيّ أميركي، رجلاً كان أو امرأة، تُثيره بعمق، مثلها، الرائحة والدفء واللون، شخص يتعاطف مع سلسلة من حاجات الجسد المُلحّة، في تناغمها مع كل منحة حسيّة يُقدّمها العالم، وخبير في أفضل تدرّجات مشاعر الحب، ومنيع مع ذلك ضد أنواع التعصُّب كافّة، ما عدا، كما هو حال كوليت، التفاني المتعصِّب للعيش المُشرِّف. إنَّ طبيعتها تبدو عُرضة برهافة لكل ما تتوق إليه الشهوة وتعِدُ به - «هذه المُتع تُسمّى باستخفاف جسديّة» - ولكنْ من دون أنْ ينال منها البتّة الضمير التطهّري، أو الدافع الإجراميّ، أو جنون العَظَمة، أو المطامح الشريرة، أو الحنق الطَبَقيّ أو الظلم الاجتماعيّ لتصفية الحِساب. إنَّ المرء يظنّ أنّها أنانيّة، بالمعنى الأكثر حِدَّة، وجفافاً للكلمة، والأكثر عمليّة بين الحسّيين، وأنَّ مقدرتها على تفحّص الذات الواقي بتوازنٍ مثاليّ، مع المقدرة على الاندفاع -

كانت الورقة الصفراء العليا من كمية أوراقي قد امتلأتْ بخطوط متقاطعة مع بدايات متفرقة للخطوط الأولى لإحدى المحاضرات - تمتد نحو

أسفل أحد الهامشين لائحةٌ طويلة بأسماء روائيين مُعاصرين، من أوروبيين وأميركيين، ما زالت وثنيّةُ كوليت البورجوازيّة، القوية، والمُهذّبة تبدو لي بينهم فريدة من نوعها - عندما خرجتْ كلير من ستارة باب المطبخ، مُرتدية ثوب السباحة وحاملة رداءها الأبيض من القماش الوَبَريّ على ذراعها.

كان الكتاب الذي تحمله هو رواية ميوزيل «*الشاب تورليس*»، هي النسخة التي كنتُ قد انتهيتُ تواً من وضع ملاحظاتي عليها في الليلة السابقة. كم ابتهجتُ بفضولها بشأن تلك الكتب التي سأقوم بتدريسها! وبالنظر إلى انتفاخ ثدييها من فوق حامل ثوب السباحة البكيني، في الواقع، إنّه أحد تلك الأشياء المُرضية في هذا اليوم الرائع.

أقول، وأنا أُمسك بربلة أقرب ساقيها إليّ، «أخبريني، لماذا ليست هناك نسخة أميركيّة من كوليت؟ أم هل جون أبدايك هو الأقرب إليها؟ ولكن حتماً ليس هنري ميللر. وحتما ليس هوثورن»

قالت «ثمة مكالمة هاتفيّة لك. من هيلين كيبيش»

«يا إلهي» ونظرتُ في ساعة يدي، سعياً وراء كل مُساعدة يمكن أنْ تُقدِّمها. «كم تكون الساعة الآن في كاليفورنيا؟ ماذا يمكن أنْ تريد؟ كيف عثرتْ عليّ؟»

«إنها مُكالمة محليّة»

«*حقّاً*؟»

«أعتقدُ ذلك، نعم»

لم أكن قد تزحزحتُ عن الكرسيّ. «وهذا ما قالتْ، هيلين **كيبيش**؟»

«نعم»

«لكني اعتقدتُ أنها استعادتْ اسمها الأصليّ»

هزّتْ كلير كتفيها استخفافاً.

«هل أخبرتِها بأنني هنا؟»

«أتريد مني أنْ أُخبرها بأنكَ لستَ هنا؟»

«ماذا يمكن أنْ *تريد* مني؟»

قالت كلير «يجب أنْ تسألها، أم إنكَ ربما لا ترغب في هذا»

«هل من باب قلّة الأدب مني أنْ أدخل وأُعيد سمّاعة الهاتف إلى مكانها؟»

قالت كلير «ليس خطأ. لكنّه يدلّ على قلق شديد»

«لكنني أشعر *حقاً* بقلقٍ شديد. أشعر بأنني **سعيد** سعادة غامرة. وهذا مُناسِب تماماً». وفرشتُ عشر أصابع عبر الانتفاخ الناعم للَّحم البارز من فوق الحامل. «أوه، يا صديقي العزيز، العزيز على قلبي»

قالت «سوف أنتظر هنا في الخارج»

«***وسوف*** أرافقك للسباحة»

«حسن، عظيم»

«انتظري إذن!»

أقول لنفسي، وأنا أنظر نحو الأسفل إلى جهاز الهاتف القابع على طاولة المطبخ، لن يكون ذلك تصرّفاً قاسياً ولا جباناً - بل سوف يكون فقط التصرّف الأشد عقلانيّة. لولا انّه تصادفَ أنْ كانت هيلين، من بين الأشخاص الأقرب إليّ في حياتي، ما تزال الأقرب. أقول «مرحباً»

«مرحباً. أوه، مرحباً. اسمع، ينتابني شعور غريب وأنا أتصل بك هاتفيّاً، يا ديفيد. كدتُ لا أفعل. لولا أنّه بدا أنني موجودة في مسقط رأسك. نحن في محطة تكساكو، قبالة مكتب للعقارات»

«فهمت»

«أخشى أنَّ الانطلاق بالسيارة من دون الاتصال بك أمر غاية في الصعوبة. كيف حالك؟»

«كيف عرفتِ أنني أُقيمُ هنا؟»

«حاولتُ الاتّصال بك في نيويورك قبل بضعة أيام. اتّصلتُ بالجامعة، فقالتْ سكرتيرة القسم إنها غير مُفوّضة بإعطاء عنوانك الصيفيّ، فقلتُ إنني طالبة سابقة وإنني واثقة من أنكَ لن تعترض. لكنّها أصرَّت على المُحافظة على خصوصيّة البروفسور كيبيش. تلك السيدة كانت كتومة جداً»

«إذن كيف عثرتِ عليّ؟»

«اتّصلتُ بآل شونبرون»

«يا سلام، يا سلام»

«لكن توقّفي هنا لكي أتزوّد بالوقود كان مُصادفة بحتة، أعلمُ أنّه أمرٌ غريب، لكنّه صحيح. وهو ليس غريباً كالأشياء الغريبة حقاً التي تحدث»

كانت تكذب ولم أتأثّر بكلامها. وعبر النافذة رأيتُ كلير تحمل بيدها الكتاب الذي لم يُفتَح بعد. كان يمكن أنْ نكون في السيارة متوجّهَين إلى البركة.

«ماذا تريدين، يا هيلين؟»

«تقصد منكَ؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. أنا متزوجة الآن»

«لم أكنْ أعلم»

«هذا ما كنتُ أفعل في نيويورك. كنا نقوم بزيارة لعائلة زوجي. كنا في طريقنا إلى فيرمونت. لدينا منزل صيفيّ هناك»، وضحكتْ، ضحكاً ممتعاً جداً. وذكّرني بها ونحن في السرير. «أتصدِّق أنني لم أكنْ قد ذهبت قط إلى نيو إنغلند؟»

قلت «حسن، إنها ليست بعيدة جداً كمدينة رانغون[1]»

«ورانغون أيضاً لم تعُد بعيدة»

«كيف صحّتكِ؟ سمعتُ أنكِ كنتِ مريضة جداً»

«أنا أفضل حالاً الآن. لقد مررتُ بفترةٍ عصيبة من الوقت. لكنّها انصرمتْ. وكيف حالك *أنت*؟»

«وقتي العصيب أيضاً انتهى»

«أحبّ أنْ أراك، إنْ كان ذلك ممكناً. هل أنتَ بعيد عن منزلك؟ أريد أنْ أتحدّث معك، حديثاً مُقتَضَباً–»

«حول ماذا؟»

«إنني أُدينُ لك بتفسيرات»

«لستِ كذلك. ليس أكثر مما أُدينُ لكِ به. أعتقد أننا معاً سوف نكون أفضل حالاً بهذا اللقاء المتأخّر من دون تفسيرات»

1– رانغون، أو يانغون: عاصمة مايانمار (بورما سابقاً)، في جنوب شرق آسيا. – المترجم

«كنت مجنونة، يا ديفيد. كنتُ أفقد عقلي – ديفيد، من الصعب قول هذه الأشياء وسط براميل زيت السيارات»

«إذن لا تقوليها»

«يجب أنْ أقولها»

بينما أنا أجلس على الكرسي، كانت كلير تتصفّح جريدة *التايمز*.

قلتُ «الأفضل أنْ تذهبي للسباحة من دوني. إنَّ هيلين قادمة إلى هنا، مع زوجها»

«أتزوجّتْ؟»

«هكذا قالت»

«لِمَ إذن *قالت* إنَّ اسمها هو هيلين «كيبيش»؟»

«ربما لكي تتعادل معك. ومعي»

قالت كلير «أو مع نفسها. هل كنتَ تفضِّل ألّا أكون هنا؟»

«طبعاً لا. ما قصدتُ هو أنني اعتقدتُ أنك قد *تفضّلين* أنْ تذهبي لتسبحي»

«هذا فقط إنْ كنتَ *أنتَ* تفضّل هذا–»

«كلا، حتماً لا أُفضّل»

«وأين هما الآن؟»

«في المدينة»

«قطعَتْ كل تلك المسافة – ؟ أنا لا أفهم. ماذا لو لم نكن في المنزل؟»

«تقول إنهما في طريقهما إلى منزل عائلته في فيرمونت»

«ولم يسلكا طريق ثرواي؟»

«حبيبتي، ماذا ألمَّ بك؟ كلا، لم يسلكا طريق ثرواي. ربما هما يسلكان الطرق الخلفيّة من أجل مشاهدة المناظر. ما الفرق؟ سوف يأتيان ومن ثم سوف يُغادران. أنتِ التي طلبتِ مني ألّا يستبدّ بي القلق المُفرِط»

«ولكن لا أريد أنْ ينالك الأذى»

«لا عليك. إنْ كان هذا هو سبب رغبتكِ في المكوث–»

هنا نهضَتْ فجأة واقفة، وقالت وهي على شفا البكاء (وهو الحال الذي لم أكنْ قد رأيتها عليه قبل ذلك)، «اسمع، من الواضح أنكَ ترغب في أنْ أبتعد عن طريقك–»، وبسرعة اندفعتْ نحو المكان الذي تتوقف فيه سيارتنا على الجانب المُقابل من المنزل وسط بقعة جرداء بجوار الحظيرة القديمة المتهدمة. وركضتُ ألحق بها، خلف الكلب مباشرة، الذي ظنّ أنَّ الأمر كلّه لهو.

نتيجة ذلك أصبحنا معاً بجوار الحظيرة، ننتظر معاً، حتى وصل آل لاوري. وبينما كانا يتقدّمان بسيارتهما على طول الممر القذِر نحو المنزل. كانت كلير ترتدي الرداء ذا الزغب فوق ثوب السباحة. وكنتُ أرتدي بنطلوناً قصيراً، وقميصاً رياضيّاً قديماً حائل اللون، وأنتعل حذاءً رياضياً متهرّئاً، وهي ملابس كنت أرتديها ربما منذ أنْ كنتُ في سيراكوز. ولم تواجه هيلين أيّة صعوبة في التعرّف عليّ. ولكن هل سأتعرَّف أنا عليها؟ هل أستطيع أنْ أشرح لكلير –هل يجب أنْ أشرح لها؟– أنَّ كل ما أرغب فيه حقاً هو أنْ *أرى*...

كنتُ قد سمعت، بالإضافة إلى كل اعتلالها الجسدي الموهِن، أنَّ وزنها قد زاد ما يُقارب العشرين رطلاً. وإذا كان الأمر كذلك، فإنها الآن قد خسرت كل ذلك الوزن، وأكثر. وخرجت من السيارة وهي بالضبط كما هي. كانت بشرتها أشدّ شحوباً مما أتذكّرها – أو بالأحرى، لم تكن شاحبة بالطريقة النظيفة، الصاحبيّة[1]، التي تعوّدتُ عليها الآن. كان شحوب هيلين مُضيئاً، شفّافاً. لم تظهر إلّا في نحول ذراعيها وعنقها دلالة على أنها كانت قد مرّت بفترة صحيّة عصيبة، وزيادة على ذلك، أصبحت الآن امرأة في منتصف ثلاثينيات عمرها. وفيما عدا ذلك، كانت من جديد مخلوقة مُذهلة.

صافحني زوجها. كنتُ أتوقَّع أنْ يكون رجلاً أطول قامة وأكبر سناً – أعتقد أنَّ هذا ما يحدث في المعتاد. لطالما كان للاوري لحية سوداء قصيرة، ويضع نظارات مُستديرة من صَدَفة السلحفاة، وصاحب بُنية رياضيّة، قويّة ومتينة. كانا كلاهما يرتدي الجينز وينتعل الصندل ويلبس قميصاً مُلوّناً للعبة البولو ويقص شعرهما قصيراً. والحلية التي كان يضعها كلٌ منهما هي خاتم

1– الصاحبيّة، أو الكويكر: فئة دينيّة.

الزواج. وهذا كلّه لم يُنبئني بأي شيء عملياً. لعلّ حجارة الزمرد موضوعة في قبو المنزل.

تجوّلنا كأنهما ينويان أنْ يشتريا المكان أرسلهما وكيل مكتب العقارات لكي يُعاينا المنزل؛ كأنهما عابرا سبيل توقّفا لكي يُعرّفا عن نفسيهما؛ كأنهما كما هما - زوجة سابقة مع زوج جديد، كأنّها شخص لا يعني لي أيّ شيء، أو شيء مصنوع لم يتبقَّ له إلّا القليل من الأهميّة التاريخيّة التي لم يتم الكشف عنها خلال القيام بالحفريات في يوم عاديّ. نعم، لقد تبيَّنَ أنَّ إمدادها بالإرشادات إلى عريننا المثالي لم يكن أمراً أحمق ولا، يعلم الله، خطأً *خطراً*. وإلّا، كيفَ عرفتُ أنني أنا أيضاً تخلّصتُ من هيلين بصورة تامّة، وأنَّه ليس في استطاعة تلك المرأة أنْ تُسبِّب لي الأذى أو تفتنني، وأنني غير قابل للتأثّر إلّا بسِحر الأرواح الأنثويّة الأجمل والأشدّ عذوبة. كم كانت كلير على صواب بتحذيري من الإفراط في القلق؛ قبل، طبعاً، أنْ تمضي قُدُماً وتُصبح هي نفسها شديدة القلق - بسبب اضطرابي من رنين جرس الهاتف من دون أدنى شك.

تقدَّمتْ كلير مع آل لاوري، وتوجهوا نحو شجرة السنديان المُخرَّبة والمسودّة التي على حافة الغابة، لأنه في أوائل فصل الصيف، في أثناء عاصفة عنيفة دامت النهار بأكمله، ضربت صاعقة الشجرة وشقّتها إلى نصفين. وبينما كنا جميعاً نمشي حول المنزل وخلال الحديقة، كانت كلير تتكلَّم، بقليل من الحماس، عن الصواعق العنيفة التي تحدث في أوائل شهر تموز؛ بقدرٍ من الحماس وقليل من الصبيانيّة. ولم أتخيَّل مُسبقاً كم ستبدو هيلين مشؤومة لها، بسبب حكاياتي عن المشاكل التي تُسبّبها؛ أعتقد أنني لم أُدرك أنني حكيتُها لها مرّات عديدة خلال الأشهر الأولى من حياتنا معاً. ولا عَجَب أنّها تشبّثتْ بزوجها الهادئ، الذي بدا في الواقع أقرب إليها في السن وفي الروح، والذي اتّضحَ أنّه يشترك في مجلة «*التاريخ الطبيعيّ*» وفي «*مجلة أودوبون*». وقبل ذلك ببضع دقائق، في الشرفة الأماميّة، كانت قد عرَّفَتْ آل لاوري على أصداف كيب كود البحريّة المُنسَّقة على صينية مصنوعة من أماليد مجدولة وموضوعة في مركز طاولة تناول الطعام، بين الشمعدانات الأثريّة المصنوعة من القصدير الذي تلقّته هديّة من جدَّتها إبّان تخرّجها من الجامعة.

بينما زوجتي وزوجها يتفحّصان جذع الشجرة المُحترِق لشجرة السنديان، عدنا هيلين وأنا أدراجنا إلى الشرفة الأماميّة. كانت لا تزال تحكي لي كل شيء عنه. إنّه مُحامٍ، ومُتسلّق جبال، ومُتزلج على الجليد، وهو مُطلّق، ولديه ابنتان في سن المُراهقة؛ وبشراكته مع مُهندس معماريّ جمع ثروة صغيرة من عمله كمُطوِّر للمنازل؛ ومؤخراً ورد ذكره في الأخبار بسبب عمله كمُستشار تقصّي لمصلحة اللجنة التشريعيّة لولاية كاليفورنيا من أجل فصم الصِلات بين الجريمة المُنظَّمة وشرطة مقاطعة مارين... في الخارج رأيتُ أنَّ لاوري تجاوز شجرة السنديان وانتقل إلى الدرب الذي يخترق الغابة نحو تشكيلات الصخرة الشديدة الانحدار التي كانت كلير تقوم بالتقاط صور فوتوغرافيّة لها طوال فصل الصيف. بدا أنَّ كلير ودازل عادا إلى المنزل.

قلتُ لهيلين، «يبدو أصغر سناً بقليل ولا يصلح أنْ يكون الزوج الذي يكبر زوجته في السن»، فأجابت «أنا متأكّدة من أنّ في استطاعتي أنا أيضاً أنْ أكون متهكمة لو كنتُ في مكانك واعتقدتُ أنني ما أزال كما أنا. إنني مُندهشة لأنكَ أجبتَ على مكالمتي الهاتفيّة. لكنَّ السبب يعود إلى أنكَ رجل لطيف. في الواقع، لطالما كنتَ كذلك»

«أوه، هيلين، ما الذي يجري هنا؟ وفّري الكلام المعسول حتى تضعيه على شاهد قبري. في إمكانك أنْ تصنعي لنفسك حياة جديدة، لكنَّ هذه اللغة الغريبة...»

«لديّ مُتّسع من الوقت لأفكِّر متى كنتُ مشمئزّة. لقد فكّرتُ في-»

لكنني لم أرغب في معرفة ما تفكّر فيه. قاطعتُها وقلت «أخبريني، كيف كان حديثك مع آل شونبرون؟»

«تحدّثتُ مع آرثر. هي لم تكن في المنزل»

«وكيف استقبل كلامك معه بعد مرور كل ذلك الوقت»

«أوه استقبله استقبالاً حَسَناً»

«بصراحة لقد دُهِشتُ لأنّه عَرَضَ مُساعدته. ودُهِشتُ لأنكِ طلبتها منه. وحسب ما أذكر، لم يكن قط مولعاً بكِ - ولا أنت مولعة به»

«لقد غيَّرنا أنا وآرثر فكرة كل واحد منا عن الآخر»

«منذ متى؟ كنتِ تسخرين منه كثيراً»

«لم أعد أفعل هذا. أنا لا أسخر من الذين يعترفون بما يُريدون. أو على الأقلّ يعترفون بما ليس لديهم»

«وماذا يريد آرثر؟ أتقصدين أنَّ آرثر كان دائماً يُريدك *أنتِ*؟»

«لا أعرف إنْ كان أرادني طوال الوقت»

«أوه، هيلين، من الصعب أنْ أُصدق هذا»

«لا أعرف شيئاً يُصدَّق بسهولة أكثر من هذا»

«وما هو بالضبط المطلوب مني أنْ أُصدّق، من جديد؟»

«عندما رجعنا نحن الاثنين من هونغ كونغ، ورحلتَ وبقيتُ وحيدة، اتصلَ بي هاتفيّاً ذات ليلة وسألني إنْ كان في وسعه أنْ يأتي إليّ لكي نتحدث. كان شديد الاهتمام بأمرك. فجاء من مكتبه - كانت الساعة تبلغ حوالي التاسعة - وتحدّث عن سعادتك على امتداد ما يُقارب الساعة. وأخيراً قلتُ إنني لم أكنْ أعلم ما صِلة أي شيء من هذا بي، ومن ثم سأل إنْ كان في وسعنا أنا وهو أنْ نتقابل ذات يوم في سان فرانسيسكو على مائدة الغداء. فقلت إنني لا أعلم، كنتُ أشعر ببؤس شديد، وقبّلني. ومن ثم جعلني أجلس وجلس هو وشرح لي بالتفصيل أنّه لم يكن يتوقَّع أنْ يفعل ذلك، وأنَّ هذا لا يعني ما أظنّ أنّه يعني. كان لا يزال متزوجاً وسعيداً بحياته، وبعد كل تلك السنين كان لا يزال على علاقة جسديّة قوية مع ديبي، وفي الواقع كان يُدين لها بحياته كلّها. ومن ثم حكى لي حكاية مُعذّبة عن فتاة مجنونة، عن أمينة مكتبة كاد يتزوجها في مينيسوتا، وكيف لاحَقتْه ذات يوم وهي تشهر شوكة طعام على مائدة الإفطار وطعنتْ يده. وهو لم يتمكّن من تجاوز ما كان يمكن أنْ يحدث له لو أنّه سقط في فخ الزواج منها - اعتقد أنَّ الأمر كان سينتهي بارتكاب جريمة قتل. وعرضَ عليّ الندب الذي تسبّبت به الشوكة. قال إنَّ خلاصه تمَّ بلقائه بديبي، وإنّه يُدين بكل ما أنجز لتفانيها ولحبّها له. ثم حاول أنْ يُقبّلني من جديد، وعندما قلتُ إنني لا أعتقد أنّها فكرة صائبة، قال لي إنني على حق تماماً وإنّه أساء الحُكم عليّ بشكلٍ كامل وإنّه لا يزال يرغب في تناول الغداء معي. ولم يكن في

استطاعتي حقاً أنْ أتحمّل المزيد من الاضطراب، فوافقت. وحدَّد مكان تناولنا الطعام في تشاييناتاون حيث، أؤكّد لك، ما كان يمكن لأي شخص أعرفه أو يعرفه أو *أي شخص* يعرفنا أنْ يرانا معاً. وهكذا كان. ولكن عندما انتقلا إلى الشرق، في ذلك الصيف، بدأ يكتب رسائل. ما زلتُ أتلقاها، وتصلني مرة كل بضعة أشهر»

«تابعي. ماذا يقول فيها؟»

قالت، وهي تبتسم، «أوه، إنها مكتوبة بأسلوب رائع جداً. لابد أنّه كان يُعيد كتابة تلك الجُمل مراتٍ عديدة قبل أنْ يصل إلى النتيجة التي ترضيه تماماً. أعتقد أنها ربما رسائل من النوع الذي يكتبه مُحرّر الشِعر في مجلّة الجامعة في أواخر الليل لصديقته في سميث. «الطقس صافٍ وحادّ كأشواك سمكة» وما إلى ذلك. وأحياناً كان يُضيف أبياتاً من الشِعر اقتطفها من قصائد عظيمة عن فينوس، وكليوباترا وهيلين أميرة طروادة»

«*«انظروا، هذه هي التي كانت محطّ رغبة العالم»*»

«هذا صحيح - هذا أحد الأبيات. في الحقيقة، كنتُ أجد ذلك مُهيناً قليلاً. ولكني رأيتُ أنَّ ذلك غير ممكن لأنّه كان شيئاً «عظيماً». على أي حال، لقد أفهمني بصورة أو بأخرى أنني لستُ مُضطرة إلى الإجابة؛ فلم أفعل. لِمَ تبتسم؟ إنَّه شيء ممتع حقاً. بل، هو شيء كبير. ما رأيك فيه؟»، قلت، «إنني أبتسم لأنَّ في حوزتي بعضاً من رسائل شونبرون - منها»

«الآن، *هذا* شيء لا يُصدَّق»

«كلا، إلّا إذا رأيتها. لم يُرسِل أبياتاً عظيمة من الشِعر إليّ»

كانت كلير ما تزال تبعد عنّا نحو خمسين قَدَماً، ومع ذلك توقّفنا كلانا عن الكلام عندما قفلتْ عائدة إلى المنزل. لماذا؟ الله وحده يعرف السبب!

ليتنا لم نفعل! لِمَ لمْ أكتف بقول كلام بلا معنى، بقول نكتة، *بإلقاء* قصيدة، أي شيء يمنع كلير من اجتياز باب الستارة واختراق هذا الصمت التآمريّ. كي لا تدخل وتراني جالساً قِبالة هيلين، مفتوناً رُغماً عني.

تجمّدتْ في الحال - توصّلتْ إلى قرار. «أنا ذاهبة لأسبح»

سألتها هيلين «ماذا حدث لليس؟»

«ذهب ليتمشّى»

سألتُ كلير «أما زلتِ مُصرَّة على ألّا تشربي بعض الشاي المُثلَّج؟ لِمَ لا نشرب كلنا الشاي المُثلّج؟»

«كلا. إلى اللقاء». ألقتْ عبارة الوداع المُراهقة هذه على الضيفة، ثم غادرتْ.

من مكان جلوسي استطعتُ أنْ أراقب سيارتنا تهبط التلّ نحو الطريق. ماذا اعتقدتْ كلير أننا نُخطِّط؟ ما الذي نُخطّط له؟

قالت هيلين، بعد أنْ غابت السيارة عن الأنظار، «إنها غاية في العذوبة»

قلت «وأنا رجل «ظريف»»

«أنا آسفة إذا كنتُ قد سبّبت الإزعاج لصديقتك بمجيئي إلى هنا. لم أقصد ذلك»

«سوف تكون على ما يُرام. إنها فتاة قويّة»

«ولا أقصد أنْ أتسبّب لك بأي أذى. ليس لأجل هذا أردتُ أنْ أقابلك»

لزمتُ الصمت.

قالت «ذات مرَّة أردتُ أنْ أؤذيك، هذا صحيح»

«لم تكوني وحدك المسؤولة عن البؤس»

«لم تكن ترغب في فعل ما فعلته لي، بل فعلته لأنكَ استُفزِزت. أما الآن فأعتقد أنني في الواقع عمدتُ إلى تعذيبك»

«أنتِ تُعيدين كتابة التاريخ، يا هيلين؟ وهذا ليس ضروريّاً. لقد سبّب كلٌّ منا العذاب للآخر، لا شك في هذا، ولكن ليس بدافع الخبث. بل بدافع الفوضى، والجهل، وأشياء أخرى أيضاً، ولكن لو كان بدافع الخبث، لما بقينا معاً طويلاً»

«لقد كنتُ أتعمّد حرق ذلك الخبز المُحمَّص اللعين»

«وحسب ما أتذكّر، كان البيض اللعين هو الذي احترق. الخبز المُحمَّص اللعين لم يُحترق»

«كنتُ أتعمَّد ألّا أودع رسائلك صندوق البريد»

«لِمَ تقولين هذه الأشياء؟ ألكي تُعاقبي نفسك، أم لكي تتنصّلي بصورة ما

من ذلك، أم أنكِ فقط تحاولين أنْ تحصلي مني على زيادة في النقود؟ وحتى إنْ كان هذا صحيحاً، لا أريد أنْ أعرفه. هذا كلّه أصبحَ من الماضي»

«كل ما في الأمر أنني لطالما كرهتُ بشدّة الأسلوب الذي يُبدِّد الناس به الوقت. لقد خطّطتُ هذه الحياة الفخمة، كما ترى»

«أتذكّر»

«حسن، هذا أيضاً أصبح من الماضي. والآن آخذُ ما أستطيع الحصول عليه، وأنا ممتنّة للحصول عليه»

«أوه، لا تبالغي في مسألة «التطهّر»، إنْ كان هذا واقع الحال. إنَّ السيد لاوري لا يبدو لي أشبه بالبقايا. يبدو لي شديد التفاؤل ويعرف ماذا يفعل. إنّه يبدو شخصاً يُحسَب له حِساب، يتعامل مع المافيا ***وأيضاً*** مع رجال الشرطة. يبدو أقرب إلى الرجل الشجاع الوحيد في العالم. وهو مناسب تماماً لك. ولا شك في أنّه يبدو متوافقاً معك»

«حقاً؟»

قلت «تبدين رائعة» – وندمتُ لأني قلت هذا. إذنْ لِماذا أضفتُ، «تبدين مُبهِرة»

منذ أنْ أتت كلير إلى الشرفة الأماميّة للمرّة الأولى، رانَ علينا الصمت من جديد. تبادلنا النظرات الثابتة، كأننا غريبان جرؤا، أخيراً، على تبادل التحديق مباشرة وبلا إبهام – كمُقدّمة للقفز بتهوُّر وممارسة الجنس المُثير والوقح. وأعتقد أنّه لم تكن هناك طريقة أخرى لكي نتجنّب قليلاً – إنْ لم يكن أكثر من القليل بقليل – من الغزل. ربما كان ينبغي أنْ أقول هذا. ولكن مع ذلك، ربما ما كان ينبغي. ربما كان ينبغي فقط أنْ أُشيح بوجهي عنها.

سألتها «بمَ كنتِ مريضة؟»

«بمَ كنتُ مريضة؟ بكل شيء تقريباً. وراجعت الكثير من الأطباء. كل ما كنتُ أفعل هو أنْ أجلس في غرف الانتظار وأتعرّضَ للكشف بالأشعة السينية وفحص الدم وتلقّي حُقن الكورتيزون وانتظار دوري في الصيدليات لكي أصرف وصفات الأدوية، ومن ثم أبتلع الأقراص، آملة في أنْ تُشفيني في الحال. كان يجب أنْ تشاهد صندوق أدويتي. بدل أنْ يحتوي أنواع

الكريم والغسول من الكونتيسة أولغا، كان يضم العديد من قوارير الأقراص الشنيعة - ولم يفِدني أيٌ منها بأي شيء، ما عدا أنها دمّرتْ معدتي. ولم يتوقف أنفي عن الجريان طوال أكثر من عامٍ كامل.. كنتُ أعطس على مدى ساعات. لم أكن أستطيع التنفّس، وتورَّمَ وجهي، وكانت عيناي تحكّانني طوال الوقت، ثم بدأ يظهر عليّ طفح مُخيف. وكنتُ أُصلّي عندما آوي إلى النوم لكي يختفي كما ظهر، لكي يزول إلى الأبد في الصباح. وطلب مني أحد اختصاصيّي الأمراض الجلديّة أنْ أنتقل إلى أريزونا، وقال لي اختصاصي آخر إنَّ ذلك لن يُفيد لأنَّ منشأ الأمر كله عقلي، وشرح آخر بتفصيلٍ شديد كيف أنَّ لديّ حساسيّة ضد نفسي، أو ما شابه، وهكذا رجعتُ إلى المنزل ولجأتُ إلى السرير ورفعتُ الأغطية إلى وجهي ورحت أحلم في يقظتي بأنَّ الدماء كلّها سُحِبَتْ مني واستُبدِلَت بدماء شخص آخر، دماء أستطيع أنْ أحتفظ بها حتى آخر حياتي. وكدتُ أُجنّ. أحياناً في أوقات الصباح كنتُ أرغب في رمي نفسي من النافذة»

«لكنكِ تحسّنتِ»

قالت هيلين «بدأتُ أقابل لس. هكذا بدأ الأمر. الأوجاع كلها بدأتْ تخفّ، واحداً إثر آخر. لا أعلم كيف تحمّلني. كنتُ شنيعة»

«ربما لم تكوني شنيعة كما ظننتِ. يبدو أنّه وقع صريع حبّك»

«بعد أنْ تحسّنتُ انتابني الخوف. فكّرتُ في أنني من دونه سوف أمرض من جديد. وبدأتُ أعاقر الخمر من جديد - لأنه استطاع أيضاً بصورة ما أنْ يمنعني عن ذلك. قلتُ له في أول ليلة جاء لكي يقلّني، وكان يبدو قويّاً جداً ومزهوّاً بنفسه وفحلاً، قلت «اسمع، يا سيد لاوري، أنا في الرابعة والثلاثين من العمر، وأنا مريضة ككلب، ولا أحبّ أنْ يتلاعب أحدٌ بي»، فقال «أنا أعرف عمرك، والجميع يمرضون في وقتٍ من الأوقات، والتلاعب بالآخرين ليس من اهتمامي»، وهكذا خرجنا معاً، وكان واثقاً من نفسه بصورة رائعة، ووقع صريع حبّي - وأيضاً أحبَّ أنْ يُنقذني. لكنّي لم أحبّه. وكنتُ دائماً أرغب في إنهاء علاقتي به. ولم ينتبني الخوف إلّا بعد أنْ انتهت علاقتي به، عندما كان ينبغي أنْ تنتهي... وهكذا تزوجنا»

لم أُجِب. أشحتُ ببصري.

قالتْ «إنني أنتظر مولوداً»

«تهانيّ لك. متى ستلدين؟»

«في أقرب وقتٍ ممكن. في الواقع، لم أعُد أهتمّ بالسعادة. لقد تخلّيتُ عنها. وكل ما أهتمّ به هو ألّا أتعرّضَ للتعذيب. سوف أفعل كل شيء. سوف ألد له عشرة أطفال، أو عشرين إذا شاء. وقد يرغب في ذلك. إنَّ هذا الرجل، يا ديفيد، لا ينتابه أدنى شكّ في نفسه. كانت لديه زوجة وطفلان حتى بينما كان يدرس القانون - في أثناء دراسته القانون انخرطَ في مجال عمل المساكن - والآن يريد أنْ ينشئ عائلة ثانية، معي. وسوف أعمل على هذا. أي شيء آخر *تستطيع* هي أنْ تفعل، التي كانت ذات يوم مركز اشتهاء العالم؟ أنْ أفتتح محلاً صغيراً لبيع القِطع الأثريّة؟ أم أنْ تنال شهادة ثم تُدير عملاً ما؟ وتُصبح إحدى تلك الجميلات اللائي ذبل جمالهن؟»

«إذا لم يكن في استطاعتك أنْ تكوني في العشرين من عمرك وتمرّين من أمام تلك القوارب الشراعيّة عند الغروب... ولكن لقد سبقَ أنْ خضنا في هذا النقاش. لم يعُد الأمر يخصّني»

«وماذا عمّا يخصّك؟ هل ستتزوج من الآنسة أوفينغتون؟»

«ربما»

«وما الذي يمنعك من ذلك؟»

لم أُجِبْ.

«إنها شابّة، وجميلة، وذكيّة، ومُثقّفة، وتحت ذلك الرداء تبدو غاية في الفتنة. وزيادة على ذلك، فإنها تتّصِف بشيء طفوليّ وبريء لا أتّصِف به حتماً. أعتقد أنّه شيء يعرف كيف يصل إلى القناعة. كيف يصبحان هكذا، أتعلم؟ كيف يُصبحان *بارعين* هكذا؟ وتساءلتُ إنْ كانت ستُصبح هكذا. مُشرقة وجميلة وبارعة. إنَّ ليزلي مُشرقة وجميلة وبارعة. آه، يا ديفيد، كيف تتحمل هذا؟»

«لأنني أنا نفسي مُشرِق وجميل وبارع»

«كلا، يا رفيقي العزيز، ليس مثلهما. إنّهما كذلك بالفطرة، بسذاجة. قاوِمْ

كما تشاء، لكنَّ الأمر ليس متشابهاً، ولا حتى بالنسبة إلى شخص مقموع بامتياز مثلك. أنتَ لستَ مثلهما، وأنت لستَ المسكين آرثر شونبرون، أيضاً»

لم أُجِب.

سألتْ هيلين، «ألا تُثير جنونك ولو قليلاً كونها مُشرقة وجميلة وبارعة؟ بأصدافها البحريّة ومسكب أزهارها وكلبها الصغير ووصفات طبخها المُثبّتة فوق المغسلة؟»

«هيلين، أهذا ما أردتِ أنْ تأتي إلى هنا وتُخبريني به؟»

«كلا، ليس من أجل هذا. طبعاً ليس من أجل هذا. لم آتِ إلى هنا لكي أقول *أيّاً* من هذه الأشياء. أنتَ رجل ذكيّ - وتعلم جيداً سبب مجيئي. جئتُ لكي أُعرفكِ على زوجي. لكي أُبيِّن لك كم تغيَرتُ، إلى الأفضل، طبعاً؛ وأيضاً... إلى جانب أكاذيب متنوّعة أخرى. بل لقد فكّرتُ حتى في أنْ أخدع نفسي. ديفيد، قد أتيتُ إلى هنا لأنني أردتُ أنْ أتحدث مع صديق، على الرغم من غرابة هذا الأمر الآن. أحياناً أفكّر فيك بوصفك الصديق الوحيد الذي تبقّى لديّ. فكّرتُ في هذا عندما كنتُ مريضة. أليس هذا غريباً؟ بل إنني في إحدى الليالي كدتُ أتَّصلُ بك - لكنني أدركتُ أنَّ هذا لم يعُد من شأنك. في الواقع، أنا حامل. وأريد منك أنْ تُخبرني شيئاً. أنْ تُخبرني بما ينبغي عليّ أنْ أفعل. إنَّ شخصاً ما يجب أنْ يُخبرني. إنني حامل بشهرين، وإذا انتظرتُ أكثر من هذا، فسوف يتوجب عليّ أنْ أمضي في هذا الحمل وأُنجب. ولم أعد أطيقه أكثر من ذلك. ولكنني أيضاً لم أعد أطيق أحداً. إنَّ كل ما يقوله أي شخص هو خطأ ويدفعني نحو الجنون. لا أقصد أنني أتشاجر مع الناس. أنا لا أجرؤ على هذا. إنني أُصغي وأومئ برأسي موافقة وأبتسم. يجب أنْ ترى كيف أُرضي الناس في هذه الأيام. إنني أُصغي إلى لس وأومئ برأسي موافقة وأبتسم، وأعتقد أنني سوف أموت من فرط الضجر. ليس هناك الآن شيء يفعله إلاّ يُثير حفيظتي حتى الموت. ولكن لا أستطيع أنْ أمرض وحدي هكذا من جديد. لا أتحمّله. أستطيع تحمّل الوحدة، وأستطيع أيضاً أنْ أتحمّل البؤس الجسديّ، لكنني لنْ أتحمّلها كلها دُفعة واحدة هكذا من جديد. لقد كان أمراً رهيباً وقاسياً، ولم يتبقّ لديّ الشجاعة اللازمة. كأنني

استزفتها كلها، وأشعر بأنَّه لم يتبقَّ هناك شجاعة في داخلي. يجب أنْ أحصل على ذلك الطفل. يجب أنْ أخبره بأنني حامل – وأنْ أنجب الطفل. لأنني إنْ لم أفعل، لا أعلم ماذا سيلمّ بي. لا أستطيع أنْ أتركه. إنني مرعوبة من فكرة المرض من جديد هكذا، ومن الحكاك حتى الموت، ومن العجز عن التنفّس – ولا يُفيدني أنْ يُقال لي إنَّ الأمر كله من بنات أوهامي، لأنَّ ذلك لن يُزيله. هو وحده يستطيع أنْ يُزيله. نعم، **هو** الذي جعله يزول! أوه، إنَّ الأمر كلّه جنونيّ. ما كان ينبغي لهذا كلّه أنْ يحدث! لأنه إنْ كانت زوجة جيمي قد دُهِسَتْ بتخطيطٍ منه، لانتهى الأمر. كنت سأحصل على ما أردت. ولما فكّرتُ فيها مرّتين، أيضاً. وشئتَ أم أبيت هذه هي حقيقة وضعي، ولمَا شعرت بالذنب لحظة واحدة. كنتُ سأشعر بالسعادة. وكانت هي ستحصل على ما تستحقّ. ولكن بدل ذلك كنتُ طيبة – وهي جعلتهما ***كليهما*** بائسين. لقد رفضتُ أنْ أكون فظيعة، والنتيجة هي هذه التعاسة الرهيبة. إنني في كل ليلة أتقلّبُ في فراشي وينتابني كابوس حول كيف أنني لا أحبّ ***أحداً***»

أخيراً، بعد طول انتظار، رأيتُ لاوري يخرج من الغابة ويهبط التلّ في اتّجاه المنزل. كان قد خلع قميصه وحمله بيده. إنّه شابّ قويّ ووسيم، وناجح في حياته، ووجوده في حياتها أعاد إليها بصورة ما صحّتها... لكنَّ سوء حظ هيلين جعلها لا تُطيقه. ما زال هناك جيمي – ما زالت تنتابها تلك الأحلام حول ما كان يمكن أنْ يحدث وما كان ينبغي أنْ يحدث، لولا تدخّل الاشمئزاز الأخلاقيّ.

قالتْ «قد أحبّ الطفل»

قلتُ «ربما. هذا يحدث أحياناً»

قالت هيلين، وهي تنهض برصانة لكي تُحيي زوجها، «ولكن، قد أكره طفلي. أحياناً أتخيّل أنَّ هذا قد يحدث أيضاً»

بعد أنْ غادرا – كأي زوجين جديدين في الطريق، تُحيط بهما الابتسامات والتمنيات بالسعادة – ارتديتُ ثوب السباحة وقطعتُ مسافة الطريق البالغة ميلاً بين مكان إقامتنا والبركة. لا أحمل أيّة أفكار أو مشاعر، أشعر بالخَدَر، كشخصٍ على حافة وقوع حادث مُروِّع أو انفجار، لمح بركةً صغيرة، مُروّعة،

من الدماء، ومن ثم تابعَ طريقه، من دون أنْ يناله أذى، ومارس نشاطاته الاعتياديّة اليوميّة.

كان بعض الأطفال الصِغار يلهون بمجارف ودلاء عند حافة البركة تحت إشراف كلب كلير وإحدى مُساعدات الأم التي ترفع بصرها وتقول «مرحباً». الفتاة تقرأ، من دون الكتب كلها، رواية «*جين إير*». كان رداء كلير على الصخرة التي كنا نضع عليها أغراضنا، ثم لمحتُ كلير، تتشمّس على الطوف.

عندما اقتربتُ منها رأيتُ أنها تبكي.

قالت «آسفة لأنني تصرّفت هكذا»

«لا تأسفي، لا تأسفي. لقد تم التخلّص منا نحن الاثنين. لا أُصدِّق أنَّ مثل هذه الأشياء يمكن أنْ تنجح نجاحاً كاملاً»

وطفقتْ تبكي من جديد، بأقلّ قدرٍ من الضجيج. وكانت أول دموع أراها تذرفها.

«ما الأمر، يا حلوتي، ما الأمر؟»

«أشعر بأنني محظوظة جداً، بأنني مُتميِّزة جداً. أنا أحبّك. لقد أصبحتَ حياتي كلّها»

«حقاً؟»

دفعها هذا إلى الضحك. «لقد أفزعكَ قليلاً سماع هذا. أعتقد هذا. لم أكنْ أعلمُ أنّه صحيح، إلّا في هذا اليوم. لكنني لم أكنْ مرَّة سعيدة هكذا»

«كلاريسا، لِمَ ما زلتِ مُضطربة هكذا؟ لا مُبرِّر لهذا، أليس كذلك؟»

أدارت وجهها نحو الطوف، وتمتمت بشيءٍ عن أمّها وأبيها.

«لا أسمعك، يا كلير»

«أريد منهما أنْ يقوما بزيارتي»

فوجئتُ، لكنني قلت «ادْعيهما إذن»

«فعلتُ»

«متى حدث ذلك؟»

«لا يهمّ. كل ما في الأمر أنني فكّرتُ – في الواقع، أنا لم أُفكِّر»

«كتبتِ لهما؟ عبّري عن نفسك، أرجوك. أريد أنْ أعرف ما الخطب»

«لا أريد أنْ أخوض في الأمر. إنّه شيء أحمق وحالم. لقد تشوّشتُ قليلاً»

«اتّصلتِ بهما هاتفيّاً»

«نعم»

«متى؟»

«من قبل»

«تعنين بعد أنْ غادرتِ المنزل؟ قبل أنْ تأتي إلى هنا؟»

«في البلدة، نعم»

«ثم؟»

«ما كان ينبغي أنْ أتّصل بهما هاتفيّاً من دون إنذار. أنا لا أفعل ذلك أبداً. هذه الطريقة لا تنفع ولن تنفع أبداً. ولكن في الليل ونحن نتناول وجبة العشاء، ونشعر برضا ويكون كل شيء رائقاً وجميلاً، أبدأ دائماً بالتفكير فيهما. أدير تسجيلاً موسيقيّاً، وأبدأ بإعداد العشاء، وإذا بهما يمْثُلان أمامي»

لم أكنْ أعلم ذلك. فهي لم تتكلَّم قط عما ليس لديها، ولم تتوقف لحظة واحدة عند الخسارة، وسوء الحظ أو خيبة الأمل. عليك أنْ تقوم بتعذيبها لكي تدفعها إلى الشكوى. إنها أشد مَنْ عرفت من الناس العاديين غرابة.

قالت، وهي تتخذ وضعيّة الجلوس، «أوه، أوه، هذا اليوم سوف يُصبح جيداً عندما ينتهي. ألديك فكرة متى سيحدث ذلك؟»

«كلير، هل تريدين أنْ تبقي معي هنا في الخارج، أم تريدين أنْ تنفردي بنفسك، أم تريدين أنْ تسبحي، أم تريدين أنْ تأتي إلى المنزل نشرب الشاي المُثلَّج ونأخذ قسطاً من الراحة؟»

«هل غادرا؟»

«أوه، غادرا»

«وأنت على ما يُرام؟»

«أنا سليم. أصبحتُ أكبر سنّاً بمقدار ساعة من الزمن أو نحوها، لكنني سليم»

«وكيف ذلك؟»

«ليس بالأمر الممتع كثيراً. أعلم أنَّه ليس في وسع المرء أنْ يتعوّد عليها، لكنَّ المرأة في وضعٍ سيئ... اسمعي، لسنا مُضطرين إلى التحدث عن الأمر البتّة. هل تريدين أنْ تذهبي إلى المنزل؟»

قالت كلير «ليس الآن». وغاصتْ في المياه انطلاقاً من حافة لوح الخشب، بجوار السلَّم. وبقيَتْ غائبةً عن الأنظار حتى العدّ إلى العشرة، ثم ظهرت على السطح بجوار السلَّم. وعندما عادت إلى الجلوس بجواري، قالت، «ثمة موضوع واحد الآن يجب أنْ نتحدث بشأنه. ثمة شيء واحد يجب أنْ أبوح به. لقد كنتُ حاملاً. لم يكن في نيّتي أنْ أخبرك، لكنني سأفعل»

«حامل ممَّن؟ ومتى حدثَ ذلك؟»

ابتسامة باهتة. «في أوروبا، يا حبيبي. منك أنت. وتأكّدتُ عندما رجعنا إلى أرض الوطن. وأجريتُ عمليّة إجهاض. وتلك الاجتماعات التي حضرتُها - في الواقع، لقد لجأتُ إلى المستشفى مدة يوم»

«وماذا عن «العدوى»؟»

«لم أُصَبْ بأيّة عدوى»

كانت هيلين حبلى بشهرين، وأنا الشخص الوحيد الذي يعرف ذلك. وكانت كلير حبلى، مني، ولم أعلم بالأمر. أشعر بحزنٍ عميق حقيقيّ يكمن في أساس مشاعر الثقة بالنفس وفي أسرار هذا اليوم، لكني من فرط الضعف حياله الآن بحيث لا أتوصل إلى سبرها. في الواقع، إنني مُرهَق أكثر مما كنتُ أظنّ بسبب كل ما اكتنف زيارة هيلين، وأنا على استعداد لأعتقد أنَّ سبب حزني شيءٌ يكمن داخلي، يكمن في فشلي الدائم في أنْ أصبح كما يريد الناس أو يتوقّعون مني، وفي أنني لم أُرضِ أحداً، مَنْ فيهم نفسي؛ ويكمن في عجزي، على الرغم من محاولاتي الحثيثة، عن أنْ أُنجزَ شيئاً لنفسي، وربما لن أستطيع أبداً... سألتُها «لِمَ فعلتِ ذلك وحدك؟ لِمَ لم تُخبريني؟»

«في الواقع، لقد وقع الأمر في اللحظة التي كنتَ فيها تتصرّف على هواك، ورأيتُ أنَّ هذا يجب أنْ يحدث من تلقاء ذاته. لقد كنتَ تستسلم لشيءٍ ما، وكان ينبغي دائماً أنْ يبدو ذلك الشيء واضحاً بدقّة لكلينا. هل *هذا* واضح؟»

«لكنكِ أردتِه»

«تقصد الإجهاض؟»

«كلا، الطفل»

«طبعاً أردتُ إنجاب طفل. أردتُ أنْ أُنجب منك - لا أتصوّر نفسي أحمل طفل أي شخص آخر. ولكن ليس قبل أن تُصبح مُستعداً لمنحي إياه»

«ومتى فعلتِ ذلك كلّه، يا كلير؟ كيف *لم* أعرف بالأمر؟»

قالت «أوه، لقد تدبّرتُه. المهمّ في الأمر يا ديفيد هو أنني لم أرد لكَ أنْ ترغب في إنجابه إلّا بعد أنْ تتيقّن من أنكَ ترضى بي وبأساليبي وبحياتي. لا أريد التعاسة لأي شخص. لا أريد أنْ أسبّب الألم لأحد. لا أريد أنْ أكون بمنزلة السجن لأي شخص. هذا أسوأ مصير يمكنني تخيّله. أرجوك، دعني فقط أقول ما ينبغي أنْ أقول - لستَ مُضطراً إلى أنْ تعلّق بأي شيء حول ما كان يمكن أن تقول أو لا تقول لو أنني أخبرتكَ بما أفعل. لم أرغب في أنْ أُحمّلكَ أيّاً من المسؤوليات؛ وهي ليست مسؤولياتك، ولا يمكن أنْ تكون كذلك. وإذا ارتُكِبَ خطأ ما، فأنا التي ارتكبته. أما الآن فأريد فقط أنْ أُفضي إليك بأشياء معيَّنة، وأريد منك أنْ تسمعها، وبعد ذلك سوف نذهب إلى المنزل وأُعدّ وجبة العشاء»

«كلّي آذان صاغية»

«حبيبي، أنا لم أكن أغار منها؛ هذا مستحيل. أنا مُكتفية بذاتي، وأنا شابة، وشكراً لله، لستُ «صلبة» أو «خبيرة في الحياة»، إنْ كانت هذه هي العبارة الصحيحة. لم أكنْ حقاً خائفة من أي شيء يمكن أنْ تفعله. ولو كنتُ مُرتابة إلى تلك الدرجة لما عشتُ هنا. لقد اضطربتُ قليلاً فعلاً عندما أردتَ أنْ تزيحني عن الطريق، لكنني رجعتُ إلى المنزل فقط لكي أُحضِر آلة التصوير خاصتي. كنتُ أنوي أنْ التقط بعض الصور لهما معاً. باختصار، رأيتُ أنَّها طريقة جيّدة لإتمام تلك الزيارة. ولكن عندما شاهدتك جالساً وحدك معها، قلتُ فجأة في نفسي، «لا أستطيع أنْ أُسعده، ولن أتمكّن من ذلك». فجأة تساءلتُ إنْ كان هناك مَنْ يستطيع. وهذا أذهلني، وكان ينبغي أنْ أذهب. لا أعلم إنْ كان ما فكّرت فيه صحيحاً أم لا. ربما أنتَ أيضاً لا تعلم. ولكن ربما تعلم. إنَّ تركَكَ الآن سوف يُسبب لي الألم، لكنني مُستعدة لأفعلَ هذا، إن

كان له مغزى. والأفضل أنْ يحدث هذا الآن وليس بعد ثلاثة أيام أو أربعة، عندما تُصبح مُصاحِباً لكل نَفَس من أنفاسي. ليس هذا ما أريد، يا ديفيد؛ ليس شيئاً أقترحه ولو من بعيد. إنَّك بقولك مثل ذلك النوع من الأشياء إنما تُجازف بشكلٍ رهيب بأنْ يُساء فهمكَ، وأرجوك، أرجوك، لا تُسئ فهمي. أنا لا أفترض أيّ شيء. ولكن إنْ كنتَ حقاً تعتقد أنكَ تعرف الجواب عن سؤالي، فأودّ أنْ أسمع شيئاً في الحال، لأنّه إذا لم تستطع أنْ تكون سعيداً معي، فدعني أرحل إلى فاينْيارد. أنا أعلم أنَّ في استطاعتي أنْ أتدبّر أموري هناك مع أوليفيا إلى أنْ تفتح المدارس أبوابها. وبعد ذلك أستطيع أنْ أعيش وحدي. ولكن لا أريد أنْ أكرِّس نفسي أكثر من هذا لشيء لن يتطوَّر ليُصبح عائلة ذات يوم. إنني لم أحظَ بعائلة بمعنى الكلمة، وأريد واحدة تكون هكذا. يجب أنْ أحصل عليها. أنا لا أعني غداً، أو حتى بعد غد، بل في الوقت الذي أريد. وإلّا، فسوف أقوم الآن في الحال بانتزاع الجذور، قبل أنْ يتطلَّب العمل منشاراً للحديد. أريد لنا نحن الاثنين أنْ نهرب، إنْ استطعنا، من دون سفك دماء»

هنا، على الرغم من أنّ الشمس تحرق جسمها، فإنّها ترتعش من رأسها وحتى قدميها. «أعتقد أنَّ ما تبقّى لديّ من طاقة لا يسمح لي بقول المزيد. ولستَ في حاجة إلى قول أيّة كلمة. وأتمنّى ألّا تقول، ليس الآن. وإلّا، فسوف يبدو هذا كإنذار، وهو ليس كذلك. بل هو توضيح، لا أكثر. لا أريد حتى أنْ أقوم به، لقد رأيتُ أنَّ *الزمن* كفيل بذلك. لكنّ الزمن نفسه يمكن أنْ يُهلكني. ولكن، أرجوك، لا تتطلَّب الإجابة إصدار أصوات مُطمئنة. كل ما في الأمر أنّه فجأة بدا أنَّ كل شيء يمكن أنْ يكون مجرد وهم رهيب. كان شيئاً مُخيفاً. أرجوك، لا تتكلَّم - إلّا إذا كنتَ تعرفُ شيئاً يجب أنْ أعرفه»

«كلا، لا شيء هناك»

«إذن فلنذهب إلى المنزل»

***

وأخيراً، زيارة والدي.

في الرسالة التي يشكرنا والدي باستفاضة على دعوته لقضاء عطلة عيد

العمّال التي نُقِلَتْ إليه عبر الهاتف، سألَ إنْ كان في وسعه أنْ يصطحب معه صديقاً، أرمل آخر نشأتْ بينهما صِلة حميمة خلال الأشهر الأخيرة وقال إنّه يريد مني على وجه الخصوص أنْ أقابله. لابد أنّه الآن تخلَّصَ أو استنفد الأوراق والأغلفة التي تحمل اسم الفندق، لأنَّ الطلب كان مكتوباً على الجهة الخلفيّة من القرطاسيّة التي طُبِعَت في أعلاها الكلمات، «**الفيدراليّة اليهوديّة لمُقاطعة ناساو**». وفي الأسفل طُبِعت رسالة، بخطّ بارز، ومُقتضَب، موجّهة إلى اليهود يمكنني بسهولة أنْ أميز أسلوبها كما أميِّز أسلوب هيمنغواي أو فوكنر.

عزيزي

أُضمّن هذه الرسالة بطاقة التعهّد الصادرة من **الفيدراليّة اليهوديّة لمقاطعة ناساو**. وبوصفي يهوديّاً فإنني أقدِّم مُناشدة شخصيّة. لا حاجة إلى سرد التزامنا بتأمين وطن قومي لليهود. نحن في حاجة إلى المساعدة الماليّة من كل يهوديّ.

لا ينبغي أنْ نسمح بحدوث محرقة أخرى! لا يمكن لأيّ يهوديّ أنْ يكون لا مبالياً! إنني أناشدك وأرجوك أنْ تساعدنا. ***امنح قبل أنْ يبدأ الألم***.

المُخلِص

آبيه كيبيش

رئيس الإدارة المُساعد

لمساكن حديقة غارفيلد

على الجانب المقابل هناك رسالته الموجّهة إلى كلير وإليّ، كُتِبَتْ بقلم حبر ناشف وبأحرف خربشته الكبيرة، على الرغم من أنها ليستْ أقلّ وضوحاً في هدفها من الرسالة المطبوعة التي تدعو إلى التضامن اليهوديّ (بذلك الخط الطفوليّ المُبهم، الأكثر وضوحاً) للولاءات المتحمّسة بتعصّب التي تُسبِّب له، الآن وهو في سن الشيخوخة، وطوال ساعات النهار، صداعاً ثقيلاً وألماً حادّاً ناتجاً عن الوقوع في فخِ عاطفةٍ جامحة.

في صباح اليوم الذي تلقّينا رسالته اتّصلتُ به هاتفياً من مكتب العم لاري لكي أُخبره بأنّه إذا لم يكن لديه مانع في أنْ يأتي ويتقاسم غرفة ضيوفنا الصغيرة مع صديقه السيد بارباتنيك، فإننا طبعاً نُرحّب بأنْ يُحضره معه.

شرح قائلاً، «إنني أكره بشدّة أنْ أتركه وحده في فترة العطلة، يا ديفي، هذا كل ما في الأمر. وفيما عدا ذلك لا مانع لديّ. في الواقع، أنا لم أُفكر عميقاً عندما اندفعتُ ووافقتُ بسرعة هكذا. المشكلة الوحيدة هي أنَّ كلير سوف تنزعج إذا حضر. ولا أريد أنْ أزيد العبء على كاهلها، خاصّة مع بداية الدوام المدرسيّ، ومع الكثير من العمل الذي عليها أنْ تنجز استعداداً لذلك»

«أوه، إنها مُستعدّة، فلا تقلق بشأنها»، وسلَّمت جهاز الهاتف لكلير، التي طمأنته بأنَّ استعداداتها من أجل المدرسة تمّتْ منذ زمن طويل وأنّه يُسعدها أنْ تعتني بهما معاً في أثناء عطلة نهاية الأسبوع.

أسرع والدي إلى طمأنتها، كأنَّ لدينا سبباً وجيهاً للارتياب في أنّه قد يتبيَّن أنَّ صديقه سكّير وسوقيّ، «إنه رجل رائع، رائع، ومرَّ بظروفٍ لن تُصدّقيها. إنه يعمل معي عندما أذهب لكي أجمع التبرّعات من أجل اتحاد الرابطة اليهوديّة. وأؤكّد لك أنني في حاجة إليه. أحتاج إلى قنبلة يدويّة.. حاولي أنْ تجمعي المال من الناس. حاولي أنْ تثيري مشاعرهم وسوف ترين إلى أين سينتهي بك الأمر. أخبريهم بأنّ ما حدث لليهود ينبغي ألّا يتكرَّر، وسوف ينظرون إليك كأنّهم لم يسمعوا بذلك. وكأنني أختلق هتلر والمذابح لكي أسلبهم سنداتهم البلديّة. وهناك رجل في المبنى الكائن على الجانب المُقابل من الطريق، كان قد ترمّلَ حديثاً ويكبرني بثلاثة أعوام، وكان قد حقَّقَ خلال بضعة أعوام مكانة لنفسه في مجال المشروبات الروحيّة المُهرّبة ويعلم الله ماذا أيضاً، ويجب أنْ تعرفي ماذا حدث له بعد أنْ توفيت زوجته - كان في كل شهر يصاحب عاهرة مختلفة. يُغدق عليهن الأثواب الغالية، ويأخذهن لمشاهدة عروض برودواي المسرحيّة، ولم يكن يصحبهنَّ إلى صالونات التجميل بأقلّ من سيارة فليتْوود كادي، ولكن حاولي أنْ تطلبي منه مائة دولار من أجل اتّحاد الرابطة اليهوديّة وسوف يقول لك والدموع تنهمر من عينيه بالمعنى الحرفي كيف مُنيَ بالخسارة في السوق. ومن مصلحتي أنني أضبط أعصابي. وبيني وبينك، غالباً ما أعجز عن فعل ذلك، ويتّصل السيد

بارباتنيك قبل أنْ أعبّر لابنِ الحرام ذاك عن رأيي فيه. أوه، يا لذاك الرجل، كم يزعجني. كلما غادرته أُضطر إلى الذهاب إلى بنت حماي لكي تُعطيني أقراصاً مُهدِّئة. وأنا شخص لا أؤمن حتى بتناول قرص أسبرين»

قالت كلير «سيد كيبيش، أرجوك لا تتردَّد في إحضار السيد بارباتنيك معك»

لكنّه لن يوافق إلّا إذا انتزع وعداً منها بأنهما إذا حضرا معاً فلن تعتقد أنَّ عليها أنْ تعدّ ثلاث وجبات في اليوم من أجلهما. «أريد ضماناً بأنكِ سوف تتظاهرين بأننا غير موجودَين هناك»

«ولكن أين المتعة في هذا؟ لنفرض أنني بدل ذلك لجأتُ إلى الحلّ السهل وتظاهرتُ بأنكما موجودان»

قال لها «هيه، اسمعي، تبدين فتاة سعيدة»

«أنا كذلك. إنَّ كأسي طافحة»

على الرغم من أنَّ كلير كانت تضع سماعة الهاتف على أُذنها على الجانب المقابل لي من طاولة المطبخ، فإني سمعتُ بوضوح ما تلا ذلك. وذلك لأنَّ والدي كان يتعامل مع المكالمات الخارجيّة كما يتعامل مع العديد من الألغاز التي يعصى عليه فهمها – أي بالاعتقاد أنَّ أمواج الكهرباء التي تنقل صوته قد لا تنجح في ذلك من دون دعمه الكامل وغير المحدود. من دون *كلّ*.

هتف لها «بوركتِ من أجل ما تفعلين لابني!»

احمرّت خجلاً من تحت بشرتها التي لوّحتها أشعة الشمس. «في الواقع – في الواقع، إنّه يُنفّذ أعمالاً جميلة من أجلي»

قال والدي «لا أشكّ في هذا. يُبهجني سماعه. ولكن مع ذلك خرج عن مسار طريقه الصحيح وجلب المشاكل إلى حياته. أخبريني، هل يُدرك كم كانت علاقته بك جيدة؟ إنّه في الرابعة والثلاثين من العمر، أصبح رجلاً بالغاً، ولم يعُد يستطيع أنْ يبقى غافلاً عمّا يجري. كلير، هل أصبح الآن يُدرك بالقدر الكافي كيف يُقدِّر ما بين يديه؟»

حاولتْ أنْ تتهرَّب من السؤال بالضحك، لكنّه أصرَّ على تلقّي جواب، حتى وإنْ كان عليه في نهاية المطاف أنْ يُجيب بنفسه عليه. «لا أحد يحتاج إلى تشوّشك – إنَّ الحياة مُربِكة بما يكفي، والمرء لا يطعن نفسه بخنجر، ولكن هذا بالضبط ما فعله لنفسه بزواجه من تلك الفتاة البرّاقة، التي ترتدي ملابس على غرار سوزي وونغ[1]. أوه، كلما قلَّ الكلام عنها وعن تلك الملابس التي ترتديها كان ذلك أفضل. وتلك العطور الفرنسيّة. اعذريني على سوء لغتي، لكنّ رائحتها كانت تُشبه رائحة دكّان حلّاق. وماذا كان يعني بإقامته في تلك الشقّة المُستأجَرَة من الباطن ذات الجدران الحمراء المصنوعة من القِماش، ومن كل ما يليق بالمكان من أشياء لا يمكن أنْ أفهمها أبداً. بل إنني لا أريد حتى أنْ أفكِّر في الأمر. عزيزتي كلير، أصغي إليّ، لقد أصبحتِ أخيراً شخصيّة ذات أهميّة. ليتكِ فقط تستطيعين أنْ تقنعيه بالاستقرار في حياة حقيقيّة»

قالت، من دون أنْ تتأثر بالانفعالات التي تتدفّق عليها، «أوه، يا الله، إذا استقرّ الوضع أكثر في هذا المكان...»

قبل أنْ تتمكن، وهي في سن الخامسة والعشرين، من معرفة كيف تُنهي تلك الجُملة، هدر والدي قائلاً، «رائع، رائع، هذا أروع خبر عنه منذ أنْ ترك تلك المجموعة لكي يُصبح غجريّاً في أوروبا ثم يعود إلى ذلك القارب سليماً!»

في بقعة الأرض الخالية التي خلف المخزن العمومي في البلدة، هبط بشكلٍ اعتياديّ الدرج الأمامي العالي من حافلة نيويورك، ولكن، على الرغم من الحرّ اللاذع – على الرغم من سنّه المتقدّمة – اندفع إلى الأمام، ليس في اتّجاهي، بل على أجنحة الحافز، نحو شخصٍ لم يكن يعرفه جيداً بعد. كانت في بعض الأمسيات تُقدِّم له وجبة في شقّتي الجديدة، ومن ثم عندما ألقيتُ محاضرتي العامة من قصّة «*المتقوقع*» في «سلسلة الطالب» في الجامعة، رافقته كلير مع عمّتي وعمّي إلى المكتبة وجلسوا إلى جواره

1- سوزي وونغ: شخصيّة سينمائيّة لعاهرة من هونغ كونغ تقع في غرام رجل أعمال أميركي في فيلم «**عالم سوزي وونغ**» – المترجم

في قاعة المحاضرات الصغيرة هناك، وميّز، نزولاً عند طلب منه، بين رئيس القسم وبين العميد. ومع ذلك، الآن عندما همَّ بمعانقتها، شعر كأنّها حبلى منذ الآن بحفيده الأول، على الرغم من أنّها في الحقيقة أمّ كل ما هو مُحترَم في تلك العصبة المُختارة من المخلوقات التي انضمَّ إليها بالدم وكان إعجابه بها ضافياً... أي، إذا حصل وعندما يحصل، ولم تعمل العضويّة على إبراز أنيابها بلا حياء وإشهار مخالبها وجعل والدي مؤهلاً لشدّ وثاقه.

عندما رأى دازل هذا الشخص الغريب يسيطر على كلير، بدأ يقفز بجنون في المكان وسط الغبار حول قدميّ سيدته – وعلى الرغم من أنَّ والدي لم يكُنْ يكِنّ الكثير من الثقة، أو يجد الكثير مما يستحق الإعجاب به، في أفراد مملكة الحيوان الذين يُنجبون خارج رباط الزواج ويتغوّطون على الأرض، فوجئت إذ رأيتُ أنَّ إظهار دازل لسلوكه بلا حياء لا يبدو بأي حال أنّه يُشتِّت انتباهه عن الفتاة التي يضمّها بين ذراعيه.

في أول الأمر لم أكن مُضطراً إلى التساؤل إنْ كان ما نشاهده ليس المقصود منه جزئيّاً على الأقلّ طمأنة السيد بارباتنيك بشأن القيام بزيارة زوجٍ من البشر ليسا متزوجَين شرعيّاً – إنْ كان والدي ربما ينوي، بالقوة التي ضمَّ بها جسدها إليه، أنْ يضيف هواجسه غير المُفاجئة بالكامل إلى ذلك السبب لكي يرتاح. ولا أتذكَّر أنني رأيته قوياً وحيويّاً هكذا منذ الفترة التي سبقَتْ مرض والدتي. في الحقيقة، لقد فاجأني في هذا اليوم بأنّ به مسّاً من الجنون. ولكنْ مع ذلك هذا أفضل مما توقّعتُ. في المعتاد، عندما أتّصل كل أسبوع هاتفيّاً أجد في كل شيء مُبهِج يقوله لمسة كآبة واضحة حتى إنني أتساءل كيف يجد الوسيلة للاستمرار، كما يفعل، في الاعتقاد بأنَّ كل شيء على ما يُرام، ورائع، ولا يمكن أنْ يكون أفضل. والعبارة الرصينة «نعم، ألو؟» التي يُجيب بها على الهاتف تكفي تماماً لتنبئني بما يكمن تحت أيامه «الحيويّة» – في أوقات الصباح يُساعد عمي في مكتبه الذي لا يحتاج فيه إلى أيّة مُساعدة؛ وفي أوقات بعد الظهيرة في المركز اليهوديّ يُناقش الشؤون السياسيّة مع «الفاشيين» في غرفة البخار، رجال يُشير إليهم بأسماء فون إبستاين، وفون هابرمان، وفون ليبشيتز – من الواضح أنهم أهل المدينة غورينغ، وغوبلز، شترايشر، الذين تسبّبوا له بالإصابة بخفقان القلب؛ ومن

ثم في تلك الأمسيات المُملّة التي يقضيها في الاستجداء على أبواب الجيران من أجل الأعمال الخيريّة والقضايا، والقراءة من جديد عمود صحفيّ بعد آخر في صحيفتيّ «*نيوزداي*» والـ «*بوست*»، والـ «*تايمز*»، ومشاهدة أخبار محطة CBS للمرّة الثانية خلال أربع ساعات، وختاماً، يأوي إلى السرير ولا يستطيع النوم، فيقوم بإخراج الرسائل من علبة الكرتون وتوزيعها على غطاء السرير ومراجعة مراسلاته مع ضيوفه الأعزاء، المُختفين. في بعض الأحيان يبدون لي، خاصّة بعد أنْ اختفوا، أنهم أعزاء أكثر مما كانوا وهم حاضرون ولم يتبقَّ الكثير من الشعير في الحساء، ولا الكثير من الكلور في البركة، ولا ما يكفي من النُدُل في غرفة الجلوس.

كتابته للرسائل. مع مرور كل شهر كان يُصبح صعباً عليه أكثر اللحاق بمن تقاعد ولجأ إلى فلوريدا من بين مئات ومئات من ذوي الخِبرة، وظلوا بهذا قادرين على كتابة رسائل جوابيّة له، والذين ماتوا. والأمر لا صِلة له أيضاً بفقدانه مَلَكاته - بل بفقدانه كل أولئك الأصدقاء «بلا توقّف»، بينما هو يصِفُ برسمٍ بيانيّ الانخفاض التدريجيّ الذي ظهر في عدد زبائنه السابقين خلال العامِ الأخير فقط. «لقد كتبتُ سبع صفحات كاملة من الأخبار لذلك الرجل العزيز الشبيه بالأمير، يوليوس لوينتال. بل إنني أضفتُ قصاصة كنتُ أحتفظ بها واقتطعتها من صحيفة «*تايمز*» تدور حول تلويث النهر في باترسون حيث مارس المُحاماة. تصوّرتُ أنّ ذلك سوف يثيرُ اهتمامه هناك - إنَّ مسألة التلوّث تتطلَّب مثل هذا النوع من الرجال. ورفع إصبعه وقال «أؤكّد لك أنَّ يوليوس لورنتال هو أحد أصحاب أشد العقول تحضّراً الذين يمكن أنْ تقابلهم في حياتك. الكنيس، اليتامى، الألعاب الرياضيّة، المُعاقون، المُلوّنون - كان يُخصص جزءاً من وقته لكل شيء. ذلك الرجل كان الأصيل، *الأفضل*. حسن، أنت تعلم ماذا سيلي. وضعتُ الطابع على المُغلّف وختمته ووضعته بجوار قبّعتي لكي أحمله إلى مركز البريد في الصباح، ولم أُدرك، إلّا بعد أنْ نظّفتُ أسناني بالفرشاة وأويتُ إلى السرير وأطفأتُ الأنوار، أنَّ صديقي الحميم والعزيز قد رحل منذ الخريف الفائت. كنتُ أتذكّره وهو يلعب الورق بجوار بركة السباحة في ميامي - يلعب البينوكل، بطريقةٍ خاصّة به وبعقليته هو - وفي الواقع هو مخلوق سرّيّ.

بل ما الذي تبقّى منه الآن؟». هذه الفكرة الأخيرة ثقيلة الوطأة، حتى عليه، بل خاصة عليه، وهو يُحرِّك يديه بغضب ويُمرّرها من أمام وجهه، كأنّه يُبعِد ما يُشبه بعوضة تدفعه نحو الجنون، هذه هي الصورة الرهيبة، المُذهلة ليوليوس وينتال وهو يتحلَّل. قال، مُستعيداً معظم توازنه، «على الرغم من هذا قد يبدو شيئاً لا يُصدَّق بالنسبة إلى شابّ صغير، إلّا أنَّ هذا في الواقع أصبح يحدث أسبوعيّاً، حتى لعقُ المُغلَّف ولصقُ الطابع البريديّ»

سوف تمرّ ساعات طويلة قبل أنْ ننفرد أنا وكلير معاً، وتصبح أخيراً قادرة على التخلُّص من القرار المُبهَم الذي أسرَّ به في أُذنها ونحن الأربعة واقفون معاً إثر مُغادرة الحافلة واختفائها. الشمس ترقّقنا كطريقٍ مُمهّدة؛ استمرَّ دازل المُضطرب المسكين (الذي بالكاد تعوَّدَ على هذا المُنافِس) في التحرّك حول قدمَي والدي؛ والسيد بارباتنيك - السيد القصير كجنّي خرافيّ، صاحب الوجه الآسيويّ الكبير الطويل الأُذنين، واليدين المُدهشتين الشبيهتين بمغرفتين متدلّيتين من ساعدَين قويين تبرز منهما شرايين رجل يبني عضلاته - السيد بارباتنيك يتخلَّف مُتردداً، كتلميذة مدرسة حييّة، وسترته مطويّة بأناقة إلى أعلى ذراعه، في انتظار هذا المُحبّ الخفّاق، الحيّ، والدي، لكنَّ والدي لديه حاجة مُلحّة للاستقرار أولاً - كالرسول في مسرحيّة مأساويّة كلاسيكيّة، حالما يصل إلى خشبة المسرح يندفع مُفضياً بما قطع كل تلك المسافة الطويلة ليُفضي به. وهمس لكلير «أيّتها الشابّة»، لأنَّ هكذا سيبدو أنّه يتصوّرها، مجازاً، هكذا وفقط هكذا. ويأمرها والدي بفعل رداء القوة الذي كان يتلبّسه في أحلام يقظته، «أيّتها الشابة»، لا تتركيني -لا تتركيني- أرجوك!»

تقول لي ونحن في السرير، إنَّ تلك كانت الكلمات الوحيدة التي استطاعت سماعها، وهي مُثبّتة إلى صدره الضخم؛ قلت، في الغالب لأنها الكلمات الوحيدة التي نطقها. وعند تلك النقطة، كانت، بالنسبة إليه، تبوح بكل شيء.

بعد أنْ حدَّد المُستقبل هكذا، ولو فقط في تلك اللحظة، أصبحَ مُستعداً حينئذٍ للانتقال إلى الحدث التالي في مراسم الوصول الذي لابد أنّه كان يُخطِّط له منذ أسابيع عديدة. ومدَّ يده داخل جيب سترته الكتّان الصغيرة

المتهدّلة عبر ذراعه هو - وبدا واضحاً أنّه لم يعثُر على شيء. وفجأة أخذ يصفع بطانة السترة كأنّه يعمل على إنعاشها من إغماء. وناح «أوه يا إلهي، لقد ضاع. يا إلهي، إنّه في الحافلة!» وعلى الأثر شقَّ السيد بارباتنيك طريقه متقدّماً وقال بصوت ناعم، سرّاً كما يهمس الاشبين للعريس شبه المذهول، «فتّش في البنطلون، يا آبيه». ردّ والدي بنزَق، «طبعاً»، ومدّ يده (وما زال في عينيه قليل من اليأس) داخل جيب بنطلونه المتهرِّئ - كان يرتدي، كما يُقال، أفضل ما لديه - وأخرجَ منه علبة صغيرة وضعها على راحة يد كلير. وهنا أشرقَ وجهه.

قال لها «لم أخبركِ عبر الهاتف، لكي تكون مُفاجأة كاملة. بعد مرور كل عام من احتفاظك به أضمن لكِ أنَّ قيمته سوف تزيد بمقدار عشرة بالمئة على الأقلّ. وربما خمسة عشر وربما أكثر. إنّه أفضل من المال. وانتظري ريثما ترين البراعة الفائقة التي نُفِّذَ به. هيا. افتحيها»

وهكذا، بينما كنا ما نزال في موقف السيارات كانت زوجتي العذبة، التي تعرف كيف تُرضي، وتُحبّ أنْ تُرضي غيرها، تحلّ برشاقة الشريط وتُزيل ورقة التغليف الصفراء اللامعة، ولم يفُتها أنْ تنوّه بجمالها. قال لها والدي «انتقيتُ بنفسي. رأيتُ أن الألوان سوف تعمّ الممشى عندك - أليس كذلك، يا سول» - قال هذا مُلتفتاً نحو رفيقه، «ألم أقُل إنني أراهن على أنها تحبّ اللون الأصفر؟»

أخرجت كلير من العلبة المُبطّنة بالمخمل ثقّالة صغيرة من الفضّة الخالصة محفورة عليها باقة من الورد.

«لقد أخبرني ديفيد عن مدى صعوبة العمل في الحديقة التي نسّقتها، وعن حبّك لأنواع الأزهار كافّة. خُذيها، أرجوك. يمكنكِ أنْ تستعمليها على طاولة مكتبك في المدرسة. انتظري حتى يراها تلامذتك»

قالت، وهي تُهدِّئ من حماس دازل برميه فقط بنظرة سريعة، وتُقبِّل والدي على وجنته، «إنها جميلة»

قال «انظري إلى الصنعة اليدويّة. يمكنك أنْ تري حتى الأشواك الصغيرة. في الواقع أحد الأشخاص فعل ذلك، يدويّاً. إنّه فنان»

قالت «إنها جميلة. هديّة جميلة»

هنا فقط التفتَ وعانقني. قال «لقد أحضرتُ لكَ أيضاً شيئاً. إنه في حقيبتي»

قلت «أنتَ تأمل في أنْ تكون هناك»

«أنت ماكر»، وتبادلنا القُبل.

أخيراً أصبحَ مُستعداً للتعريف برفيقه، مرتدياً، كما أصبحت أدرك الآن، البذلة الجديدة الأنيقة، ذات الألوان المتناسقة نفسها، ما عدا في الأماكن التي لفحتها أشعة الشمس، أمّا السيد بارباتنيك فكان يرتدي بذلة باللونين الفضيّ والأزرق.

قال والدي، «شكراً لله على هذا الرجل»، ونحن نتوجه بالسيارة ببطء إلى خارج البلدة خلف شاحنة أحد المزارعين الصغيرة تحمل مُلصقات تبلِّغ السائقين الآخرين بأنَّ «**الحبّ وحده يتغلَّب على الحليب**». والمُلصَق الموضوع على سيارتنا، الذي ثبّتته كلير تعاطُفاً مع مُناصري البيئة المحليين، يقول «*الدروب الترابيّة أمر واقع*»

كما كان والدي في طفولته متحمّساً ومهذاراً - كما كنتُ *أنا* عندما يتولّى هو قيادة السيارة على مثل هذه الدروب - ها هو الآن لا يستطيع أنْ يكفّ عن الكلام عن السيد بارباتنيك، الفريد من نوعه، وأفضل مَنْ عرف في حياته... في تلك الأثناء، كان السيد بارباتنيك يجلس بهدوء إلى جواره، وينظر إلى حجره، متَّضِعاً، في اعتقادي، بفعلِ كاملِ حضورِ كلير المُشرِق، والمُبهِج، وبفعل ترويج والدي له كما كان يُروِّج، في الأيام الخوالي، للفوائد التي تُطيل العمر لقضاء فصل الصيف في الفندق الذي نديره.

«إنَّ السيد بارباتنيك هو الرجل الذي حدّثتكم عنه من أيام المركز. ولولاه، لأصبحتُ صوتاً في البريّة هناك وأنا أتكلَّم عن ابن الحرام ذاك المدعو جورج والاس[1]. أرجوك يا كلير، اعذريني، لكنني أكره ذلك الصرصار بقوة. لا ينبغي أنْ تُصغي إلى تلك الأشياء التي يعتبرها الذين

1- جورج والاس (1919-1998): حاكم سابق لولاية ألاباما. كان عنصرياً متعصّباً. - المترجم

يُسمّون بالمُهذّبين أفكارهم الخاصّة. هذا خزي. وحده السيد بارباتنيك وأنا نُشكّل فريقاً، والفضل في ذلك يعود إليهم، لكنّه أمر جيّد»

قال السيد بارباتنيك متفلسفاً، بلكنة إنكليزيّة ثقيلة، «وهذا لا يعني أنّ ذلك يُشكّلَ فرقاً»

«ثم، أخبرني، ما الذي يمكن أنْ يُشكِّل فرقاً مع أولئك المتعصبين الجهلة؟ على الأقل دعهم يُصغون إلى رأي شخص آخر فيهم! إنَّ اليهود مشحونون بالكراهيّة إلى درجة أنهم يخرجون ويُصوّتون لمصلحة جورج والاس – أنا لا أتحمّل هذا. لماذا؟ إنهم الذين عاشوا وشهدوا حياةً بأكملها بوصفهم أقلّيّة، والاقتراح الذي يُقدّمونه بكل جديّة هو أنَّ عليهم أنْ يجعلوا الملونين يقفون صفّاً واحداً أمام المدافع الرشّاشة ويُطلقون النار عليهم. خذ أناساً حقيقيين واحصدهم»

تدخّلَ السيد باربانتيك، «إنّ هذا القول لا يُعبِّر عن رأي الجميع؛ هذا فقط لسان حال شخص بعينه، طبعاً»

«إنني أقول لهم، انظروا إلى السيد باربانتيك – اسألوه إنْ لم يكن هذا هو الشيء نفسه الذي اقترفه هتلر بحقّ اليهود. هل تعلمون ماذا كان جوابهم، الرجال البالغون الذين أنشأوا عائلات وأداروا أعمالهم الناجحة ويعيشون الآن حياة التقاعد في ملكيّة مُشتركة كما يُفترَض بأناسٍ متحضّرين أنْ يفعلوا؟ قالوا، «كيف تُشبِّه الزنوج باليهود؟»»

«ما خطب ذلك الشخص بالذات، والجماعة التي يقودها–»

«وبالمناسبة، مَن الذي نصّبه قائداً؟ قائداً لأي شيء؟ هو نصَّبَ نفسه! تابع، يا سول، أنا آسف. أردتُ فقط أنْ أوضِّح لهم مع أيّ دكتاتور صغير نتعامل»

قال السيد باربانتيك «إنَّ خطبهم هو أنهم، أو بعضهم، يمتلكون منازل، وأعمالاً، ومن ثم جاء الملوّنون، وحاولوا أنْ يحصدوا ما زرعوا، فشلوا فشلاً ذريعاً»

«طبعاً عندما تتعامل مع الأمر تكتشف أنَّ كل شيء يتّصل بالاقتصاد. هو دائماً هكذا. ألم يحدث الشيء نفسه مع الألمان؟ ومع البولنديين؟» هنا قاطع تحليله التاريخيّ لكي يقول لكلير ولي، «إنَّ السيد بارباتنيك لم يأتِ إلى هنا

إلّا بعد الحرب»، ثم أضاف، بأسلوبٍ مسرحيّ، وبافتخار، «إنه ضحيّة من ضحايا النازيين»

عندما انعطفنا نحو الممشى وأشرتُ إلى المنزل ونحن في منتصف طريق ارتقائنا التلّ، قال السيد بارباتنيك، «لا عَجَبَ في أنكما تبدوان غاية في السعادة، أنتما الاثنين»

قال والدي «لقد استأجراه. أخبرته بشأنه، وأعجبه كثيراً، لِمَ لا يشتريه؟ اعرِض على الرجل عرضاً. أخبره بأنكَ سوف تدفع الثمن نقداً. على الأقلّ حاول أنْ ترى إنْ كان في استطاعتك أنْ تحصل على مبلغ صغير»

قلت «في الواقع، نحن قانعان بالاكتفاء بالاستئجار في الوقت الراهن»

«إنَّ الاستئجار هدرٌ للمال. هلّا تقصّيتَ عن الأمر منه؟ ما الضرر؟ النقود حاضرة، انظر إنْ كان سيأكل الطعم. يمكنني أنْ أساعدك، والعم لاري يستطيع أنْ يُساعدك، في هذا المجال. إنْ كان ما يسعى إليه هو المال. ولكن من دون أدنى شك ينبغي أنْ تكون لديك ملكيّة صغيرة في هذه المرحلة من حياتك. وهذا الموقع مناسِب جداً، أؤكّد لك. ولن تُخطئ. على أيامي، يا كلير، كان في استطاعتك أنْ تشتري مكاناً صغيراً كهذا مقابل مبلغ يقلّ عن خمسة آلاف. أمّا اليوم فذلك المنزل الصغير و – إلى أين تمتد مساحة الملكيّة؟ حتى خط الأشجار؟ حسن، فلنقُل أربع إكرات، أو خمس–»

استمرَّ في سرده كسمسار العقارات على امتداد الدرب الترابيّ وأثناء ولوجه من باب المطبخ – وخلال الحديقة اليانعة التي طالما سمع عنها – سعيداً بعودته إلى منزله في مقاطعة سليفان، مع الشخص الوحيد الذي يُحبّه، الذي يبدو أخيراً وحسب الظواهر كلّها أنّه انتُزِعَ من فرنه وزُرِعَ أمام الموقد.

داخل المنزل، وقبل أنْ نتمكّن حتى تقديم مشروب بارد لهما، أو أنْ ندلّهما إلى غرفتهما أو إلى المرحاض، بدأ والدي يحلّ حقيبته على طاولة المطبخ. وأعلنَ لي «هذه هي هديتك»

انتظرنا. أخرج حذاءه. ثم قمصانه المغسولة حديثاً. وأدوات حلاقته الجديدة واللامعة.

كانت هديتي عبارة عن ألبوم مُغلَّف بالجلد الأسود ويضم اثنتين وثلاثين

ميداليّة بحجم دولار فضّيّ، وُضِعَتْ كلٌ منها داخل تجويف مُستدير خاصّ بها يحميها من الجانبين بفُتحة من مادة شفافة. سمّاها «ميداليات شكسبير» - ورُسِمَ على وجهها أحد المشاهد من مسرحياته، وعلى الجانب الآخر، ثمة نقش مُنمنم، مُقتَطَف من تلك المسرحيّة. والميداليات مصحوبة بإرشادات حول كيفيّة وضعها داخل الألبوم. يبدأ الإرشاد الأول بـ «ارتد قفّازاً بلا بطانة...» ناولني والدي القفّاز في آخر الأمر. وأخبرني «دائماً ارتدِ القفّاز عندما تتناول الميداليات. إنها تأتي مع المجموعة. وإلّا، يُقال إنه قد تظهر تأثيرات كيميائيّة ضارّة على الميداليات تنقلها ملامسة البشرة الإنسانيّة»

قلت «أوه، هذا جميل منك، على الرغم من أنني لا أعلم السبب في إعطائي هذه الهديّة المُرهفة الآن-»

أجاب، مع ضحكة، وأيضاً، مع إيماء واسع شملَ أدوات المطبخ كلّها، «تسأل عن السبب؟ لأنَّ الوقت قد حان. انظر، يا ديفي، ماذا نُقِشَ من أجلك. كلير، انظري إلى الجهة الخارجيّة»

كان هناك في مركز تصميم أرابيسك نُقِشَ بالفضّة ويعمل عمل حافة غلاف الألبوم الجنائزيّ ثلاثة أبيات من الشِعر، لفتَ والدي أنظارنا إليها بالإشارة إليها، كلمة إثر كلمة، بسبابته. وقرأنا كلّنا الكلمات في صمت - كلنا ما عداه:

صُرِبَت الطبعة الأولى من التجربة الطباعيّة الفضيّة الخالصة

من أجل الاستخدام الشخصيّ للبروفسور ديفيد كيبيش.

لم أدرِ ماذا أقول. قلت «لابد أنَّ هذا كلَّفَ مبلغاً ضخماً. إنه إنجاز فريد حقاً»

«أليس كذلك؟ ولكن، كلا، التكلفة لا تهمّ، ليس بالطريقة التي أُنفِقَتْ بها. في أول الأمر تضع ميداليّة في كل شهر. بدءاً بمسرحيّة «*روميو وجولييت*» -انتظر ريثما أعرض على كلير «*روميو وجولييت*»- وقُمْ أنت باستعراضها بدءاً من هنا، إلى أنْ تشاهدها كلّها. كنتُ أدّخرها لأجلك طوال ذلك الوقت. الشخص الوحيد الذي كان يعلم بأمرها هو السيد بارباتنيك. انظري، كلير، تعالي إلى هنا، يجب أنْ تنظري عن كثب-»

استغرقَ تحديد مكان الميداليّة التي تمثّل مسرحيّة «*روميو وجولييت*» وقتاً طويلاً، لأنه في الشقّ المُخصَّص لها في الزاوية السفلى إلى اليسار من الصفحة حيثُ كُتِبَ «المسرحيات المأساويّة» يبدو أنّه وضعَ مسرحية «*سيّدان من فيرونا*». سأل «أين مسرحيّة «*روميو وجولييت*» بحقّ الجحيم؟ أخيراً نجحنا نحن الأربعة في اكتشاف مكانها تحت عنوان «المسرحيات التاريخيّة» في الشقّ المُعنون بـ «*حياة وموت الملك جون*». سألَ، «ولكن أينَ وضعتُ «*حياة وموت الملك جون*»؟»، ثم وجّه كلامه إلى السيد بارباتنيك، متجهّماً، «حسبتُ أنني وضعتُ كل شيء في مكانه الصحيح، يا سول. حسبتُ أننا تفقّدناها». أومأ بارباتنيك برأسه - لقد فعلا ذلك. قال والدي «على أي حال، المهم هو - ماذا كان الأمر الهامّ؟ أوه، الجهة *الخلفيّة*. هنا، أريد من كلير أنْ تقرأ ما كُتِبَ على الخلفيّة، لكي يتمكّن الجميع من سماعه. اقرئي هذا، يا عزيزتي»

قرأتْ كلير المكتوب بصوتٍ مرتفع: «... «ووردة تحمل أي اسمٍ آخر سوف تكون رائحتها ذكيّة أيضاً»، المشهد الثاني من الفصل الثاني من «*روميو وجولييت*»»

قال لها «أليس هذا قولاً رائعاً؟»

«نعم»

«ويمكنه أنْ يأخذها معه إلى المدرسة أيضاً. وهذا هو الأمر المُفيد. إنها ليست فقط للاحتفاظ بها في المنزل، بل يستطيع أنْ يحتفظ بها حتى بعد مرور عشر سنوات أو عشرين عاماً لكي يُريها لأبناء صفّه. وهي كالتي معك، من الفضّة الخالصة، وأنا أضمن أنْ تبقى متماشية مع التضخّم الماليّ، وسوف تبقى حتى بعد أنْ تصبح العملة الورقيّة بلا أيّة قيمة»، وسأل كلير «وأين ستضعينها؟»

قالت «في الوقت الحالي، سوف أضعها على طاولة تقديم القهوة، لكي يراها الناس. تعالوا جميعاً إلى غرفة الجلوس؛ سوف نضعها هناك»

قال والدي «رائع. ولكن تذكّري، لا تدعي أحداً من رفاقك يُخرِج الميداليات، إلّا وهو يرتدي القفاز»

أُعدَّت مائدة الغداء في الشرفة الخارجيّة المُحاطة بستائر. كانت كلير قد عثرتْ على وصفة حساء الشمندر البارد في كتاب «*الطبخ الروسيّ*»، وهو أحد كتب الطبخ ضمن سلسلة طويلة حول «الأطعمة حول العالم» المُرتَّبة بأناقة وتمتد من جهاز الراديو - الذي بدا أنّه مُخصص لبثّ موسيقى باخ - والجدار المكسو بلوحتين من لوحات أختها المرسومتين بالألوان المائيّة وتمثّلان المُحيط والكثبان الرمليّة، وهناك طبق سلطة الخيار واللبن المُصفّى، ذات نكهة الثوم المسحوق القويّة والنعناع الطازج المقطوف من حديقة الأعشاب التي تقع خلف باب الستائر، أُخِذَ من مجموعة الكتب نفسها، من الجزء الذي يتحدث عن المطبخ الشرق - أوسطي. وطبق الدجاج المشويّ البارد مع إكليل الجبل هو وصفة قائمة بذاتها وقديمة العهد.

قال والدي «يا إلهي، يا لها من مجموعة!»، وقال السيد بارباتنيك، «ممتازة»، وقالت كلير «شكراً لكما، أيّها السيدان، ولكنّني أراهن على أنّكما تذوّقتما ما هو أفضل»، قال السيد بارباتنيك، «لم أتذوّق مثل هذا الحساء الرائع حتى في لْفوف، عندما كانت أمي تقوم بالطبخ»، قالت كلير مبتسمة، «أعتقد أنَّ هذه مُبالغة، ولكن شكراً لكم، من جديد». قال والدي «اسمعي، يا فتاتي العزيزة، حتى وإنْ تركتكِ تدخلين المطبخ، فسوف أبقى على عاداتي القديمة. وسوف تكتفين بكونك مُدرِّسة، صدّقيني. إنَّ الطبّاخ الجيّد، حتى في أيام زمان، حتى وسط فترة الكساد الاقتصاديّ-»

ولكن في نهاية المطاف لم يكن تفوُّق كلير هو في مجال الأطباق الشرق - أوسطيّة الأجنبيّة التي جرّبتها، على طريقتها الخاصّة، للمرة الأولى في ذلك اليوم على أمل أنْ تجعل الجميع - بمَنْ فيهم هي نفسها - يشعرون في الحال بأنهم معاً في منازلهم، لكنَّ الشاي المُثلَّج اللذيذ المُعدّ بأوراق النعناع وقشور البرتقال وِفقاً لوصفة جدّتها. وبدا أنَّ والدي لا يكتفي من شرب المزيد منه، ولا من مدحه باستفاضة، وبعد أنْ علِمَ وهو يأكل العنبيّة أنَّ كلير تستقلّ الحافلة لكي تذهب في كل شهر إلى شينيكتادي من أجل زيارة هذه السيدة البالغة التسعين من العمر التي تعلَّمتْ منها كل ما تعرف عن إعداد وجبة والاعتناء بحديقة، وربما عن تربية طفل أيضاً. نعم، يبدو من الفتاة أنَّ ابنه المرتدّ قرَّر أنْ يُصبح طبيعيّاً، وبأسلوب استعراضيّ.

بعد تناول وجبة الغداء اقترحتُ على الرجلين أنّه ربما يُفضّلان أنْ يأخذا قسطاً من الراحة إلى أنْ تنخفض الحرارة قليلاً ونستطيع أنْ نتمشّى قليلاً على طول الطريق. لكنّهما رفضا رفضاً باتّاً. عمَّ أتحدّث؟ قال والدي، حالما نهضم طعامنا يجب أنْ ننتقل بالسيارة إلى الفندق. ودُهِشتُ، كما كنتُ قد دُهِشتُ قبل ذلك على مائدة الغداء لسماعه يتحدث بسهولة شديدة عن «تحفّظه». ومنذ أنْ انتقلَ إلى لونغ أيلند قبل ذلك بعامٍ ونصف، لم يُبدِ أيّ اهتمام يُذكَر برؤية ما صنعه الاثنان اللذان امتلكا على التوالي الفندق الذي كان ينزل فيه، وكان حينئذٍ يتنقّل بين مركز التزلّج رويال سكي والنُزُل الصيفيّ. وظننتُ أنّه سوف يكون سعيداً بالابتعاد، ولكنْ في الواقع كان يضجّ بالحماس من جديد، وبعد أنْ لجأ إلى المرحاض، أخذ يقطع أرض الشرفة الأماميّة جيئة وذهاباً، في انتظار استيقاظ السيد بارباتنيك من قيلولته القصيرة التي كان يستمتع بها بالتمدّد على الكرسي الذي أجلس عليه.

ماذا لو سقط ميتاً بتأثير خفقان قلبه الشديد ذاك؟ وقبل أنْ أتزوّج من الفتاة المُخلِصة، وأشتري المنزل الأليف، وأنجب الأطفال الوسيمين.

إذنْ ماذا أنتظر؟ إذا كان يمكن أنْ يحدث لاحقاً، فلِمَ لا يحدث الآن، لكي يستطيع هو أيضاً أنْ يكون سعيداً ويعتبر حياته ناجحة؟

ماذا أنتظرُ؟

في أثناء قيادة والدي لنا نحن الثلاثة على طول الطريق وخلال كل متجر لا يزال يفتح أبوابه ويتابع عمله هناك، بدا هو وحده كأنّه لا يشعر بالحرّ الشديد. قال «أتذكّر عندما كان هناك أربعة جزّارين، وثلاثة حلّاقين، وملعب بولينغ، وثلاثة أسواق للإنتاج، ومخبزان، ومركز A&P للبقالة، وثلاثة أطباء، وثلاثة أطباء أسنان. أما الآن، انظروا» -ومن دون إظهار الحزن: بل بالأحرى بالحِكمة الفخور لشخصٍ يتخيَّل أنّه في الواقع يعرف كيف يخرج في الوقت المناسب- «لم يعد هناك جزّارون، ولا حلّاقون، ولا ملعب للبولينغ، وهناك فقط مخبز واحد، ولا مركز للـA&P، ولو لم تتغيَّر الأحوال منذ أنْ غادرتُ، لما تبقّى هناك أطباء أسنان ولبقيَ فقط طبيب عام»، ثم أعلن، بنبرة عمّه الآن، متبنّياً وجهة النظر العامة، بأسلوب يُشبه قليلاً أسلوب

صديقه والتر كرونكايت، «نعم، إنَّ فترة الإقامة في الفندق القديم، الوافر، انتهتْ -لكنّها كانت فترة رائعة! كان ينبغي أنْ تشاهدوا هذا المكان في فصل الصيف! أتعلمون مَن الذي كان يقضي فترة العطلة هنا؟ ملك سمك الرنجة! وملك التفّاح!-» وبدأ يُمطر السيد برباتنيك وكلير (التي لم تبُحْ بأنها كانت قد قامت بتلك الرحلة العاطفيّة نفسها قبل بضعة أسابيع مع ابنه، الذي شرحَ في ذلك الوقت مَنْ *هو* ملك سمك الرنجة) بوابلٍ من تاريخ المسار الرئيسيّ لحياته على شكل سردٍ قصصيّ، خطوة فخطوة، وعاماً بعد عام، بدءاً بتنصيب روزفلت رئيساً وحتى ل.ب.ج. قلت، وأنا أُحيطُ قميصه ذا الكُمّين القصيرَين المُشبَّع بالماء، «أراهن على أنَّكَ إذا عزمت تستطيع أنْ تعود إلى ما قبل الطوفان». أعجبه كلامي - نعم، أعجبه كل شيء في ذلك اليوم. «أوه، أحقاً أستطيع! يا لها من متعة! إنَّ هذا *حقاً* زقاق الذكريات!»، حذّرتُه «إنَّ الجو شديد الحرارة. درجة الحرارة تتجاوز الثلاثين درجة. ربما إذا أبطأنا خُطانا-»، هتفَ «نُبطئ *خُطانا*؟»، وقام بحركة استعراضيّة، وجرَّ كلير على طول ذراعه واندفعَ يُهرول بخُطى قصيرة مجنونة على طول الطريق. ابتسم السيد بارباتنيك، وقال لي وهو يمسح جبينه بمنديله، «كان يحدوه الأمل منذ وقت طويل»

أعلنَ والدي بإشراق وأنا أتوجّه إلى الأرض الخالية المُجاورة لمدخل الخدم في «المبنى الرئيسيّ»، «إنها عطلة عيد العمّال!». وفيما عدا موقف السيارات، الذي عاد إلى الظهور، واللون الورديّ الفاقع الذي دُهِنَت به المباني كلها، لم يتغيَّر أيّ شيء تقريباً، ماعدا اسم الفندق. كان الذي يُدير المكان حينئذٍ رجلاً قلِقاً لا يكبرني إلّا قليلاً، مع زوجته الثانية التي ما زالت شابّة، الخالية من السِحر. كان لقاؤنا مُقتضباً بعد ظهيرة أحد أيام شهر حزيران عندما أتيتُ مع كلير من أجل القيام بجولتي المُثيرة للحنين. ولكن لم يكن ذانك الزوجان يشعران بأي حنين إلى الأيام الماضية الجميلة، لم تكن هناك إلّا تلك المخالب المُتشبّثة بالبقايا في جدول مُتدفِّق تشعر بالحنين إلى العصر الذهبيّ لقارب لحاء شجر البتولا. وعندما سأل والدي، بعد أنْ قدَّر الموقف، كيف لم يمتلئ المكان في فترة العطلة - إنّها ظاهرة لم يعرفها البتّة، كما وضَّحَ بجلاء شديد - أصبحتْ الزوجة أشبه بكلب ضخم أكثر

من ذي قبل، وزوجها الذي بدا أشبه بفتى ضخم الجثّة ذي عينين شاحبتين وبشرة مكسوة بالبثور وتعبير وجه مذهول، ودود - وهو رجل لطيف، حسن النيّة، لكنَّ دائنيه ربما ليسوا مُعجبين بخُططه للانتقال إلى القرن الحادي والعشرين - شرحا أنهما ليسا قادرين الآن على ترسيخ «صورة» ثابتة في أذهان الجمهور. قال بتردُّد، «في الواقع، في الوقت الراهن ما زلنا نقوم بتحديث المطبخ-»

قاطعته الزوجة لكي تُصحّح السجل: إنَّ الشبّان يُبتعدون لأنهم يعتقدون أنّه فندق مُخصَّص للعجائز (بدا من نبرة صوتها أنّها تضع اللوم في هذا على والدي)، وجموع العائلات تخاف وتبتعد لأنَّ الشخص الذي باعه والدي - ورفضَ أنْ يُسدد قيمة ما عليه من فواتير مع حلول شهر آب من أول وآخر فصل صيف أمضاه كمالك للمكان - لم يكن إلّا «هيو هفنر التافه» الذي حاول أنْ يُكوِّن زبائن من «نكرات، وأسوأ».

قال والدي قبل أنْ أتمكّن من القبض على ذراعه وحثّه على الابتعاد، «أولاً، إنَّ الخطأ الأكبر كان تغيير الاسم، ادهن الجهة الخارجيّة بأي لون تشاء، على الرغم من أنَّني لا أفهم ما خطب اللون الأبيض النظيف والجميل - ولكنْ إنْ كان هذا يمثّل ذائقتك، فهي ذائقتك. لكنَّ المهمّ هو، هل تغيِّرُ شلالات نياغارا اسمها؟ لن تفعل إلّا إذا أرادتْ أنْ توقِف حركة السياحة». واضطرّتْ الزوجة إلى الضحك في وجهه، أو هذا ما قالت: «يجب أنْ أضحك في وجهك»، أجاب والدي الحانق، «ماذا؟ لِمَ؟»، «لأنكَ لا يمكن أنْ تُسمّي فندقاً «الرويال الهنغاريّ» في هذه الأيام والعصر وتتوقَّع أنْ يتشكّل طابور أمامك»، قال الزوج، مُحاولاً أنْ يُرقِّق كلماتها، «كلا، كلا»، وفي تلك الأثناء أخرج قرصين من مُضاد حموضة المعدة من ورقة تغليفهما الفضيّة. «المشكلة، يا جانيت، هو أننا علقنا بين أسلوبَين في الحياة، وعلينا أنْ نسوّي هذا الأمر. وأنا واثق من أننا حالما ننتهي من العمل في المطبخ-»، قال والدي مُشيحاً ببصره بعيداً عن الزوجة ومتوجهاً نحو شخصٍ يمكن لكائن بشريّ أنْ يُجري معه على الأقلّ حديثاً لائقاً؛ «يا صديقي، انسَ أمر المطبخ، وقدِّم لنفسك معروفاً وأعِد الاسم القديم. وهذا يُعادل نصف الثمن الذي دفعته. على أيّة حال، لِمَ تريد أنْ تستخدم في الاسم كلمة «تزلّج»؟ اجعل

أبواب المكان مفتوحة طوال فصل الشتاء إذا ظننتَ أنَّ لهذا أهميّة - ولكن لِمَ تستخدم كلمة لم تعمل إلّا على إخافة وإبعاد نوعيّة الأشخاص الذين يحوّلون مكاناً كهذا إلى عرضٍ متواصل؟»، قالت الزوجة: «لديّ لك خبر. لا أحد اليوم يريد أنْ يمضي فترة العطلة في مكانٍ يُشبه قبراً ضخماً». فترة صمت. قال والدي، وهو يُزيد من جرعة السخرية، «أوه. أوه، إنَّ الماضي يموت في هذه الأيام، أليس كذلك؟»، وباشرَ حواراً منفرداً فلسفيّاً، مُفكّكاً ورصيناً حول الصِلة المتكاملة بين الماضي، والحاضِر، والمستقبل، وكأنَّ رجلاً نجح في العيش حتى سن السادسة والستين **يجب** أنْ يعرف عمّا يتكلَّم، وكان ***مُلزماً*** بأنْ يكون حكيماً في التعامُل مع الذين يتبعون غيرهم - خاصّة عندما يبدو أنهم ينظرون إليه باستخفاف بوصفه المُسبب لمِحَنهم.

انتظرتُ لأتوسّط، أو لأستدعي الإسعاف. هل سينفجر والدي المُجهَد بالبكاء، أم سينهار كجثّة هامدة جرّاء رؤيته سوء إدارة إنجاز حياته على يد هذا الزوج الكسول وزوجته الحقيرة الصارمة؟ مرة أخرى، لا يبدو أحدهما أقلّ احتمالاً من الآخر.

لِمَ أنا مُقتَنِع بأنّه في أثناء هذه العطلة سوف يموت، وبأنّني بحلول يوم الاثنين سوف أُصبح ابناً يتيماً؟

كان لا يزال قويّاً - لا يزال مجنوناً صغيراً قويّاً - عندما ركبنا السيارة لنتوجّه إلى المنزل. «ما أدراني أنّه سيكون هيبيّاً؟»، سألتُه «مَنْ يكون؟ ذلك الرجل الذي اشترى ملكيّتنا بعد وفاة أمي. أتعتقد أنني كنتُ سأبيعها لهيبّيّ، بإرادتي الحرّة؟ كان الرجل في الخمسين من العمر. فما الخطأ في أن يكون لديه شَعرٌ طويل؟ مَنْ أكون أنا، أأنا شخص مُحافِظ، حتى أتبنّى وِجهة النظر هذه ضدّه؟ ثم ماذا كانت تعني بحقّ الجحيم بقولها «نكرات»؟ لا أظنّ أنها كانت تعني ما أعتقد أنّها كانت تعني؟ أم أنها كانت تعنيه؟ كانت تعني أنهما يسقطان وأنَّ الأمر مؤلِم. اسمع، إنها بكل وضوح امرأة مزعجة حقيرة وعنيدة، لكنَّ الفشل يبقى فشلاً»، «نعم، ولكنْ لِمَ تضع اللوم **عليّ**؟ لقد أعطيتُ أولئك القوم آخر إوزة ذهبيّة، أعطيتهما تراثاً راسخاً أصيلاً وزبائن ثابتين بحيث لم يكن عليهما إلّا أنْ يلتزما بما هو **موجود**. هذا ***كل*** شيء، يا ديفي!» التزلّج! «يكفي أنْ يسمع زبائني هذه الكلمة حتى يفروّا هاربين.

آه، إنَّ في استطاعة بعض الناس أنْ يؤسّسوا مشروع فندق في الصحراء الكبرى وينجحوا فيه، وهنا آخرون يمكن أنْ يؤسسوه في أفضل الظروف ثم يخسروا كل شيء»، قلتُ «هذا صحيح. والآن أعود بذاكرتي متسائلاً إنْ كان في استطاعتي أنا أنْ أُنجِز كل ذلك القدر. نكرةً مثلي، بلا أصل! لقد بدأتُ، يا كلير، بالعمل طبّاخاً للوجبات السريعة. كان شعري حينئذٍ أسود، كهذا، وكثيفاً أيضاً، صدّقي أو لا تُصدّقي-»

التوى رأس السيد بارباتنيك النائم إلى جواره جانباً، كأنّه مشنوق. أمّا كلير -كلير المحبوبة، المُتسامحة، الكريمة، الراغبة- فاستمرتْ في الابتسام وبالإيماء برأسها موافقة وهي تُصغي إلى حكاية نُزُلنا وكيف ازدهرَ بفضل العناية المُحبّة لهذا النكرة الحيويّ، مُراقب العمّال الذي لا يرحم، الداهية، اللبق، والمجتهد. وتساءلتُ، هل هناك رجلٌ حيّ عاش حياة يُقتدَى بها أكثر من حياته؟ هل هناك أقلّ قدرٍ من أي شيء تمسَّكَ به وهو يؤدي واجباته؟ إذن بمَ يعتقد أنَّ في مقدوره القيام به؟ أعمالي المُقصِّرة، أم آثامي؟ آه، لو أنّه يختصر المُحصّلة، لأعلنَتْ هيئة التحكيم «إنّه بريء براءة طفلٍ رضيع!» حتى من دون الانفراد في غرفة المُداولة.

لكنّه لا يستطيع. استمرّ دفاعُه بكل قوّته حتى أوائل المساء. أولاً أخذ يتبع كلير في أرجاء المطبخ بينما كانت تعدّ السلطة وفاكهة بعد الطعام. وعندما ذهبتْ لكي تأخذ دشّاً وتبدِّل ملابسها استعداداً لتناول العشاء -ولكي تستجمع قِواها- خرجَ إلى حيث كنتُ أعدّ الشِواء على المِشواة التي خلف المنزل. «هيه، ألم أخبرك عن الشخص الذي تلقّيتُ دعوة لحضور حفل زفاف ابنته؟ لن تُخمّن ولا حتى بعد مليون عام. لقد اضطررتُ إلى الذهاب إلى همبستيد لكي أُصلِح جهاز الخلّاط من أجل عمّتك -تعلم، الوعاء، الجزء العلويّ- ومَنْ في اعتقادك كان يمتلك متجر الأدوات المنزليّة الذي يعمل الآن لمصلحة وارينغ؟ لن تُخمِّن أبداً، هذا إنْ كنتَ تتذكّره». لكنني تذكّرته. إنه صاحبي المُشعوذ. قلت «هيربي براتاسكي»، «هذا صحيح. هل سبق أنْ أخبرتك؟»، «كلا»، «ولكن إنّه هو - أتصدِّق، إنَّ ابن الحرام النحيل ذاك كبُرَ وأصبحَ شخصيّة معروفة ويُحقق نجاحاً ملحوظاً. إنّه يمتلك شركة وارينغ، وG.E، والآن، كما أخبرني، يتعامل مع شركة يابانيّة، أكبر من شركة

سوني، لكي يُصبح الموزِّع الوحيد في لونغ أيلند. وابنته جميلة كالدمية. أراني صورتها – ومن ثم فجأة قبل يومين تلقّيتُ هذه الدعوة الجميلة بالبريد. كنتُ أنوي أنْ أجلبها، اللعنة، ولكن أعتقد أنني نسيتُ لأنني كنتُ منهمكاً». كان منهمكاً قبل يومين. قال «سوف أُرسلها إليك. سوف تصدمك. اسمع، لقد خطرت لي فكرة، مجرد فكرة، ولكن ما رأيك في أنْ ترافقاني أنتَ وكلير – لحضور الزفاف؟ سوف تكون مُفاجأة كبرى لهيربي»، «في الواقع، دعنا نفكّر في الأمر. كيف أصبح شكل هيربي هذه الأيام؟ كيف أحواله الآن، هل أصبح في أربعينيات عمره؟»، «أوه، لابد أنّه في الخامسة والأربعين، أو السادسة والأربعين، في الغالب. لكنّه ما زال مُفعماً بالحيويّة – أنيق ووسيم كما كان وهو صغير. لم يزدد وزنه البتّة، وما زال يحتفظ بشَعره كلّه – في الواقع، كان غزيراً جداً، حتى إنني اعتقدتُ أنّه مُستعار. لعلّه كان كذلك، بعد قليل من التفكير. وكان لا يزال مُلوّحاً بسُمرة الشمس نفسها. فما رأيك في هذا؟ يجب أنْ نستخدم مصباحاً. ثم، يا ديفي، إنَّ لديه ولداً صغيراً، يُشبهه تماماً. يعزف على *الطبول*! وقد أخبرتُه عنكَ، طبعاً، فقال إنّه يعرفك مُسبقاً. يعرف عن خطابك الذي ألقيته في المدرسة، شاهده في أجندة صحيفة «*نيوزداي*» التي تضم أحداث المنطقة. قال إنّه أخبر زبائنه كلهم. فما رأيك في هذا؟ إنّه هيربي براتاسكي. كيف عرفت؟»، «خمَّنتُ»، «حسن، كنتَ على صواب. أنتَ تتواصل مع الأرواح، يا بنيّ. واو، ما أجمله. ما هو الشيء الذي تدفعون المال مقابله هنا؟ قبل سنين، كانت قطعة من لحم البقر كهذه–» ووددتُ لو أضمّه بين ذراعيّ، وأضغط فمه الذي لا يكفّ عن الكلام على صدري، وأقول «لا بأس، سوف تبقى هنا إلى الأبد، لستَ مُضطراً إلى الرحيل». ولكنْ في الواقع كان علينا جميعاً أنْ نرحل في غضون أقلّ من مائة ساعة. وسوف يستمر التقارُب الشديد والتباعُد الهائل بين والدي وبيني بالأبعاد المُربِكة نفسها كما كان طوال حياتنا – إلى أنْ يُفرقُ الموت بيننا.

عندما عادتْ كلير إلى المطبخ، تركني أراقب الجمر يلتهب، وولج المنزل. «لكي أتأمّل جمالها»، هتفتُ خلفه، «اهدأ...»، وكأنني أطلب من صبي صغير أنْ يهدأ حالما يدخل ملعب فريق اليانكي.

جعلته كلير ينهمك في تقشير كيزان الذرة. ولكن طبعاً في الإمكان تقشير

كيزان الذرة والكلام في الوقت نفسه. كانت كلير قد ثبّتتْ على لوحة أخبار مصنوعة من الفلّين فوق المغسلة بعض الصور الفوتوغرافيّة التي وصلتها تواً من أوليفيا من مارثاز فاينيارد جنباً إلى جنب مع وصفات الأطباق التي اقتطعتها من مجلة «*تايمز*». وسمعتهما من خلال ستارة باب المطبخ يُناقشان أمر أطفال أوليفيا.

بعد أنْ أصبحتُ وحدي، وكان لا يزال هناك وقت قبل أنْ يُصبح الشِواء جاهزاً، أُتيحَت لي خلاله أخيراً فرصةً لكي أفتح المُغلَّف الذي وصلني عبر صندوق البريد في الجامعة، وحملتُه معي في جيبي الخلفيّ منذ أنْ ذهبنا إلى البلدة قبل ساعات عديدة لكي نُحضر البريد وضيوفنا. ولم أكن قد فتحته، بما أنّه لم يكن الرسالة التي أنتظر وصولها منذ أيام من مطبعة الجامعة التي كنتُ قد سلّمتها قصة «*المتقوقع*» بنسختها الأخيرة بعد مراجعتها الختاميّة إبّان عودتنا من أوروبا. كلا، بل هي رسالة من قسم اللغة الإنكليزيّة في جامعة تكساس المسيحيّة، وتنطوي على أول لحظة نور حقيقيّة في ذلك اليوم. أوه، يا بومغارتن، أنت حقاً مُضحك وشيطان.

عزيزي البروفسور كيبيش

كان السيد الف بومغارتن، مُرشّح منصب كاتب مُقيم في جامعة تكساس المسيحيّة، قد عرَضَ اسمك بوصفك شخصاً يعرف أعماله. وأكره أنْ أستغلّ برنامجك الحافل، لكنني سأكون شديد الامتنان إذا أرسلتَ إليّ، في أسرع وقت يُناسبك، رسالةً تُضمّنها آراءك حول كتابته، وتعاليمه، وحول سلوكه الأخلاقيّ. وأطمئنك بأنَّ تعليقاتك سوف تبقى في طيّ الكتمان التامّ.

إنني شديد الامتنان لتعاونك.

المُخلص لك

جون فيربيرن

رئيس مجلس الإدارة

«*عزيزي البروفسور فيربيرن، ربما تودّ أنْ أُدلي برأيي في الريح أيضاً، التي أنا على عِلمٍ بنشاطها*... أعدتُ الرسالة إلى جيبي ووضعتُ قطعة الشواء. *عزيزي البروفسور فيربيرن، ليس في مقدوري تقديم المُساعدة لكنني أعتقد أنَّ آفاق طلابك سوف تتّسع بصورة هائلة وسوف تُثري بقدر شاسع إحساسهم بإمكانات الحياة*.... وتساءلتُ، ومَن التالي. وعندما سأجلس في شقتي لأتناول وجبة العشاء هل سيكون على المائدة طبق زائد من أجل بيرغيتا، أم هل ستفضّل أنْ تأكل وهي إلى جواري، راكعةً على رُكبتيها؟

يتناهى إلى سمعي من المطبخ أنَّ كلير ووالدي توصلا أخيراً إلى مناقشة موضوع والديْها. أسمعه يسألها «ولكن *لِمَ*؟». وأستشفّ من نبرة صوته أنّه مهما كان السؤال، فإنَّ الجواب ليس مجهولاً لديه، بل بالأحرى هو يتناقض مع نزعته الشديدة إلى تحسين العالم. فتجيب كلير، «لأنهما ربما لا يتوافقان معاً في المقام الأول»، «لكنَّ الابنتين الجميلتين مُثقفتان ثقافة جامعية، وكلتاهما تشغلان منصبين تنفيذيين. أنا لا أفهم. ثم مُعاقرة الخمر: *لماذا*؟ إلى أين يوصلك هذا؟ مع كامل احترامي، يبدو لي هذا شيئاً ينمّ عن غباء. طبعاً أنا نفسي لم أحظَ بأي قدر من التعليم. ليتني تعلَّمت – لكنني لم أتعلَّم، وانتهى الأمر. ولكن دعيني أخبركِ بأنّني يجب أنْ أتذكّر أمي لكي أشعر بأنَّ العالم بأسره بخير. ما أعظمها من امرأة! كنتُ أقول لها، ماما، ما الذي تفعلينه على الأرض من جديد؟ سوف نُعطيك أنا ولاري النقود، سوف يأتي شخص آخر ويُنظّف الأرضيّات. ولكن لا–»

أخيراً، وخلال تناول وجبة العشاء خيَّم ملاك الصمت عليه، حسب تعبير تشيخوف. ولكن سرعان ما تبع ذلك ظلٌّ من الكآبة. هل هو الآن على شفا البكاء، بعد أنْ أكثر من الكلام ولم يقُلل مع ذلك ***بالضبط*** ما يعني؟ هل سينهار أخيراً ويبكي – أم إنني أنسبُ إليه المزاج الجديد بي؟ لِمَ ينبغي أنْ أشعر كأنني خسرتُ معركة لعينة في حين أنّه من الواضح أنني ربحتها؟

جلسنا من جديد في الشرفة الأماميّة المُحاطة بستارة، حيث كنتُ، خلال الأيام السابقة، أبذل كل جهد، بالقلم والورقة، لأعرِض وجهة نظري *الخاصّة*. كانت شموع شمع النحل تحترق غير مرئيّة وتسيل على الحامل القصديريّ الأثريّ، شموع مصنوعة من نبات الشمعيّة، وصلت بالبريد من

فاينيارد، وتقطر خيوطاً من الشمع الذائب على الطاولة. وأينما نظرت ترى شموعاً تحترق - كانت كلير مولعة بها وتضعها في الشرفة الأماميّة ليلاً؛ ولعل هذا هو السلوك المُسرِف الوحيد الذي يصدر عنها. وقبل ذلك، عندما انتقلتْ من حامل إلى آخر مع علبة كبريت، كان والدي - الذي جلس على المائدة وأقحم الفوطة داخل حزامه - قد باشر يسرد على مسمعها أسماء فنادق كاتْسكيل التي احترقت بطريقة مأساويّة عن بكرة أبيها خلال العشرين عاماً الأخيرة. وعلى الأثر طمأنتْه بأنّها سوف تكون حذرة. ومع ذلك، عندما تهب الريح خفيفة على الشرفة الأماميّة، ويزداد لهب الومض، كان يتلفّتْ حوله لكي يتيقّن من أنَّ النار لم تحرق شيئاً.

ثم سمعنا أول ثمرة تفّاح ناضجة تسقط على العشب في البستان خلف المنزل مباشرة. وسمعنا نعيب بومنا «الخاص» - هكذا عرَّفتْ كلير لضيوفنا هذا المخلوق الذي لم نره البتّة، والذي يقع مأواه داخل «غابتنا». إذا صمتنا كلنا مدة كافية - هكذا تُخبر الرجلين العجوزين - كأنهما طفلان - فقد تقترب الغزلان قادمة من الغابة لكي ترعى حول أشجار التفاح. وكان الكلب دازل قد أخذ حَذَرَه ولم ينبح ويُخيفها ويُبعدها. لهثَ الكلب قليلاً لدى سماع اسمه يصدر من بين شفتيها. إنه في الحادية عشرة من العمر وأصبحَ مُلكاً لها منذ أنْ كانت تلميذة مدرسة في الرابعة عشرة، وكان أعزّ أصدقائها، قبل أنْ أظهر. وفي غضون بضع لحظات استغرق دازل في نوم هادئ، ومن جديد لم يتبقَّ غير اللحن الختاميّ الحيويّ لشهر أيلول تُطلقه شراغيف الأشجار وصرّار الليل، وهو اللحن الأشهر من بين ألحان الصيف الناعمة التي سمعناها يوماً.

هذه الليلة لا أستطيع أنْ أغضّ بصري عن النظر إلى وجهها. وبين كليشيهات الرسّام العظيم القديم التي تمثّل رجلين عجوزين بفمين واسعين قذرين وضوء الشموع يُضيئهما، لم يبدُ وجه كلير من قبل، وأكثر من أي وقتٍ مضى، أشدّ نعومة كبشرة التفاح، وتفوح منه رائحة التفاح، وبسيطاً كالتفاح، ونضِراً كالتفاح... أشدّ براءة ونقاءً... لم يبد هكذا من قبل... نعم، وما الذي أغضّ بصري أمامه طواعية وفي الوقت المناسِب سوف يُفرِّق بيننا؟ ولماذا أستمر في رمي هذا السِحر على نفسي، في حين أنَّه لا يُسمح بالنفاذ

من خلاله إلّا لِما يسرّني؟ أليس في كل هذا الهيام الرقيق، والناعم، شيء مُريب وحالِم؟ ماذا سيحدث عندما سيظهر ما *تبقّى* من كلير؟ ماذا سيحدث إذا لم يكن هناك «بقيّة منها»! وماذا عمّا تبقّى مني؟ إلى متى سوف يخدعها *هذا*؟ متى سأشبع من البراءة الكاملة - متى سوف تبدأ الرقّة الممتعة للحياة مع كلير ببلوغ مرحلة التخمة، والامتلاء، وأخرج من جديد وأبكي على ما خسرت وأبحثُ عن أي اتّجاه!

وبشكوك طال كبتها وتمّ الجهر بها أخيراً - وبانسجام صارخ - تحوّلت الانفعالات التي كنتُ أعيش في ظل استثنائيتها الرصينة في ذلك اليوم، إلى شيءٍ ملموس وشنيع كمسمار كبير. وأشعر، *فقط لفترة وجيزة*، في رأيي، كأنني في الواقع تلقّيتُ طعنة وكأنَّ القوة تتدفّق متسرِّبة مني، كأنّني أكاد أسقط عن كرسيّي. فقط لفترة وجيزة. لا أعرف أي شيء ثابت. لا شيء غير ذكرياتي التي لا تُمحى عن كل ما هو زائل ومؤقّت: لا شيء غير هذه الملحمة التي لا تنتهي عن كل ما لم ينجح...

لا شك، لا شك في أنَّ كلير ما زالت معي، تجلس قبالتي مباشرة على الطاولة، تقول شيئاً لوالدي وللسيد بارباتنيك حول الكواكب التي ستعرضها عليهما لاحقاً، اللامعة هذه الليلة وسط الكواكب المتلألئة النائية. وبشعرها المُثبَّت إلى أعلى، كاشفاً عن عمودها الفقري الهشّ الذي يدعم عنقها النحيل، وبقفطانها ذي اللون الباهت، وبحاشيته المُزخرفة، التي خيطَتْ في وقتٍ مُبكّر في الصيف على الآلة، مُضفيةً القليل من الجو الفخم إلى بساطتها المُهيمنة، تبدو في نظري أشدّ تألّقاً من ذي قبل، وأنّها زوجتي حقاً أكثر من أي وقت مضى، وأنها أمّ أولادي الذين لم أُنجبهم... ومع ذلك كنتُ قد جُرِّدتُ من قوّتي ومن أملي ومن اطمئناني. وعلى الرغم من أننا سوف نمضي قُدُماً، كما خطّطنا، ونستأجر المنزل لكي نلجأ إليه في عطل نهاية الأسبوع وخلال العطل المدرسيّة، كنتُ متيقّناً من أنّه بعد مرور بعض الوقت - هذا كل ما سوف يستغرقه الأمرُ، بعض الوقت - سوف يختفي بالتدريج كل ما نملك، وسوف يفسح الرجل، الذي يحمل بيده ملء ملعقة من قستر البرتقال الذي صَنَعته، الطريقَ لتلميذ هيربي، وشريك بيرغيتا في الجريمة، والمتودِّد لهيلين، نعم، وصديق بومغارتن والمُدافع عنه، والابن

المتمرّد المتوقَّع وكل ما يتوق إليه. أو، إذا لم يكن كذلك، *ماذا*؟ ماذا بعد أنْ يزول هذا أيضاً؟

لا يمكن أنْ أسقط عن كرسيي على مائدة العشاء، إكراماً لنا جميعاً. ولكن من جديد يتغلّب عليّ ضعفٌ جسديّ هائل. إنني أخشى أنْ أمدّ يدي لأتناول كأس الخمر خوفاً من ألّا يتوفّر لديّ ما يكفي من الشجاعة لحمله وقطع المسافة التي تفصله عن فمي.

قلت لكلير «ما رأيك في تشغيل أسطوانة؟»

«أسطوانة باخ الجديدة؟»

أسطوانة السوناتات الثلاثيّة. كنا نستمع إليها منذ أسبوع. وفي الأسبوع السابق استمعنا إلى رباعيّة موتسارت؛ وفي الأسبوع السابق لهذا، استمعنا إلى كونشيرتو التشيللو لإلغار. إننا نواظب على الاستماع إلى الأسطوانة مرَّة بعد أخرى إلى أنْ نكتفي في نهاية المطاف. والأمر كله أسطوانة يتردد سماعها في طول المنزل وعرضه، موسيقى أصبحت تبدو كأنها نِتاج ثانويّ لتحرّكاتنا، مؤلفات موسيقيّة يُشيعها حِسّنا بالسعادة. وكل ما كنا نسمعه هو موسيقى ممتازة.

نجحتُ، بسببٍ وجيه ظاهريّاً، في مغادرة المائدة قبل أنْ يقع أمر مُخيف.

كانت آلة تشغيل الموسيقى ومُكبّرات الصوت التي في غرفة الجلوس مُلكاً لكلير، نقلتْها من المدينة في المقعد الخلفي من السيارة. وكذلك الأمر مع مُعظم أسطواناتها. وكذلك الأمر مع الستائر التي خيطَتْ معاً من أجل النوافذ، والأغطية القطنيّة التي صنعتها لكي تغطي بها سرير النهار[1] المتهرّئ، والكلبين الصينيين الجالسين بجوار الموقد، كانا ذات يوم ينتميان إلى جدّتها وانتقلا إلى ملكيتها في عيد ميلادها الخامس والعشرين. وفي طريق عودتها من المدرسة إلى المنزل وهي طفلة كانت تتوقّف في المعتاد لكي تشرب الشاي وتأكل الخبز المُحمَّص مع جدَّتها، وتتدرَّب على العزف على البيانو هناك؛ ثم، بعد التزوُّد بهذا على الأقلّ، يُصبح في استطاعتها أنْ تتابع طريقها إلى ساحة حرب منزلها. واتّخذتْ قراراً وحدها بأنْ تُجري

1- سرير النهار: سرير ضيِّق، يُحوَّل في النهار إلى أريكة.

عمليّة إجهاض. ألكي لا تُرهِق كاهلي بتحمّل الواجب؟ أم لكي أختارها هي فقط لذاتها؟ ولكنْ هل فكرة الواجب فظيعة إلى هذه الدرجة؟ لِمَ لم تُخبرني بأنها حامل؟ أليس هناك نقطة على درب الحياة يستسلم المرء عندها للواجب، يُرحِّب بالواجب كما قد يستسلم للمتعة، للشغف، للمغامرة – في وقتٍ يكون فيه الواجب هو المتعة، وليست المتعة هي الواجب....

وتبدأ الموسيقى الممتازة. وأعود إلى الشرفة الأماميّة، لم أعد شاحب اللون كما كنت عندما غادرتها. وأجلسُ من جديد على المائدة وأرشف من كأس النبيذ. نعم، يمكنني أنْ أرفع الكأس وأُخفضها. يمكنني أنْ أركِّز أفكاري على موضوعٍ آخر. يُستحسن أنْ أفعل.

قلت «سيد درباتنيك، لقد أخبرنا والدي بأنكَ نجوت من معسكرات الاعتقال. كيف فعلتَ ذلك؟ إذا لم يكن لديك مانع؟»

«بروفسور، اسمح لي أولاً أنْ أُعبِّر عن مدى امتناني لحُسن ضيافتك لشخصٍ غريب تماماً. إنَّ هذا أسعد يوم مرَّ عليّ منذ وقتٍ طويل. وكنتُ قد اعتقدتُ أنني ربما نسيتُ كيف أكون سعيداً مع الناس. وأنا أشكركم كلكم. أشكرُ صديقي الجديد والعزيز، والدك الرائع. لقد كان يوماً جميلاً، آنسة أوفينغتون–»

قالت «أرجوك خاطبني باسم كلير»

«كلير، أنتِ أنضج من عمرك، وشابّة وأيضاً محبوبة. وطوال النهار – طوال النهار كنتُ أرغب في أنْ أُعبِّر لكِ عن امتناني العميق، من أجل كل الأشياء الجميلة التي فكّرتِ في إنجازها من أجل الناس»

كان العجوزان جالسين على جانبيها، العاشق جلس على الجهة المُقابلة: حاشداً كل ما في استطاعته من حب، وأخذ يتأمّل امتلاء جسمها الأنيق وضآلة وجهها من فوق مزهرية صغيرة تضم أزهار النجمة كان قد قطفها من أجلها خلال نزهته الصباحيّة، وراقبَ بكل ما لديه من حبّ ذلك المخلوق الأنثويّ الرائع، وكانت حينئذٍ في كامل ازدهارها، وقدّمتْ يدها إلى ضيفهم الحيّ، فتناولها، وشدّ عليها وعصرها، ومن دون أنْ يتركها، بدأ يتكلَّم للمرة الأولى بسهولة وثقة بالنفس، وعلى الأقلّ بارتياح (تماماً

كما كان قد خطَّط أنْ يفعل، وكما جعلت ذلك ممكناً). ووسط ذلك كلّه، شَعَرَ العاشق، في الواقع، بأنّه مُنغمس بصورة أعمق بحياته الخاصّة من أيّة لحظة في ذاكرته - بذاته الحقيقيّة في أصدق لحظاتها، المُرتبطة بكل مشاعرها بمنزلها الخاصّ الحقيقيّ! ومع ذلك استمرّ في تخيّل أنّه أُبعِدَ بفعلِ قوةٍ لا تُقاوَم كالجاذبيّة الأرضيّة، وهذا أيضاً ليس كذباً. كأنّه جسم يسقط، عاجز كأي تفاحة صغيرة في البستان انفصلتْ وتحرّرتْ وأخذتْ تسقط نحو الأرض المُغرية.

ولكن بدل أنْ يبكي، إمّا بلسان أمّه أو على شكل عواء حيوانيّ بدائيّ، «لا تتركيني! لا ترحلي! سوف أشتاقُ إليك بمرارة! سوف أشتاق إلى هذه اللحظة، وإلينا نحن الأربعة معاً - هذا ما ينبغي أنْ يحدث!» غرَفَ مقدارَ آخر ملعقةٍ من القسترد وأصغى إلى قصة النجاة التي طلب سماعها.

قال السيد بارباتنيك، «كانت هناك بداية، وكان لابد أنْ تكون هناك نهاية. وسوف أبقى حياً لأشهد نهاية هذا الشيء البشِع. هذا ما أقول لنفسي في صباح ومساء كل يوم»

«ولكن كيف حصل ولم يرسلوك إلى الأفران؟»

كيف حصل وأتيتَ إلى هنا، بيننا؟ لماذا أتتْ كلير إلى هنا؟ لِمَ لم تأتِ هيلين وطفلنا؟ لِمَ لم تحضر أمي؟ وبعد مرور عشر سنين... مَنْ سيكون هناك؟ من أجل إنشاء حياة حميمة جديدة، من لا شيء، وأنا في الخامسة والأربعين؟ كي أبدأ كل شيء من جديد وأنا في الخمسين؟ لكي أنوح إلى الأبد على وضعي كمنبوذ؟ لا أستطيع! ولا أريد!

قال السيد بارباتنيك «لم يستطيعوا أنْ يقتلوا الجميع. هذا ما عرفتُ. كان ينبغي أنْ يبقى أحد، ولو شخص واحد. قلت لنفسي، هذا الشخص الوحيد سيكون أنا. لقد عملتُ لمصلحتهم في مناجم الفحم حيث أرسلوني. مع البولونيين. حينئذٍ كنتُ شاباً صغيراً، وقويّاً. عملتُ هناك وكأنَّ منجم الفحم ملكي الخاصّ ورثته عن والدي. قلتُ لنفسي هذا ما أريد القيام به. قلت لنفسي إنَّ هذا العمل الذي أؤديّه هو من أجل طفلي. كنت في كل يوم أقول لنفسي أشياء متنوعة لكي أُبرهن على أنَّ في استطاعتي أنْ أعيش حتى تلك

الليلة. وهكذا نجوت. وعندما بدأ الروس يصلون فجأة وبسرعة، أخذنا الألمان عند الساعة الثالثة صباحاً لنقوم بمسير. ومرّتْ أيام عديدة، حتى لم أعُد أتابع تسلسلها. كانت تتوالى وتتوالى، والناس يسقطون كيفما التفتّ، ومن جديد قلتُ لنفسي إذا بقيَ شخص واحد فهذا الشخص سوف يكون أنا. ولكن حينئذٍ علِمتُ بصورةٍ ما أنني حتى إذا نجحتُ في الوصول إلى حيثُ كنا ذاهبين، فحالما سأصل إلى هناك سوف يُطلقون النار على أي شخص يتبقّى منا. وهكذا استطعتُ أنْ أفرّ هارباً بعد مضيّ أسابيع عديدة من السير على الأقدام من دون توقّف إلى يعلمُ الله أين. كنتُ أختبئ في الغابات ليلاً ثم أخرجُ منها ويقوم المزارعون الألمان بإطعامي. نعم، هذا صحيح». قال هذا وهو يُحدِّق إلى يده الكبيرة، التي بدتْ على ضوء الشمعة واسعة كرفش وثقيلة كعتلة، وهي تضمّ أصابع يد كلير النحيلة بعظامها وبراجمها الرقيقة. «في الواقع إنَّ الفرد الألماني ليس شريراً. ولكن يكفي أنْ يجتمع ثلاثة من الألمان داخل غرفة حتى تغيب كل طيبة في العالم»

سألته «وماذا حدث بعد ذلك؟»، لكنّه استمرَّ في النظر إلى أسفل، كأنّه يتأمّل في لغز تلك اليد الواحدة باليد الأخرى. «كيف نجوتَ، يا سيد بارباتنيك؟»

«ذات ليلة قالت امرأة ألمانيّة من المزرعة لي إنَّ الأميركيين قد وصلوا إلى هناك. وظننتُ أنّها تكذب. وقلتُ في نفسي، لا تعُد إليها هنا، إنها تُدبِّر أمراً شريراً. ولكن في اليوم التالي شاهدتُ دبّابة بين الأشجار، تسير على الطريق، عليها نجمة بيضاء، فخرجتُ إليها مُهرولاً، وأنا أصرخ بأعلى صوتي»

قالتْ كلير، «لابد أنَّ شكلك حينئذٍ كان قد أصبح شديد الغرابة. كيف تعرّفوا على هويتك؟»

«تعرّفوا عليها. لم أكن الشخص الأول. كنا كلنا نخرج من جحورنا. أو مَنْ تبقّى منّا. لقد فقدتُ زوجةً وأبوين، وأخي، وأختين، وابنةً عمرها ثلاث سنوات»

تأوّهتْ كلير، «أوه»، كأنَّ إبرة وَخَزتْها تواً. «سيد بارباتنيك، إننا نطرح عليك الكثير من الأسئلة، لا ينبغي علينا...»

هزّ رأسه نفياً. «عزيزتي، ما دمتِ حيّة، فيجب أنْ تطرحي أسئلة. ربما هذا هو مُبرِّر حياتنا. هكذا يبدو»

قال والدي «لقد قلتُ له إنّه يجب أنْ يؤلِّف كتاباً يضمّ كل ما مرَّ به. أعرفُ أشخاصاً أحبّ أنْ أعطيهم إياه ليقرأوه. إذا استطاعوا أنْ يقرأوا، فربما سوف يهزّون رؤوسهم نفياً دلالة على أنَّ في استطاعتهم أنْ يبقوا كما هم، وهذا الرجل يستطيع أنْ يكون ودوداً وطيّباً»

سألتُه «وقبل أنْ تنشب الحرب؟ كنتَ شاباً حينئذٍ. ماذا أردتَ أنْ تُصبح؟»

ربما توقّعتُ، بسبب قوّة ذراعيه وحجم يديه، أنْ أسمعه يقول نجاراً أو بنّاءً. وفي أميركا ظلَّ يعمل في قيادة سيارة أجرة لأكثر من عشرين عاماً.

أجاب «أريد أنْ أكون كائناً بشريّاً، شخصاً يستطيع أنْ يرى ويفهم كيف عشنا، وما هو الحقيقيّ، وألّا أمتدح نفسي بالأكاذيب. لطالما كان هذا طموحي منذ طفولتي. في البدء كنتُ كأي شخص آخر، ولداً طيباً في المدرسة الدينيّة. لكنني حرّرتُ نفسي بنفسي من هذا كله وأنا في السادسة عشرة. كان في وسع أبي أنْ يقتلني، لكنني لم أرغب حتماً في أنْ أكون متعصّباً، في أنْ أؤمن بما لا وجود له، كلا، أنا لا أفعل هذا. والذين يفعلون هذا هم فقط الذين يكرهون اليهود، أولئك المتعصبون»، وقال لكلير، «وهناك متعصّبون أيضاً بين اليهود، وأيضاً يعيشون في الحلم. أنا لا أفعل هذا. لم أفعل هذا ولا للحظة منذ أنْ كنتُ في السادسة عشرة وأخبرتُ والدي بما أرفض أنْ أتظاهر به»

قال والدي «إذا ألّفَ كتاباً فيجب أنْ يكون عنوانه «الرجل الذي لا يستسلم»»

سألته «وهنا تزوّجتَ من جديد؟»

«نعم. هي أيضاً كانت في معسكر اعتقال. في الشهر التالي سوف يكون قد مرَّ على وفاتها ثلاثة أعوام – متأثّرة بمرض السرطان، كما حدث لأمّك. وهي لم تكن مريضة. ذات ليلة بعد العشاء كانت تغسل الأطباق. وذهبتُ لكي أدير جهاز التلفاز، وفجأة سمعتُ ضجيج تهشّم صادر عن المطبخ. «أنجدني. إنني أتألّم»، وعندما هرعتُ إلى المطبخ وجدتها مُلقاة على

الأرض. قالتْ «لم أتمكَّن من التمسّك بالعبق»، قالت «عبق» بدل «طبق». الكلمة وحدها أصابتني بالتوتّر. وعيناها. كان شيئاً مُريعاً. وأدركتُ في الحال أنها انتهتْ. وبعد يومين أخبرونا أنَّ السرطان أصاب دماغها. حدثَ ذلك فجأة»، ثم أضاف، بلا أدنى أثر من عِداء - فقط من باب التدوين في السجل - «وبأية طريقة أخرى تموت؟»

قالتْ كلير «ما أفظع هذا»

بعد أنْ ذهب والدي لكي يُخمِد لهب كل شمعة - وليُطفئ حتى تلك التي خمدتْ أصلاً، فقط من باب التيقّن - انتقلنا إلى الحديقة لكي تُريهما كلير الكواكب الأخرى المرئيّة من كوكب الأرض في تلك الليلة. شرحت موجّهة كلامها إلى مناظيرهما المرفوعة إلى أعلى درب التبّانة، ومُجيبة عن أسئلة حول النيازك، ومُشيرة، كما كانت تشرح لطلابها في الصف السادس - وكما شرحتْ لي في أول ليلة لنا هناك - إلى أنَّه كان على الجنود الإغريق أنْ يتبيّنوا ذلك النجم الصغير المُجاور لمقبض الدب الأصغر لكي يصبحوا مُهيَّئين لخوض القتال. ثم رافقتهما في طريق العودة إلى المنزل؛ وإذا استيقظا في الصباح قبلنا، أرادتْ منهما أنْ يعرفا مكان القهوة وعصير الفاكهة. وبقيتُ في الحديقة مع دازل. لم أكنْ أعلم بماذا أفكر، ولم أرغب في ذلك. أردتُ فقط أنْ أرتقي وحدي أعلى التلّ. وتذكّرتُ ركوبنا قارب الغندول في مدينة البندقيّة. «أواثقة أنتِ من أننا لم نمُتْ ونرتفع إلى السماء؟»، «عليك أنْ تسأل صاحب الغندول»

رأيتُ من خلال نافذة غرفة الجلوس ثلاثتهم واقفين حول طاولة القهوة. كانت كلير قد قَلَبَت الأسطوانة على الوجه الآخر وأعادتها إلى المُشغِّل لكي تُديرها. وكان والدي يحمل ألبوم ميداليات شكسبير بيديه. وبدا أنَّه يقرأ بصوتٍ مرتفع ما نُقِشَ على خلفيّات الميداليات.

بعد ذلك ببضع دقائق انضمَّتْ إليّ على المقعد الخشبيّ المتهرِّئ فوق قمّة التل. نظرنا من جديد، ونحن جالسان جنباً إلى جنب، ومن دون أنْ نتكلَّم، إلى النجوم المألوفة. كنا نفعل ذلك في كل ليلة تقريباً. وكل ما فعلنا في ذلك الصيف كنا قد فعلناه في الخارج بين المطبخ والشرفة الخارجيّة،

وبين غرفة النوم والحمّام، «كلاريسا، تعالي وانظري، الشمس تغرب»، «كلير، هناك طائر طنّان»، «حبيبتي، ما اسم ذلك النجم؟»

للمرَّة الأولى طوال النهار استسلمتْ للإرهاق. قالت «أوه، يا إلهي»، ووضعَتْ رأسها على كتفي. شعرتُ بأنفاسها تتوالى بطيئة، ثم تغادر جسمها.

بعد أنْ اخترعنا مجموعة كواكب خاصّة بنا من أضواء السماء الأشدّ بريقاً، قلتُ لها، «إنّه يشبه قصة بسيطة من تأليف تشيخوف، أليس كذلك؟»

«أليس ماذا؟»

«أقصد هذا. هذا اليوم. هذا الصيف. تتألّف من تسع صفحات أو عشر، لا أكثر. عنوانها «الحياة التي عشتها في السابق». تدور حول عجوزين يأتيان إلى الريف لكي يزورا زوجين شابّين وسيمين، في صحّة تامة، يفيضان بالرضا. الشاب في منتصف ثلاثينيات عمره، برؤ أخيراً من أخطاء عشرينيات عمره. والمرأة الشابة في عشرينيات عمرها، نجتْ من فترة شباب ومُراهقة مؤلمة. ولديهما كل الأسباب التي تدعوهما إلى الاعتقاد بأنهما خرجا سالمَين. كان يبدو لكليهما ويشعران بأنهما نجوَا، وإلى حد بعيد أنقذ كلٌ منهما الآخر. إنهما عاشقان. ولكن بعد تناول العشاء على ضوء الشموع، حكى أحد الرجلين العجوزين قصّة حياته، حكى عن تخلّيه عن العالم، وعن الضربات التي انهالت عليه. لا أكثر. وتنتهي القصة على الشكل التالي: رأسها الجميل على كتفه، ويده تُداعب شَعرها، والبوم ينعب، والكواكب منتظمة في مواقعها - كانت ميدالياتهما كلٌ في مكانها، وضيفاهما ينامان على سريريهما المُعدّين حديثاً، وكوخهما الصيفي، الأليف والجذّاب، يقع في أسفل التلّ مباشرة من مكان جلوسهما ويتساءلان حول الشيء الذي ينبغي أنْ يخشيا منه. الموسيقى تصدر من المنزل. موسيقى غاية في الجمال. «كانا معاً يعلمان أنَّ الجزء الأشد تعقيداً وصعوبة لم يبدأ بعد»، بهذه الجملة تنتهي قصّة «السيدة صاحبة الكلب»

«أحقاً أنتَ خائف من شيء ما؟»

«يبدو أنَّ هذا ما أقول، أليس كذلك؟»

«ولكنْ ممَّ؟»

هنا ثبّتتْ عينيها الخضراوين، الوديعتين، البارعتين والرقيقتين، عليّ. كان انتباهها المنبثق من ضمير حيّ، والجدير بغرفة الدرس، متركّزاً عليّ – وعلى ما سوف أجيب به. وبعد برهة قلتُ لها، «لا أعلم حقاً. بالأمس في الصيدليّة وجدتُ أنَّ لديهم جهاز أوكسجين قابلاً للحمل على الرف. وشرح لي الفتى هناك كيف يعمل، واشتريتُ واحداً. وضعته في خزانة الحمّام التي تضم مناشف العودة من الشاطئ، تحسّباً إذا ما وقع أي حادث لأي شخص هذه الليلة»

«أوه، ولكن لن يحدث شيء. ولِمَ سيحدث؟»

«بلا أي سبب. ولكن عندما كان يسترسل في كلامه عن الماضي مع ذينك الزوجين اللذين يمتلكان الفندق، تمنّيتُ لو أنني جلبته معي بالسيارة»

«ديفيد، لا يمكن أنْ يموت من مجرّد حماسه في الحديث عن الماضي»، ثم قالت، وهي تُقبِّل يدي وتضعها على خدّها، «أوه حبيبي، أنتَ مُرهَق، هذا كل ما في الأمر. إنه شديد الانهماك، ***ويستطيع*** أنْ يُرهقك حتى الهلاك – لكنَّ نواياه كانت حَسَنة. ومن الواضح أنَّه ما زال في أفضل صحّة. أنّه في أحسن حال. وأنتَ فقط مُرهَق. لقد حان وقت النوم، هذا كل ما في الأمر»

حان وقت النوم، هذا كل ما في الأمر. أوه، أيّتها البريئة الحبيبة، أنتِ لم تفهمي وأنا لا أستطيع أنْ أخبرك. لا أستطيع أنْ أبوح. ليس هذه الليلة، ولكنْ في غضون عام سوف يخبو شغفي. إنّه يحتضر منذ الآن وأخشى أنّه ليس في استطاعتي أنْ أفعل أيّ شيء لإنقاذه. وليس في استطاعتك أنْ تفعلي شيئاً. إنَّ ارتباطنا حميميّ – أنا مُرتبط بكِ أشدّ من ارتباطي بأي شخص آخر! – ولن أستطيع أنْ أرفع يدي حتى لألمسك... إلّا بعد أنْ أُذكِّر نفسي بأنَّ عليّ أنْ أفعل ذلك. سوف أفقد شهوتي للّحم الذي توحّدتُ معه وأعود لأتغذّى على شيءٍ كالسيطرة على حياتي. أوه، ما أشدّ غباء! وسخف، وظُلم أنْ أُسرَق منكِ هكذا! ومن هذه الحياة التي أحببتُها ولم أكدْ أتوصّل إلى معرفتها! ومَن الذي سرقني؟ دائماً يتَّضِح أنّه أنا!

وهكذا أتخيَّل نفسي عائداً إلى غرفة انتظار عيادة الدكتور كلينغر، وعلى الرغم من وجود كل صحف ***نيوزويك*** و***نيويوركر*** هناك، فإنني لستُ

شخصيّة روائيّة تعاني مُثيرة للشفقة، ومغمورة، مأخوذة من قصةٍ غير معروفةٍ لتشيخوف تدور حول أسى كائن بشريّ عادي. كلا، بل أكثر بشاعة بكثير، أقرب شَبَهاً بأبتر غوغول ذي الشهوات المكبوت والمسعور، الذي يندفع إلى مكتب الصحيفة لكي يضع إعلاناً مجنوناً ومُبوّباً يبحثُ عبره عن الأنف الذي قرَّرَ أنْ يرحل عن وجهه. نعم، إنّه أُضحوكة نكتة شريرة، سخيفة وغير مفهومة! ها أنذا، أيّها المُحتال المُعالِج، لقد رجعتُ، وأنا أسوأ حالاً حتى من ذي قبل! ها قد نفَّذتُ كلَّ ما قلتَ، واتّبعتُ بصرامة كل توصيّة منكَ، وطبّقتُ بلا مواربة أشدّ أنظمة الحِمية الصحيّة - بل أخذتُ عهداً على نفسي أنْ أدرس أنواع الشغف في صفّى، وأُدقِّق في أولئك الذين أشبعوا الموضوع تدقيقاً وبلا رحمة... وها هي النتيجة! أنا أعرف وأعرف وأعرف، وأتخيَّل وأتخيَّل وأتخيّل، وعندما يقع الأسوأ، فربما أيضاً لا أعرف شيئاً! وربما أنتَ لا تعرف شيئاً! لا تمنحني عزاء مبدأ الواقع! فقط اعثرْ عليه بالنيابة عني قبل أنْ يفوت الأوان! إنَّ المرأة الشابة المِثاليّة تنتظر! فتاة الأحلام تلك وأشدّ أنواع الحياة التي تستحقّ العيش! وها أنذا أُقدِّمُ للطبيب البارع، المهيب، الأنيق الإعلان التجاري المُعنون «ضائع»، وهي كلمة تصِفُ ما يبدو عليه شيء عندما يُشاهَد آخر مرَّة، وتصِف قيمته الحقيقيّة والعاطفيّة، والمكافأة التي سوف أُقدِّمها لمَنْ يُقدِّم معلومات تؤدي إلى استعادته: «إنَّ اشتهائي الآنسة كلير أوفيغتون - المُدرِّسة في مدرسة خاصة في مانهاتن، التي يبلغ طولها خمسة أقدام وعشر بوصات، وتزن مائة وثمانية وثلاثين رطلاً، وصاحبة الشعر الأشقر، والعينين الخضراوين - الفضيتين، وأشدّ السجايا إخلاصاً، ومحبّة، ورقّة - قد تلاشى بصورة مُلهَمة....»

ماذا كانت إجابة الطبيب؟ هل هي ربما أنني لم أعرفها أصلاً؟ أو أنَّني، بوضوح، يجب أنْ أعيش من دون معرفة ما تلاشى...

ظلّتْ الكوابيس تجتاحني طوال الليل كاجتياح دفقٍ من الماء خلال خياشيم سمكة. استيقظتُ مع اقتراب الفجر لأكتشف أنَّ المنزل لم يحترق ويغدو رماداً ولا كنتُ منبوذاً في سريري بوصفي غير قابل للشفاء. إنَّ حبيبتي كلير ما زالت معي وترغبني! رفعتُ رداء نومها عن طول جسمها الهاجع، وبدأتْ شفتاي تضغطان وتشدّان حلمتيّ ثدييها إلى أنْ انبجسَ من الدائرتين

المُحيطتين بحلمتيها الشاحبتين، المخمليتين، كأنهما لطفلة، حُبيبات صغيرة جداً وبدأ أنينها. ولكن حتى عندما كنتُ أمصّ بهوسٍ يائس المقدار الضئيل المُنتقى من لحمها، وحتى بينما أستخلص كل سعادتي المتراكمة، وكل أملي، في مواجهة خوفي من التحولات التي ستحدث، انتظرتُ ريثما أسمع أشدّ ما يمكن تخيُّل سماعه من أصوات بثّاً للرعب يصدر عن الغرفة التي ينام فيها السيد بارباتنيك ووالدي وحدهما وبلا إحساس، وكل منهما على سريره المُعدّ حديثاً.

انتهى

